بثينة العيسى

السندباد الأعمى

أطلس البحر والحرب



منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الطبعة الثانية

السّندباد الأعْمى

أطلسُ البحرِ والحرب



الكاتب: **بثينة العيسى**

عنوان الكتاب: **السِّندباد الأَعْمى**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-04-4

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2021 - 3000 نسخة

الطبعة الثانية - أغسطس/ آب - 2021 - 3000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

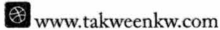
تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com takweenkw

takween_publishing TakweenPH


www.takweenkw.com

بثينة العيسى

السِّندباد الأَعْمى

أطلسُ البحرِ والحرب

رواية



فانظـر بعقلـك إنَّ العين كاذبةٌ

واسـمع بقلبكَ إنَّ السَّمعَ خوّانُ

التطَّيلي الأعمى

الفصل صِفر

المارِد خارج القُمقم

في ذلك اليوم، عندما كان جيش الاحتلال يتوغَّل في ضواحي البلاد، معلنًا امتلاكه للبحرِ والأرضِ والسَّماء، للأطالِس والمعاجمِ والتاريخ، وبينما كانت البلاد بأسرها تتحوّل إلى سِجن كبير، فوجئ نزلاء السِّجن المركزيّ، وحدهم، بالحرية.

كانت حرية مباغتة، تُشبه السُّقوط في كابوس، حيثُ قُضبان الزنازين هي الشَّيء الوحيد الثابت في عالمٍ يموجُ ويتأرجح. لم يتخيّل أحدٌ منهم، للحظة، أنه سيكون حرًا في بلدٍ مُحتل، أو يحاول فهمَ ما يعنيه ذلك.

كانت عقول السُّجناء في المجملِ عاجزة عن فهم المفارقات، وتأمّل حكمتها الإلهية، والإعجاب بحسِّ السُّخرية القدريِّ الذي تنزّل عليهم من علّ. كان أكثرهم محكومًا لأسبابٍ لا علاقة لها بالجرائم السِّياسية، ولم يمتلك أكثرهم ملَكة ربط السَّبب بالنتيجة؛ سرقات، شيكات بلا أرصدة، جرائم شرف، هتك عرض، ومخدّرات. لا يبدو أن أيّهم قد امتلك موهبة رؤية نفسهِ من فوق، والضَّحك عليها.

كان الأمر أشبه بإهدارِ نكتة.

فُتحت بوابات زنازين الانفرادي والعنابر العمومية، وصارَ النزلاء يتدافعون كالمجذوبين والبهاليل. العقلاء منهم، وهم قِلّة، أرادوا التحقّقَ من تفريغ العنابر؛ من أنهم لم ينسوا أحدًا. بعض المرويات غير المحقّقة تقول بأنّهم نسوا واحدًا، وُجِدَ بعد أسبوع، ميتًا من الجوع، قابضًا على القضبان بأصابع متيبّسة.

الذين حازوا خبرةً في الأعمال الإرهابية، مثل صِناعة المتفجرات واختطاف الطائرات، كانوا الأكثر نفعًا؛ إذ بدأوا من فورهم عملية البحث عن طريقة لتفجير البوابة الخارجية.

لا أحد يعرفُ ما حدث بالضبط. حتى السَّجين الذي تعنينا حكايته هنا، وليكُن اسمُه نوّاف، لا يعرفُ كيف حدث ما حدث.

يقتضي التَّسلسل المنطقي للأحداث الآتي؛ تبدأ أجهزة المذياع في ترديدِ أخبارٍ لا تُصدّق عن سُقوط البلاد تحت الاحتلال، فاحتشادُ الجيش العراقيّ على الحدود لأيام لم يكن مؤشّرًا كافيًا، وهو ما يبدو أيضًا مثل نكتة مفخّخة بالمفارقات التي لن يضحك عليها أحد. لكن الاحتلال وقع فعلًا، وصارَ السُّجناء يضربون على القُضبان بالأيدي والأحذية وقدور الطبخ. دوّت في أروقةِ السِّجن صرخاتهم؛ هديرٌ يتصاعد موجةً بعد موجة. آخر من بقي من الحرس، وقبل أن يغادر ويترك السجنَ لمصيرِه، يسلِّمُ المفاتيح إلى أحد النزلاء ثم يختفي. لا أحد يريد تحمّل مسؤولية إطلاق مجرمين -غاصبين، قتلة، وتجار مخدراتٍ- إلى الشوارع..

عندما تصاعَد الضجيج، وكان في أوَّله، كان نواف يحاولُ أن ينام.

غدًا يتمُّ عامه الأوّل في السِّجن. وقد بدت لهُ الذاكرة مثل حقلِ ألغام، وكان كل ما يريدُه هو أن يوقفَ عقله عن قصفِهِ بالذكريات. لقد صار يعرفُ، منذ سنةٍ على الأقل، أن للذكريات صوتَ الضُّباح وحدّة السّكاكين. ورأى صورًا تبرق بين تلافيف دماغه؛ لجٍّ وظلام. سمع جؤارًا ينبثق من أغواره وانتابته رغبة في الأنين. تاقَ إلى أن تلمسهُ يدٌ ما، في الجانب الأيسر من صدرِهِ، حيث الهاوية. ثمَّ قرّرَ أن ينام يومًا كاملًا، وإذا استيقظ.. ستكون تلك الذكرى قد صارت وراءه مرة أخرى، بينه وبينها سنة كاملة.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

كانت البطانية التي التفَّ بها مشبّعةً برائحة السَّجائر، وخمِّ العرق، والنفثالين. تأفّفَ من السُّجناء الهوج الذين لا يكفُّون عن التَّعارك. هذه على الأرجح مُشاجرة أخرى بسبب وسادة أو بطارية. لكنَّ الضَّجيج تصاعَد؛ والأصوات احتدّت وتدبّبت، ثم تقوّست في نداءاتٍ للحرس، وسمع أصواتًا تردّدُ كلمة «الكويت» ولم يفهم.. ثمّ سُمع ذلك الصوت الذي لا تخطئهُ أذن سجين؛ جلجلةُ فتح بواباتٍ العنابر، ولم يحدث مرّة واحدة، بل في مُتتالية صوتية ملأت جسده بنشوةٍ شبه جنسية، حتى وجدَ نفسه يثبُ من سريره، ليقفَ مع الحشدِ أمام البوابة، وإذا بالبوابة تفتح..

تدافع السجناءُ إلى السَّاحة الخارجية، وأحسَّ نواف بأنّه مجذوبٌ

إلى ما لا يدري. جرفه دردورُ الأجسادِ التي سار بينها حافيًا، نعله المطاطية تحت إبطه، شاخصًا بعينيه، ولوهلةٍ أحسَّ بأنَّ الألم الرَّابض على صدرهِ قد اختفى.

عندما داست قدمه ترابَ الخارج، ولمسَ ببشرته هواء الفجر، ورأى السَّماء ليلكية إلا قليلًا، والقمر الأحدب آيلٌ للاختفاء، أحسَّ بلذةٍ تعتريهِ، وعرف بأنه لم يرَ عتمة ولا قمرًا لعام كامل. وكأنه قد حُكم عليهِ بأن يرى الأشياء في سُطوعها الذي لا يُحتمل. وفي حين كان السُّجناء يتراكضون مثل صراصيرٍ أفلتتْ من قنّينة حبّال، تسمَّر مكانه مثل وتدٍ، يبتسم على نحوٍ غامض، وهو يرمقُ أبراج المراقبة الخالية من الحرس، ويرى رتلًا من النزلاء يحملون أسطوانات غازٍ من مطبخ السِّجن إلى البوابة الخارجية.

ثمَّ سمع صرخات، وتردّدت في الفضاء أسماء؛ «إلياس»، «صعب»، «عاشور» و«أبو محمد!». ورأى النزلاء الواقفين عند البوابة يركضون بعيدًا، ثم انبطحوا على الأرض.

تصرّف جسده تلقائيًا، قبل حتى أن يفهم عقله ما هو وشيك الحدوث. تمدَّد على بطنهِ واضعًا كفّيه على رأسه، وسدَّ أذنيه براحتيه، ثمّ دوّى في سماواتِ العالم صوتُ انفجار.

عندما رفع رأسه، مرة ثانية، كانت البوابة قد فُتحت، وكان السُّجناء قد بدؤوا الرَّكض في الشوارع، وكان نواف يبتسم، وكأنه الوحيد الذي فهم النكتة..

الفصل الأوّل

قلبُ حورية البَحر

(١)

حتى ذلك النهار، كان كلُّ شيءٍ في مكانه؛ البَشر على اليابسة، السَّمك في البَحر أو في المقلاةِ. لم ينقلِب العالم رأسًا على عقب، ولم تبدأ منابر في الاختفاء.

كان البَحر الذي تحوّل من الأزرق إلى الزئبقي يشبه مرآة مترامية، والسَّماء مرآة، وبين المرآتين المتقابلتين، كان الوجود متاهة.. لكن لم يخطر لأيٍ منهم أنه كان تائهًا. إلا أنهم على وشكِ اكتشافِ ذلك. أما الآن، فالشَّمس تغرُب في رويّة، وقد لطّخت السَّماء بالأرجوانيّ والنُّحاسي والبصليّ، وهو ما جعل رحيلها دراميًا بالنسبة لمن هو عائد في الغد. إذ لم يخطر ببال منابر أنَّ تلك ستكون شمسًا أخرى.

كانت قدماها تغوصُان في الرّمل الدافئ، وهي عائدة إلى الشاليه، والبحر من ورائها. أمضت السَّاعات الأخيرة تبحث عن القواقع والأصداف، القنافذ السوداء وأسماك الزوري، نجمات البحر والقباقِب والحلازين. كان جلدها قد تحمَّصَ وتقشّر، وقلبها يرقصُ من جَمال الدُّنيا.

بعد ثلاثين سنة من ذلك اليوم، ستكتشفُ أن تلك كانت مناير أخرى. لكنَّ الأمور لما تتفاقم بعد بالنسبة لها، وهي راضية جدًا، بالمايوه الذي ترتديهِ منذ سبع ساعاتٍ، وجردلٍ بلاستيكيّ مليء بالكائنات العجيبة. توقّفت أمام الدُّشّ الصدئ، في المكان الذي ينتهي فيه الرَّمل ويبدأ منه البلاط؛ مربعات بيضاء معشَّقة بحصى بنّية ورماديّة، تمتدُّ أمام الشاليه. كان الحوشُ يتوسّط المسافة بين كوخيْن توأمين، أحدهما لأبيها والثاني لعمّها. جُدران من الجصّ. سقفٌ من الصَّفيح. شتلات من الدفلى والريحان وأزهار الحمّيض. تعرفُ مناير بأن هناك تفاصيل أخرى تخصُّ المكان؛ الرَّمل الذي تسلّل في شقوق البلاط، رائحة الدهن الذي يبقبقُ في المقلاة، وفلول النَّمل تحمل نُتفًا من الطحالب المتيبّسة. في الليالي، كانت تسمع عواء الكلاب السائبة، والجداجد، وأحيانًا؛ الموسيقا.

غسلت قدميها على عجلٍ بالماء الذي خرجَ من الصنبورِ متقطعًا، مثل نوباتِ عطاسٍ. وهمّت بالدخول عندما سمعت زوجة عمّها، وليكن اسمها هُدى، تناديها: «على وين يا بنيّة؟» أشارت لها بالعودة إلى الدّش، فهي لم تنظف نفسها كما يجب. دعكت شعرها بالشامبو ولفّت جسدها بالمنشفة، خبطت مؤخرتها برفق وهي تدفعها داخل الشاليه. ستتذكر مناير بعد سنوات أن هدى اقترحت أن تضمّخ رأسها بالحناء غدًا قبل نزولها إلى البحر. لكنّ المرء يتحرّر من وعودهِ بعد الطوفان.

على أرضية غرفة الجلوس، صفّت مناير القواقع والأصداف، القنفذ الأسود ونجمتي البحر ويد القبقب الحمراء. كان هناك

أيضًا دفتر مذكراتها المعطّر، قلم رصاص وممحاة تفوح منها رائحة العلكة. ومثل الغاصة والنواخذة والطواويش القدماء، انكبَّت تفحصُ القواقع وتدوّن في دفترها حصيلة صيدها. كانت تعرفُ أسماء القواقع كلها؛ «نابُ الفيل» أو «البطّوش»، «العُوعو»، «خلالة البحر»، و«زبوط النقعة». وتتفحص كنوزها وفق معايير صارمة. نعومة الملمس وفرادة اللون. أحيانًا تلحس سطوحها وتتلمَّظ بباقي الملح، وتشعرها هذه الحركة بأنها محترفة. لكن الشيء الذي تثمّنه أكثر من غيره هو الهديرُ العجيب الآتي من أعماق «ناب الفيل». سوف تتخيّل مناير دائمًا أنَّه سماعة هاتف، وأن البحر على الطرف الآخر، يهمسُ لها بأسراره؛ ألو مناير؟ أنا البحر وأنا لا نهائي، في بطني حيتان وغواصات وسلاحِف، وفي أعماقي تقبعُ الشُّعب المرجانية والسُّفن الغارقة والجثث، إذا نظرت إليّ سترين لونين؛ الفيروزي والنيلي. في الخطّ الفاصل بينهما تعيش حوريات البحر، والحورية هي التي تهربُ من بيتِها بسبب الحُب، وهي حسناء بلا صوت. ألو مناير، هل تسمعينني؟ هناك سمكة نافقة على الشاطئ، أعيديها إليَّ رجاء. ألو مناير، يمكنك الاحتفاظ بيدِ القبقب التي عثرتِ عليها اليوم، إنه سعيد لأنها معكِ. ألو، منايرُ.. السندباد البحري يمخرُ الآن عُباب المحيط الهندي ويغني «بلادكم حلوة، حلوة، بس الوطن ماله مثيل»، ألو، منايرُ.. ما طعم الإسمنت؟

كانت منايرُ ترسم عندما ظهرَ ابن عمها، وليكن اسمه فوّاز، وانتزع منها دفتر مذكراتها المعطّر، فصار هناك خطٌّ أحمر يمتدُّ من منتصفِ الصَّفحة حتى آخرها. ومثل أي مشاجرةٍ نموذجية بين

بُنيةٍ في السابعة وفتى في الرابعة عشرة من العمر، رفع فواز الدفتر عاليًا لتبدأ الطفلة في القفز مثل زنبرك. وانتهى بها الأمر إلى التَّصعيد المعتاد: «ترى والله أفتّن عليك!». كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي تستطيعه تقريبًا، أن تعوّل على قدرتها على خلق فضيحة، آملة أن تكون مقوِّمات الفضيحة مكتملة في أذهان الكبار؛ قُضاة العالم. إنهم يتصرّفون غالبًا وكأن مشاكلها بلا أهمية. وأحيانًا يقولون بأن الفِتنة أشدُّ من القتل. والحقيقة أن كل شيءٍ يفعلونه ينمُّ عن بساطة القتل. لكن دعونا لا نستبق الأحداث..

حتى تلك اللحظة، كان فواز يخبط الدفتر على رأسِ الصغيرة ثم يرفعه ويقول هيّا، اقفزي أعلى. تريدين دفترك؟ يرفعه ويبتسم؛ خذيه. وأحسّت مناير بأنها قليلة؛ قليلة وضئيلة، مثل «زبوط النقعة». حاولتْ أن تتسلّق جذعه، لكنه دغدغ إبطها فسقطت وارتطمَ رأسها بركبتيهِ، وقبل أن تنفجر بالبكاء ألقى بالدفتر من يدِه.

كان عمّها قد شرح لها مرَّة ما يعنيه لقبها ذاك؛ «زبوط النقعة».

قبل أيامٍ كانا عائدَيْن من البحر ومعهما دزينة من القواقع الصغيرة؛ بنفسجية وبصلية وبيضاء، ذات قرون وبحزوز على سطحها وفي أعماقها حيوانٌ بكلّابتين. «هذا الزبّوط». ولم تسأل إن كان الزَّبوط يشمل القوقعة، أم أنه الشيء المضحك في داخلها. قال عمُّها وهو يقبض على أحد القواقع، ثمّ ألقاهُ في نُقعة ماء: «وهذي النّقعة». وفهمت الأمر تمامًا؛ إنها الصِّفةُ التي يطلقها الكبار على الصغار ليضحكوا عليهم لأنهم صغار.

ذهبت مناير إلى المطبخ لتشكو فواز إلى أمها. قالت أشياء من قبيل؛ اصنعي لي أخًا، أو أكثر من واحد، وإذا لم تعطِني أخًا، فاشتري لي قطّة! الأمرُ الذي بدا تصعيدًا مبالغًا فيه، بعد دراسة الحيثيات. وتصرفت الأم وكأنَّ كلامًا كبيرًا لم يُقل، عن الإنجاب والإخوة والقطط. اكتفت برفع غطاء القدرِ ولحست طرف ملعقة مغموسة في صلصة الطماطم وهمهمت بأن «الدَّقوس» ماسخ ثم ذرَّت عليه رشة ملح. وأضافت، وكأنها تذكرت فجأة، أن على مناير أن تدهن جسدها بالزيت لأنها آخذة في التقشّر مثل بطاطا مسلوقة.

انسحبت مناير من المطبخ بهدوء، وخرجت تبحث عن أبيها.

(٢)

ثمّة ما لا يفهمه نوّاف.

أمرٌ كان يحدث أمامه طيلة حياتِه، لم يخطر له أنه يضمرُ في أعماقه معنى.

عندما كان عامر يدوزنُ أوتار العود، وطلال يُقلّب الجَمر في الشيشة، ظل نواف يرمقُ البحر المنحسر بعينين شاخصتين. وحين جاءت ابنته تدسُّ نفسها بينه وبين أخيه، تسأله لماذا لا يجلب لها أخًا أو يشتري لها قطة، وفي حين أغربَ كلٌ من عامر وطلال في القهقهة، لم يضحك نواف، ولا حتى ابتسم. ربما وضع يده على رأسها للحظة، وربما فعل ذلك كي يدفعها بعيدًا.

منذ تلك اللحظة، على الأرجح، صار الأب عاجزًا عن النَّظر إلى ابنته. سوف تعرفُ مناير، عندما تكبر، أنَّ الطّفل يُصبح لا مرئيًا عندما يكفُّ أبواه عن النَّظر إليه. لكن هذه أفكار سوف تساورها بعد ثلاثين سنة، أما في تلك اللَّحظة، فقد كانت شبه مرئية، ولو

شاءت أن ترسم نفسها، لجعلت جسدها نصف شفاف، يمكن أن تُرى الأشياء من خلالها.

صمتت مناير، واكتفت بأن تندسَّ، بجسدها نصف المرئيِّ نصفِ الشَّفاف، بين أبيها وعمّها، لأنها تحبُّ صوت بقبقة الماء، وتحبُّ جَرْسَ العودِ وحنينه وصوت عامِر إذا غنى، والبحر إذا جزَر، وهبوط الليلِ الوئيد، ولأن لساعدِ أبيها ملمسٌ طيّب، ولجلده رائحة تخصُّها.

ولأن العالم لم ينقلب على عقِب.

ليس بعد.

كانوا جُلوسًا في الحوش، أمامهم الرَّمل وقد تقهقرَ البحر في جوفِ الليل، لا يأتيهم إلا همسه. الظلمة بهيمة والكواكبُ تصطفُّ على نحو ينذر بكارثة. وعندَ السَّقف القرميدي للشاليه العتيق الذي ورثه الأخَوان من أبيهما، وورثه أبوهما من جدّه، وحصل عليه جده من الحكومة بموجب «حق انتفاع».. كانت العُثث ترفرف، والضَّوء الذي يرتعش في زجاجات النيون يجتذب حشرات الليل، وكان في وسع نواف أن يرى السُّوس في الخشب، والصَّدأ في الأعمدة، والصّدع بينه وبين زوجِه.

يطلُّ الشَّاليه على البحر من أمامه، وعلى الخورِ «الأعمى» من خلفه، قائمًا على لسانٍ من اليابسةِ بين بحرين، أحدهما غائر العُمق داكن الزرقة، دَرْدوره شرس وتيّاراته غير مأمونة، والثاني شاسع وأبديّ، فيروزي وفضّي، يلعبُ لعبة المدِّ والجزر.

ليس مسموحًا لمناير بأن تسبحَ في الخورِ لأن تياراته شديدة، لكنها تستطيع أن تبقى على «الإسكلة» القريبة، تلقي بنتفٍ من الخبز البائت لتجتمع حوله أسماك الزُّوري ثم تصطادها بالشبكة. كانت تحبُّ هذه اللعبة. أن تصطاد عشرات الأسماك الفضّية الصَّغيرة، تضعها في جردل، ثم تحملها إلى البحر الأمامي؛ الأكبر، معتقدة بأنها تُسدي إلى تلك الأسماك خدمة، بأخذها إلى بحرٍ أفضل.

كانوا جالسين على مساند «السَّدو»؛ وسائد مغلفة بنسيجٍ مخطّط بالأحمر والأسود والأبيض، تملؤه الفجوات بسبب تساقط جمرِ الشيشة. مناير تحرك سبّابتها على الخطِّ الأبيضِ، تنصتُ إلى عزفِ عامر، الباب يفتحُ ويخرج فواز ممسكًا بحربةٍ ومصباح يدوي، ذاهبًا للقُمبار. يناديها فواز؛ «مناير تعالي نصيد قُباقب!» لكنها تختبئُ وراء أبيها.

طلال يسأل ولده:

- فواز، ليش مزعِّل بنت عمك؟

لوّح فواز بحربته غير مكترث؛ «هي اللي دلّوعة يُبه!» وهزَّ كتفيه، ثم أولى الجماعة ظهره سائرًا نحو الماء. وأمِلَت مناير أن يسألها والدها إن كان للأمر علاقة برغبتها في أخٍ أو قطة. لكن إقامة علاقة بين الأمرين، شيء لم يخطر بباله، ليس لأنَّ الرابط بينهما غير معقول، بل لأنه كان داخل رأسه، وكان في رأسه غبشٌ كثيف.

في تلك السَّاعة، كان نواف يعيد شريط ذاكرته لظهيرة اليوم. مرَّة تلو الأخرى، مثل مُفتّش مباحث يعيد ترتيب الوقائع مفتّشًا عن

أدلة. فيمَ انخرط كلٌّ من عامر وطلال في مناقشة صنوف القضايا؛ منذ تطوّرات انسحاب الجيش الأحمر من أفغانستان، مرورًا بمآلات الانقضاض على الطلبة الصّينيين قبل شهرين في ساحة تيانانمن، وانتهاءً بالحصيلة اليومية لضحايا انتفاضة الحجارة الفلسطينية التي لم تتوقف منذ ديسمبر ١٩٨٧. أطلق عامر شتائم نابية، ناسيًا وجود منابر، وقال أشياء عن أمهات القادة والسَّاسة والمجتمع الدولي: «هذي مو انتفاضة حماس، هذي انتفاضة كل الفلسطينيين، وبلاش تكسُّب، مو وقته»، وتذكَّر وهو يناقش كل قضايا الكون أنهما عاجزان عن مناقشة الشأن المحلّي بأريحية، متخيّلًا رجال المباحث المنتشرين في الدواوين وبين الطلبة ونقابات العُمّال. مراقبة الصحف، الدستور المعطّل، وأشياء من هذا القبيل.

أما بالنسبة لنواف، فقد جلس صامتًا، شاخصًا بعينيه، يفكر في زوجته، في حبها للروايات وخوفِها من البحر. كانت تجلس على الرمل تحت مظلةٍ قماشية، تقبض على كاميرا الفيديو عندما يكون مزاجها رائقًا، وتغنّي «السامريات» التي تحبُّها. نادية صوتها رخيم، عميقٌ ومشروخ ببحّةٍ محببة. والحقُّ أن كلّ ما فيها يعجبهُ، شعرها الأسود القصير، سرّتها الناتئة، غمازتيها الغائرتين وأمشاط قدميها. كان يحبُّ، على نحو الخُصوص، انتشار الشّاماتِ على ظهرها. أسفل ذراعها اليمنى توجدُ دائرة مصبوغة بالبنيّ الباهت، تمتلئ بحبات خالٍ صغيرة؛ مثل مجرّة توشك أن تولد. كان يقبّلها هناك عندما يشتهيها. كان يمكن لنادية أن تكون نجمة سينمائية، إذا اختلفت السياقات، وأحسَّ داخل عقله بأنه مخرج أفلامٍ يوجّه طاقم التَّصوير

إلى شفتيها تحديدًا، حيث ذلك التقوُّس الطَّفيف الذي بالكاد يُرى، أشعرهُ على الدَّوام بأنها حزينة، وأنه لا يكفيها.

ثم اختلس نظرة إلى عامِر..

وكأنه يراهُ للمرة الأولى. أعاد تشغيل الشَّريط داخل رأسه، ورأى نادية جالسة على المنشفة أمام البحر، تصوِّتُ على مناير لتدهن جسدها بواقي الشَّمس. الطفلة توغَّلت في البحر حتى لامسَ الماء ذقنها. ولأنها تريد البرهنة على شيءٍ ما لابن عمّها، رفضت أن ترتدي العوّامة، وسبحت مثل ضفدعةٍ حمراء، حتى بلغتهُ وتعلّقت برقبته.

ومثل كلِّ مرة، كانت نادية تموتُ من الخوف، رغم أنه لا داعي للقلق، فالطفلة لن تغرق بوجوده، وطلال، وهدى، و..

عامر أيضًا قادم.

يراه في شريط ذاكرته خارجًا من الشاليه، يقترب، يقعي أمامها، يقول لها أمرًا وتقولُ له أمرًا، ثم ينهض مهرولًا جهة البحر. يريد نوّاف، دون أن يفهم لماذا، أن يعرف الأشياء التي قالاها لبعضهما.

كان ينظر إلى عينيّ زوجته، دون أن يستطيع أن يراها.

نهض عامر وزمجر «القرش قادم!»..

مناير تكعكع. تخلت عن تشبّثها بكتفيه وراحت تبلبطُ.

على مبعدةِ خطوتين، كانت هدى تنظرُ إلى نادية الوحيدة على الرَّمل. ورغم أنها معتادة على رؤيتها في ذلك المكان، ورغم أن العائلة

كلها تعرفُ بأنَّ نادية هي امرأة الضِّفافِ، إلا أنها هذه المرة سألته: «شفيها نادية اليوم؟»، الأمر الذي ضاعف شكوكه.

سأل:

- شفيها؟

- مادري..

ولا هو يدري.

بدت نائية على نحوٍ خاص، تتسرَّب من بين أصابعهِ كخيوط الرمل. لا يستطيع أن يراها ولا حتى داخل رأسه، لا يدري ما الذي يجعلها تأرقُ، وتتهرّب من المضاجعة، وتبدو أنفاسها وكأنها تُنتزع من العالم انتزاعًا.

تعالت ضحكات مناير وهي ترى عامر يقترب، يسبح بيدٍ واحدة ويثبّت الأخرى أمام رأسه، مثل زعنفة قرش. عاد نواف ينظر إلى امرأته الوحيدة على الشاطئ. بينهما أرضٌ وبحر. يريدُ رؤية ملامحها عن قرب، لكن الشَّمس شديدة السطوع، والرّمل أبيض، وسطح البحر يبرقُ بتكسّرات الضوء، وهو لا يستطيع رؤية شيء..

(٣)

فكّرت نادية في الأشياء التي قالتها بالأمس:

عندما أُتمُّ الأربعين من عُمري سوف أكتب رواية.

كانت تعتقدُ بأن الرِّواية لا تُكتب قبل الأربعين؛ لأنها مثل النبوّة.

أمامها ثلاث عشرة سنة لكي تُتمّ الأربعين. بدت فترة طويلة بالنسبة لامرأة غير راضية بما وصلت إليه حياتها. وتساءلت إن كانت تريدُ أن تكتب لهذا السَّبب تحديدًا؛ لكي تُصحِّح الخطأ. تعرفُ نادية، على نحوٍ غامض ومجرّد، أنها تريد أن تكتب رواية تشبه قصة الخلق؛ رجل وامرأة، حبٌ وخطيئة، طوفانٌ وفُلك، قيامة وحساب. تريد أن تكتب القصّة التي يكتبها جميع الكتّاب، لأنها قصة مقدّسة، كلاسيكية، تشبه ذوقها.

مساء أمس، كانت تتحدَّث على هذا النحو وهي تمشي خطوتين خلف نوّاف وعامر، ومن خلفها هدى تشبك ذراعها بذراع طلال.

تتناهى إليها همساتُهما التي تتخللها هأهأة؛ خمسة عشر عامًا من الزواج وما زالا يضحكان، شيء يعيدُ الاعتبار لمؤسسة الزوجية قليلًا.

لكن ليس بالنسبة لها.

كان الجَزْرُ قد أخذَ البحر كله، وصار المكان كله رملًا، وبِركَ ماءٍ، ورملًا، وبِركَ ماء. مناير تحاول إعادة نجمة بحرٍ إلى السَّماء. ولكن عندما ظهر سلطعونٌ من بين الصخور فاردًا كلّابتيه، نسيت كل ما له علاقة بالنجمة، وفردت ذراعيها وصارت تمشي أفقيًا وتغني: «يمشي على أردانه.. القبقب»، وبدت -هي والسلطعون- مثل مصارعيْ سومو.

وعادت نادية تتحدث عن الرواية التي ستكتبها بعد ثلاث عشرة سنة.

كانا يسيران بإيقاعٍ واحد، عامر ونواف؛ مثل رجلٍ برأسيْن. وفيما هي خلفهما بخطوتين، كانت تحدّثهُما عن الرواية التي تنوي كتابتها؛ رواية من ثلاثة أبطال، رجلين وامرأة. وكانت تعرف بأنهما يريدان الحديث عن أشياء أخرى؛ عن الاجتماع الأخير لمجموعة الـ ٤٥ الشعبية الرديفة لتكتّل نواب المعارضة، المطالبة بعودة العمل بالدستور المعطّل، وآخر أخبار الاجتماعات التنسيقية كما وردت من ممثل قائمتهما، إضافة إلى دردشة متقطّعة عن محاولة اغتيال «سلمان رشدي» في أحد فنادق لندن، والذي أذاعته الـ BBC قبل ساعة، ثم سألها عامر عما تقرأ. فقالت بأنها تعيد قراءة أعمال «يوسف السباعي» لأنها تريد أن تتعلم الفنّيات.

لكز نواف صاحبه في ذراعه:

- مو قلت لك؟

ثم أضاف:

- «ندّوي» تحبّ يوسف السباعي أكثر مني.

أشاحت بعينيها.

القصص ليست مادةً للتندّر. نواف لا يفهم.

عامِر نكّس رأسه. سكت.

يستطيع عامِر أن يطمسَ ملامحه. أن يبدو لا مباليًا حتى لو اكتوت ضلوعه. ولكنه يتمتع بمجسّات حسَّاسة تخبره متى يجدر به التوقف عن المزاح، والأهم؛ متى يكف عن تأدية هذا الدور، عن الكذب.

وعرفت نادية طبيعة الرواية التي ستكتبها؛ إنها قصة امرأة تزوجت رجلًا لن يحبها كما تحتاج، بل كما يريد. سينظر إليها دائمًا بصفتها انعكاسًا لشخصه. سيجعلُ من حاجاته حاجاتها هي، وستظل حاجاتها مجهولة تمامًا حتى بالنسبة إليها. سيكون أقرب شخصٍ ممكن، ومع ذلك فهو أجنبيٌ تمامًا، لأنه لا يراها. وبالتأكيد سيكون هناك رجل آخر، وإلا فأين الحكاية؟

وحيدة على الشاطئ، أرسلت عينيها في البحرِ، طفلتها تعومُ بين أبيها وعمّها. كانت الشمس تطبخُ كل شيء؛ الرمل والموجَ والرؤوس. سحبت قدميها من الرّمل وتربعت فوق المنشفة، بعد

أن أمالت المظلة قليلًا، أمسكت سكينًا كبيرة، وفلقت بها بطيخة. لكنها بدأت تهرش عندما رأت القصّيع والطحالب تنثُّ عطانةً في الهواء. إنها لن تحبَّ البحر أبدًا، ولكن كلاهما يحبه؛ نواف وعامر. توقفت أفكارها عند الاثنين، ونسيت أن تذكر البقية.

تتذكر حديثهم مساء الأمس عندما ذهبوا للمشي؛ أكثر من عشرين ألف شخصٍ وقعوا عريضة تطالب بعودة الدستور، لكن الصُّحف لن تنشر أي شيءٍ. كان نواف يحاجج بأنّ عودة البرلمان باتت حتمية بعد أن انتهت الحرب العراقية الإيرانية، فليس في وسع السُّلطة أن تجادل بأن البرلمان سبَّب انقساماتٍ في الشارع. ولكن عامر له رأي مختلف؛ قال بأن نهاية الحرب يمكن أن تعني العكس تمامًا، إذ يمكن أن تشكّل حرب الجوار ضغطًا إيجابيًا لإعادة الحوار مع الشارع، لكنَّ هذا الضغط ما عاد قائمًا..

نواف يعلق:

- ونادية تبي تكتب رواية.

كانت تشعرُ بالضآلة، أمام نواف، وأمام البحر.

كانت في عُمر مناير تقريبًا عندما قذفها أبوها في البحر من سطح قاربه. ثم ظلَّ واقفًا، ينظر إليها من عِلٍ، سيجارته في يدِهِ، وهي تضربُ الماء بذراعيها وتصرخ بأنها ستموت.. وكان يصيح فيها؛ اسبحي! حركي ذراعيكِ! أحسَّت بخوارٍ في ساعديها وابتلعت الكثير من الماء. عندما انتُشلت من الغرق، لم يكن أبوها هو الذي بادر لإنقاذها.

في كل مرة كانت تحكي تلك القصة، كانت توصمُ بـ «المبالغة»، فأن يُلقى بك في البحر بغتة، أمرٌ شائع لدى أغلب العوائل، وهي الطريقة التقليدية التي تعلم بها أكثرهم السِّباحة. حتى نواف لم يفهم. هو أيضًا أُلقي به في البحر من سطحِ قارب، حرك ذراعيه وساقيه وملأ رئتيه بالهواء، وأصبح سبّاحًا «أولمبيًا» على «سِن ورمح». وفكرت نادية بأن المبالغة تبدو مقبولة في سياقاتٍ بعينِها، ولأشخاص بعينهم، وربما لجنس الرجال تحديدًا.

ورغم أنها لم تحب البحر قط، إلا أنه يبدو مثل المكان الوحيد الذي يمكنهم أن يلوذوا بهِ عندما يمعنُ الواقع في الجفاف. ويبدو أن الدولة قد أمعنت في خذلانهم طوال ثلاث سنوات، وكانوا في حاجة إلى هذا البراح؛ وإن كانت نقاشاتهم السياسية تلاحقهم مثل أخطاء الماضي. وفكرت نادية بأنه لو أمكن لنواف أن يجلب البحر إلى البيت، لفعَل. أحست بأنها قادرة، رغم كل شيء، على أن تحنو عليه بأفكارها لتراهُ على حقيقته؛ بحّار لقيط في زمن النفط، سندباد بلا سفينة ولا مرسى.

خرجَ عامِر من الشاليه، خلع فانيلته وألقى بها على الرَّمل متأهبًا لمطاردة مناير. وقف محاذيًا نادية لثوانٍ، وهمَّ بأن يقول شيئًا. شيئًا عاديًا جدًا، كلامًا مجانيًا عن الحرّ ولون البحر، لولا أن وجهها أخبرهُ، بفصاحتِه المعهودة، كم هي غاضبة عليه.

(٤)

عرف عامِر بأن الأمور ليست على ما يُرام.

هذا ما تفعله نادية عندما تزعل؛ إنها تنطوي، تندسُّ في درقة سلحفاةٍ خلفَ صفائح قرنية صلدة. تنبذ قدرته المعيبة على التكيّف في عالمٍ يُعاش بالمقلوب.

كانت تعاقِبه.

على أيّ شيء؟

على كلّ شيء، على كل ما لم يفعله.

كان يعرف.

تجاسرَ واقترب، أقعى ينظر في عينيها، يريد أن ترى أنه لا يستخفُّ بِألمها، أنّه ليس بصاحِبه.

- وبعدين يا نادية؟

تُطأطئ. إنها لا تملكُ ردًا لكلمة مثل هذه؛ ماذا بعد؟ هل ثمة بعد؟ أم أنها عالقة إلى الأبد في حكايةٍ لا تخصُّها؟

- سلامتك.

- قولي لي شاللي يرضيك؟

يختلجُ خداها قليلًا، تشيح بوجهها:

- لازم نتكلّم.

هذا هو الأمرُ ببساطة؛ الصّمت يؤلم، وهي تجفُّ من الوحدة. مرئية وغير مسموعة؛ لا أحد يعرفها على حقيقتها، ولا حتى هي.

- ما يصير يا بنت الحلال..

- أنا لي حق عليك.

- ليش.. في شي ما قلناه؟

- أنا عندي كلام..

يرتعش ذقنها لحظة، صدوعٌ تنتشرُ في صدره؛ هشيمُ الحكاية القديمة..

- تبين تسَفْلين فيني؟

- تقريبًا.

تفلتُ ابتسامة من فمه. يتخيل اللقاء؛ هو مطأطئ الرّأس مثل ولدٍ شقيّ، وهي تلوّح بسبابتها في وجهه؛ «فعلتك.. تركتك، يا جبان، يا كلب». ولكنه يعرف بأن سباب البنات لا يوجِع، ليس لرجلٍ مثله، إنه شيءٌ يشبه الدغدغة في الخاصرة، وفيه حبٌّ خفير، ولن يكون عليه قول شيء، لا شيء إلا «أنا آسف»، و«نواف ما

يستاهِل»، وربما «ترى اللي تسوينه مو زين». كان يراها تذهب حثيثًا لتدمير كل الأشياء؛ زيجة عشر سنوات، طفلة، عِشرة عُمر وسنين يا نادية. ما جدوى القول؟

عليهِ أن يعتذر.

- إذا يريحك حاضِر..

- متى؟

- بالليل..

ابتسم.

- ماشي..

«ابتسمي»، قال. افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ فأحسَّ بوخزةٍ في قلبِه، لكنه نهض ورفع راحته فوق رأسه وتحوَّل إلى القرش الأبيض. منابر تلمح مجيئه، تصرخُ وتسبح بعيدًا عن أبيها..

عندما غمر الماء نصف جسده، وصار يقلد موسيقا القرش الأبيض في الفيلم، مهددًا بأنه سوف يتذوق قدميها اللذيذتين، سوف يغمسهما في الشاي بالحليبِ مثل «البقصم» ويمصمصُ عظامها.. سبحت منابر أسرع، وفيما هو يلاحقها كان قلبه ينقبض.

ما الذي تريدُ نادية قوله؟ فقد قيلت كل الأشياء.

ليس كلّها.

ليس بالضّبط.

وتذكَّرَ توسّلاته لأمه قبل عشرِ سنوات.

كانت والدته يومها تُخلّلُ شرائح ثوم الجبل بعد أن عبأت الجرار بالخلّ والملح. استغل غيابَ شقيقاته وفاتحها بالأمر: «عاجبتني يمّه.. حابها. ميّت عليها، طلبتك يمّه، كلمي أبوي». يتذكّر سؤال أمه الوحيد؛ «هي سنيّة؟» ولا يتذكر ما قاله بعدها، ربما كان شيئًا من قبيل:«كلنا أمّة محمّد». لكنه يعرفُ بأنَّ أمه قد فاتحت والده بالأمر، وأن والده قد صمَتَ صمْتَ الآلهة.

منذ تلك الأيام عرفَ بأنَّ ما قاله، عندما كان غرًّا ومثاليًا وطريّ العود، لا صِحَّة له، فلسنا كلنا أمة محمد، هناك نحن، وهناك هُم، وهم لن يفهموا أبدًا طبيعة الضُّغوط التي تهيمن عليه لمجرد أنه ولد بهذا الإرث. وبعد سنوات، عندما سيشعر بالتمييز يحكُّ جلده، لن يشاركهم الأمر. لن يخبرهم عن اضطراره الأزلي إلى البرهنة على ولائه، لن يقول بأن الحكومة لا تقبل تعيينه في المراكز الحساسة، وأن بعض افتتاحيات الصُّحف وكتّاب المقالات يصنّفونه وجماعته كخونة ومندسّين و«طابور خامس»، أنه مضطر إلى كراهيةِ إيران لأنه شيعي، كل شيءٍ سيقوله عن الرئيس العراقي المجنون سيصبُّ تلقائيًا في التشكيك في وطنيته، مهما بدا صحيحًا.

كان مثلها؛ يختنق في الصمت. ولكن هذه أشياء سوف يتعلمها لاحقًا، بعد أن تتزوج نادية من صديق عُمره. أما هو فقد استسلم قبل أن تبدأ المعركة. لأنه يعرفُ أنَّ ما من قوة تستطيع التصدّي

لصمت أبيه، والإله عندما يصمت يصبح أقوى. كان الألم يشقُّ صدره، وصهير الحِمم الذي يجري في عروقهِ يؤلم، والشوق، والأرق، والشوق أيضًا، ثم الشوق مرة أخرى، والرغبة السقيمة إلى لمسِها، شمّها، اعتصارِها، في أن تكون امرأته التي تخصُّه.

نحلَ عوده واحتضن عوده طوال الأسابيع التالية، يغني عدنيّات الشجنِ والصَّبابة والدَّنف التي تُغرف من قاع القلب: «ردّي كفاني كفى، ردّي قتلني الجفا». يغنّي لأنه لا يستطيع أن يبكي، أو ينام، أو يبكي، أو يبكي. لقد أجهض والده بصمته كل آمالِهِ. تراهُ لهذا السَّبب ضعفَ أمام صمتها؟ وعدها بأن يتحدّثا، أن يرتّب لها الحقائق، ألا يتحوّل إلى إلهٍ مثل أبيه. لكنه في تلك الأيام، بعد أن اكتشفَ أن الألم نفقٌ مسدود في طرفيه، وأنه ما من بصيصٍ؛ لا قنديل، ولا شمعة، ولا حتى حشرة مضيئة.. قرّر أن أفضل طريقة لتجاوز الألم هي بأن يتظاهر بأنه لم يحبّها قط. أن يخبئ قلبه في صندوق، ويلقي بالصندوق في البحر. ولم يتخيّل أن نواف سيكون على الضفة الأخرى، ليحصل على الحياة التي لم يحارب من أجل عيشها؛ ليس نادية فقط، بل منايَر أيضًا.

منذ عشر سنوات، قرَّر عامر أن ينسى نادية. أن يكون.. عقلانيًا، أن يمنطقَ عاطفته ويُخضعها لقانون الممكن والمستحيل. فهو في النهاية ابن الشوارع الممرَّغ بالسياسة الملمّ بالممنوع والمتاح، يعرفُ أن الوقت ليس في صالحه، وأنَّ من الأنانية أن تجعل امرأة تنتظرك إلى الأبد.

هكذا، أصبح نسيانُها مشروعه. ضلعًا بعد آخر، سوف يقتلعها من قلبِه، منذ أول غمازة وحتى آخر شامة حمراء. وكان يعرفُ بأنه إذا أراد أن ينساها حقًا، لا أن يتظاهر بذلك فقط، أو إذا استخدمنا تلك الكلمة؛ أن يتجاوزها، فعليه أن يبقيها أمام عينيه، دون أن يحبّها. كانت الخطّة تقتضي أن ينظر إليها دون أن يشتهيها. أن يحوّلها إلى أختٍ له. ألا يتخيّل عُريها السائل ولا يسمع بحّتها داخل رأسه، ولا يسمح لدمائه بأن تفور في عروقه كلما لمحها في ممرات الكلية.

لم يخبرها قطّ بمشروعه، وهي.. لم تفهم.

أو أنها صدّقت بأنه لم يحبها، أنها «مثل أخته» فاطمة، كما كرّر عليها مرارًا. لقد صوّب إلى قلبها متوالية سكاكين. عبثَ بحدسها الأنثويّ، وصادرَ حقها بأن تكون مشتهاة من رجلٍ تحبه، تلاعبَ برأسها حتى ما عادت قادرة على رؤية الحقيقة، استبدل سرديةً بأخرى؛ من قصة حبٍ متبادل إلى قصَّة مزيفة وباردة عن الأخوّة والزمالة، قصة رديئة تشبهُ كتاباته في الصُّحف. لقد ذبح الحقيقة وأوهمها بأنها واهمة. ولهذا السَّبب ينبغي أن يعتذر.

وجد نفسه يتسمّر واقفًا، في عرضِ البحر. منابر على بعد خطوات، لكنه لم يسبح، رغم أنها كانت تُقرقر وتصرخ «القرش الأبيض!»، ونواف ينظر إليه عاقدًا حاجبيه. في تلك اللحظة تساءل لماذا، عندما كان غرًّا في الجامعة، ظنَّ بأنه يستطيع تحويل مساراتِ عاطفته؟

مرّت عشر سنوات. لكنه لم يكبُر، مثل أي رجلٍ ميت.

رفض أن يتزوّج، وكانت تلك طريقته في الانتقام من أبيه. وكانت مناير، من بين أطفال العالم، هي الابنة الوحيدة التي لم ينجبها.

شعرَ بأن ملامحه تفضحه، فغطسَ رافعًا راحته مثل زعنفةِ قرش. سبحت الطفلة، وسبح أسرع منها، قبض عليها وراح يُعضعِضُ ساعديها وهو يردّد: هَم! هَم!

كان يحبُّ هذه اللعبة، يحبُّ أن يكون قرشًا وحيدًا في العُباب، بلا رثاءٍ للذات، ولا ألم.

(٥)

هل كانت الإشارات أمام عينيه طوال الوقت، وهو يراها الآن للمرّة الأولى، أم أنَّ الأمر كلُّه اختراعٌ من خياله؟

لا يدري.

كان يعبُّ من دخان الشِّيشة في الوقت الذي أخذ فيه عامر وطلال يغنّيان: «أتت هند شاكية أمّها». عامِر يغنّي وطلال يصفّق، مكتفيًا بترديد ما جاء في ذيلِ كل بيت من قصيدة الأخطل الصغير: «قبلتين، خصلتين، مرّتين». نظراتُ الاثنين كانت تلتقي في تواطؤ ذكوري أمام ماذا؟ أمام هند. فتاة الأغنية التي تراوحُ بين البراءةِ والمجون. تشكو إلى أمّها (الله أعلم ابنة من هذه) الفتى الذي قبّلها قبلتين. كان شقيقهُ يشيرُ إلى صدرهِ مكوّبًا كفّيه فيما عامر يغني: «وأبصرتُ في الصّدرِ رمّانتين». وتلألأت أعينهما من فرط النشوة، كأن واحدهما قد قبّل هندًا فعلًا، قبلتين.

نواف يعرف عامِر منذ الطفولة. لقد لعبا الكرة حافيينِ في الساحاتِ الرملية، تسابقا في حفظ أبيات أبي نواس وعمر بن أبي

ربيعة، صنعا أقفاص الطيور وطاردا الطُّعوم في البواليعِ والطين، ذاقا العدنيّاتِ والشعر البذيء والنكات الجنسية والسيجارة الأولى، تشاركا في المشاجراتِ فيما بدا، في تلك السنوات، مثل مسألة حياةٍ أو موت. ذهبا إلى الكلية ذاتِها، وركضا كتفًا بكتفٍ أيام التجنيد. كان رفيقه في العمل النقابيّ ومصارعة طواحين الهواء؛ محاولات ناصعة ومضحكة لتغيير العالم، ولساعاتٍ تناقشا عمّا يعنيه اليمين، وما يعنيه اليسار، وعرف كلاهما مكانه في لعبة الاصطفاف الكونيّ التي غشت العالم. ركض الوحوش الذي ركضاه لتطالب الحركات الطلابية بإسقاط مقترح إنشاء قاعدة أمريكية عسكرية في الكويت، الذودُ عن الهوية كما عرفاها، نيئة وبسيطة، حقهما في التجربة والخطيئة مع بقائهما، في الصَّميم، صالحيْن جدًا. وتناهى إليه صوتُ صاحبِهِ يدندن: «أهلي عنّك أبعدوني» واستنكرت أذناهُ ما سمع، فعامِر يتبنى العدنيات كأيديولوجيا، فكيف وصل إلى أغنية مثل هذه، تناقض كل اشتراطات ذائقته؟

يعرف نواف بأن لصاحبه نصيبه من المغامرات، وقد ابتدأ الاثنان مشوارهما في المغازلة معًا. كان عامر هو الذي علّمه تلك الحيلة؛ أن يكتب رقم هاتفه على قُصاصة، يطويها حتى تتحوّل إلى كرةٍ بحجم إظفر أو أقل، ثمّ يقذفها بسيرٍ مطاطيّ بين قدميّ الفتاة، وإذا ما التقطت الفتاةُ الرّقم، سيركض ليعسكر في بيتِهِ، قربَ الهاتف، منتظرًا أن يرن، الأمر الذي يستغرق أيامًا، لأن المرحلة القادمة تعني أن تتحيّن الفتاة ساعة يكون فيها بيتُها آمنًا، وبيته كذلك، فلا أحد يضمن ألا تجيبَ والدته على الاتصال، وفي تلك الأيام كان من أكبر المحرّمات، والبذخ

حقيقة، أن يحظى المرء بهاتفٍ يخصّه. لكن الفتاةَ في النهاية (لأن على الفتى ألا يفقد الأمل) ستتصل وتسأله: «إنت راعي الكمارو؟» وسيهفو قلبه إلى الصوت الأنثويّ الرَّقيق ويرد: «إي أنا!»، مع أنه في الحقيقة راعي الهوندا. لكن حوادث مثل هذه تحدث، ولسان حالِهِ يردّد «ربَّ صُدفةٍ..». في تلك السنوات كانت الصُّدف حليفة له. ابتسمَ وهو يتذكر تلك الأيام، أيامٌ حلوة، لكنها لا تعني شيئًا خارج سياقها؛ الفضول والبرهنة على الفحولةِ وعصير الأدرينالين في الدم.

لكن نادية قصة أخرى.

لقد صار قادرًا الآن على صياغةِ سؤاله على نحوٍ أوضح؛ لقد عرفَ عامر نادية قبله بسنةٍ على الأقل، وقدّمها له، وشجَّعها على الزواجِ منه، وأصبح شاهدًا على زواج الاثنين. هذه كلها وقائع. فكيفَ يستطيع أن يفهم الشُّكوك التي تجوسُ في صدرهِ الآن؟

يتذكّر نواف المرة الأولى التي لمحَ فيها نادية تسير في ممرات الكُلية مع عامر، خارجين من فصل مقرّر «نثر عربي قديم»، ترتدي تنورة بيضاء تغطي نصف بطّتي ساقيها البديعتين، وبلوزة بصليّة بأزرار لؤلؤية، وتضع نظاراتٍ شمسية بإطارٍ صَدفي، ولم يكن في مقدوره أن يرى عينيها. لكنها في الجُملة أصابتهُ في مقتل؛ الأصابع المطلية بالوردي، الصندل الأبيض، الغمازتين، والعطر الذي تخيّل أنه يشمّه لأنه كان يقف على مبعدة أمتار كثيرة. شيءٌ يشبه نفح الوردِ والمسك الأبيض، وكانت الفكرة التي ساورته يومها أن صاحبه، الوغد، الكلب ابن الكلب، قد سبقه إليها.

كانت المشكلة أنَّ لكليهما الذوق نفسه، عندما يتعلق الأمر بالبنات. فقرَّر أن ينسى الأمرَ، ألا يفاتحه به حتى. وكان يعرفُ طبيعة صاحبه؛ صموتٌ ومصمَت مثل صندوق أسود، على عكسهِ، يدلقُ عليه في كل ليلة أخبار مغامراته، مع مها ونوال ومي وهند (أكثر اسم يحبه عامِر) ونورية وأخريات.

لكنه صادفها مرَّة أخرى وأخرى.. وبدأ في إظهار الأعراض التي يتحدَّثون عنها في الأفلام. وصارت تخطرُ ببالهِ عندما يفتحُ عينيه في الصّباح وقبل أن يُطبقهما في المساء. كان يتخيّل أصابعه تتحسَّسُ ترقوتها، أو أمشاط أصابعها، أو ببساطة؛ تضغط بشرتها برفقٍ فتبيضُّ قليلًا، ثم تحمرُّ، ويرقص قلبُهُ من تعاقبِ الأبيض والأحمر؛ أبيض وأحمر، أبيض وأحمر. كان يُمعِنُ في إسباغ التفاصيل عليها بخياله؛ في شعرها رائحة البخور الهندي. في حياته الافتراضية معها، سوف تضحكُ على نكاتِه ضحكًا بلا صوت. عندما يلعبان الورق في اللَّيالي، سيسمح لها بالفوزِ بفارق نقطة واحدة، حتى تتوهَّم أنها فازت بجدارتها. سوف يتناكفانِ كي يعود ويعتذر، لأجل أن يقبّلها أكثر. سوف يجعلها ترتدي فانيلا المنتخب في البطولات، لتجلبَ لهم حسن الطالع. وسيلقُمها القيمر مع خبز التنور في الصّباحات. عندما تمرض، سوف يستغلُّ الفرصة ليضع يده على جبينها لأجل أن يلمسها فحسب. وعندما تذهب إلى صالون التجميل، وتعود بهيئة لا تعجبه، مثل أن تجعّد شعرها أو تصبغه (وستكون غبية لو فعلت) فسيخبرها بأنه لم يرَ في حياته امرأة أجمل. وعندما تحبل بأبنائه، وتبدأ في التورّم، وتتحول أصابعها إلى شيءٍ يشبه لفائف البصل المحشي، سوف يقسمُ

برأس أمّه منيرة والجنين في بطنها، بأنها أجمل من مانجا ناضجة. سوف يجلبُ لها الهدايا. ليس بالضرورة قلادة من ذهب أو محفظة جلدية، فهذه أمرُها سهل. بل التوافِه النافذة إلى القلب؛ قصاصة من تذكرة طائرة، أسطوانات «عبدالحليم» من شارع الحسين، شريط فيلم «حرب النجوم» مترجمًا إلى العربية، أشرطة مهرّبة من البصرة لقصائد «مظفر».. كانت حياةً برّاقة؛ حياته المتخيلة معها، مثل مشاهد من فيلمٍ رومانسي في ثلثِه الأوّل أو آخر مشهدٍ منه، عندما يكون كل شيء على ما يُرام، وهو يعرفُ بأن الحياةَ لم تسر معه على هذا النحو البرّاق، لكنها كانت حياة طيبة في مجملها، أليس كذلك يا نادية؟

عشر سنوات يا بنت. هل تتخيلين؟

عشر سنوات..

يتذكّر نواف الآن شتاء ١٩٧٩، عندما انفضَّ الشباب عن الديوانية. تركوا صحن المشاوي فارغًا، وأوراق اللَّعب على الأرض. كانت نتيجة اللعب لصالح فريق عامِر؛ دوري «كوت بو ستة»، وقد خرج من المباراة بسبعِ أكلاتٍ نظيفة، وهو يتحدث عن المشهد الأسطوري الذي زلزل العالم قبل يومين، عندما حطّت قدما الخميني على أرض مطار مهراباد في طهران، كإعلانٍ رسميّ ونهائي عن سقوط عرش الطاووس بعد هروب الشاه من إيران. كانت ثمة نشوة في الحديث لن تدوم طويلًا؛ لقد سقط شرطيّ الخليج الذي كانوا يشتمونه في كل مناسبة في الجامعة، ونجحت الثورة التي كان نوّاف وعامر وآخرون يعتقدون بأنها جاءت نتيجة تضحيات رفاقهم

في الفكر والحلم؛ رفاق لم يلتقوا بهم قط، لكن يرتبطون بهم بوجدانٍ عاطفي قاطع، يستمدُّ قطعيتهُ من مثالية سياسية طفولية؛ رفقاء حزب «توده» الشيوعي والجبهة الوطنية الإيرانية، وكان مقدرًا لتلك الثورة أن تذهب سريعًا في اتجاه آخر، وسيكون عامر من ضمن آخرين، بسبب اسمه ومذهبه بعد سنواتٍ قليلة، أحد ضحايا سوء الفهم المتبادل في الإقليم والفوبيات المتقابلة واستدعاء التاريخ كقاضٍ وجلّاد.

كان عامر في مزاجٍ طيّب، وعندما غادر أغلب الرفاق، جلس في زاوية الديوانية، يضمُّ عوده إلى صدره ويدندنُ: «إن هندٌ يرق منها المحيّا». ثم كفَّ عن الغناء وتبسّم.. هند اسم إنَّ، اسم إنَّ منصوب، لكنها مرفوعة في الأغنية وهو لا يتخيّلها إلا مرفوعة، مرفوعة رغم أنفك سيبويه، لأن الحبيبة تُرفع والنّحو ينحني. وناكفه الشباب: «لازم يتفلسف طالب اللغة العربية». وعامر يردّ: «يا عمّي طير شفهّمك إنت ويّاه». ثم دندنَ: «ذات برقٍ كأنّها النجمَ هندٌ». ونواف يمايلُ رأسه ويرمق صاحبه من زاوية عينه.

حتى تلك اللحظة، كان ما يضايقه، أكثر من أي شيءٍ آخر، أن عامر لم يبُح له بشيء، لا يبوحُ له بشيء.

لم يخطر بباله يومًا أن الأغنيات التي يترنّمُ بها عامِر تعنيه شخصيًا. كان واحدًا من مئات الشباب الذين يعزفون العود، وأحد الآلاف الذين يسمعون العدنيات في المخيمات والمزارع والدَّواوين، وله هيئة تقليدية؛ شارب كثيف وذقن حليقة وشماغ على الكتفِ وكل ما

تتطلبه تمظهرات الفحولةِ لأبناء جيله ولقطائه؛ حكاياتٍ غير منطوقة عن الحبيبة والسَّهر والهجر والقُبل الملتهبة وعن صعوبةِ أن يحصل الفتى على فتاةٍ وعن التّيه.

وفي تلك اللحظة قرّر أن يخترقَ صمت صاحبِهِ وأنه يريد أن يعرِف.

«الحُب الحُب يا بو عَمْرة». ربما قال ذلك، أو قال شيئًا آخر، لكنه أراد أن يضع صاحبه تحت ضوءٍ كاشف وأن يحقّق معه. الحب مسوي عمايل. «كيف أنسى كلامها» يا بو عمرة.. عبارات ملغومة تخرج من فمِه.

ثمّ ضحك عامر ضحكته الخرقاء.

ولكنها لم تبدُ خرقاء في وقتها. ربما أراد كلاهما أن يصدّق أنها ضحكة حقيقية، تتجلجلُ بالأصالة. وضع عودهُ جانبًا. هزَّ رأسه كأنَّهُ ينفضُ عنه خاطرًا عجيبًا، ثم أطلق صوتَ «هه» من صدرِهِ. لقد أراد نوّاف أن يصدّق صاحبه؛ في صمته، وضحكه، وكلماته: «أنا وين وهالسوالف وين». قال، وبدت كلماته كالهُراء.

يسأله غامزًا: «علينا هالحركات بوعمرة؟».

لا يذكر نواف ما قاله صاحبه وقتها. لكنه ردَّد الكثير من الكلام المستعار من الأفلام؛ أنا لا أصلح لهذه الأمور، لا أريد أن أحب، أريد أن أبقى حرًا. كان يمرِّرُ أصابعه على أوتار عودِهِ، وبدت مثل مداعبة رجلٍ لحيوانٍ أليف، أو ربما لامرأة.

- والبنات إللي حواليك..

- هذي كلها خرابيط، إنت عارِف..

- إي بس..

«بو عَمرة!» همس صاحبه: «شفتك من كم يوم.. في الكلية، كانت غير. أنا أدري».

بدا على عامِر أنه بوغت قليلًا. طأطأ، تنحنح ونظّف حنجرته، ثم ضيّق عينيه وقطّب حاجبيه كأنه يحاول أن يتذكّر، رغم أنه لم ينسَ.

- نادية مثل إختي.

ولم يفهم نواف كيف لنادية أن تكون مثل أخته. أن نادية ليست هندًا. أو «هندٌ» إذا حيّدنا النحو، وبدأ يشكُّ في ذوق صاحبه، أو في ميوله الجنسية. لكنه لم يكن مهتمًا لمعرفة الحكاية وراء الحكاية. كان سعيدًا فقط لأن الفتاة التي أعجبته ليست حبيبة صديق عمره. أنه ليس مضطرًا لنسيانِها، أو لخيانةِ صاحبه إذا عجز عن نسيانِها.

اسمها نادية.

قلّب الاسم في فمِه يتذوّقه على مهل؛ سكّر مطحون، زعفران، ماء ورد. لا بدَّ وأن هذا هو اسمها! فكّر، إنها نادية، وهي تناديه.

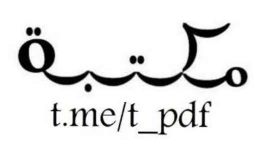
صمت دقائق، عاود عامر احتضان عوده.

استجمع نواف شجاعته: «أقول بوعَمرة». تلكأ هنيهة ثم سأل: «نادية مرتبطة؟» وأدهشته السُّهولة التي نطق بها اسمها، كأنهُ أعلن

عن امتلاكه. ورغم أنه خرجَ من فمه وليدًا، مرتبكًا مثل مُهرٍ يتعثر بخطواته الأولى، إلا أن أمرًا ما في صوته، في رجفةٍ يداريها صوته، جعلت صاحبه ينظر إليه.

كانت ملامح عامر قد تصلّبت، فهو يعرفُ صاحبه، يعرفُ تاريخه من الصَّولات الجنسية والفتوحات الغرامية والعبث، ويعرفُ بأنه لن يسمح لأحد بأن يجعل نادية محطة في طريق مغامراته. أحسَّ بجسده ينتفض.

- قلت لك مثل إختي..



- وأنا ما ألعَب.

- شنو يعني «نويِّف».. زواج؟

لا يعرفُ عامِر أن صاحبه أمضى الأسبوعين الأخيرين في صياغةِ حياةٍ افتراضية في خياله، أنه قرّر حتى أسماء أطفاله الذين لم ينجبهم؛ ولد اسمه «يوسف»، وآخر اسمه «بدر»، وبنت اسمها «مناير»، تيمنًا بأمه منيرة. لا يعرفُ بأن نادية قد انتفخت في عقله وتحولت أصابعها إلى شيءٍ يشبه لفائف البصل المحشيّ، وأنها رغم ذلك ما زالت تعجبه. كان في الثانية والعشرين، وشيك التخرج، تنتظره وظيفة في إحدى شركات العائلة، أمه تلحُّ عليه بالزواج، تعرضُ عليه صور فتياتٍ من العائلة؛ سمراوات، بيضاوات، صهباوات، واحدة منهن فقط كانت بغمازتين، لكن ولا واحدة تشبهها. كان قد سئم اللهو، وإذا كان صاحبه حريصًا على الفتاة إلى هذا الحد، فهذا يعني أنها من الصِّنف الذي يتزوج منه المرء.

- ليش لأ؟

تنحنح عامر..

- وإنت قدّ الزواج «نويِّف»؟

- ياخي ليش لأ؟ مو تارس عينك؟

غمغم عامر، وهو يشيح عنه، ينظر إلى الجدار شاردًا تلاحق يداهُ اللَّحن الذي تبعثر. من يعيدُ إليه مقامَه؟ الرقة والشجن، القرار والجواب. أيُّ قرارٍ وأيُّ جواب؟ يجدر به ألا يفضح دخيلته، كلمة أخرى يقولها ويرى صاحبه حقيقته؛ عاشق وجبان، لا أقل ولا أكثر، وربما عليه أن يكون جديرًا بالعهدِ الذي قطعهُ على نفسه؛ أن ينساها. وفي مكانٍ قصيّ في دخيلته، كان خجلًا من كلمات أمّه «حتى لو وافق أبوك، من قال أهلها راح يوافقون؟». متسائلا ما الذي ينقصه، وأحسَّ بأن عليه أن يداري هذا النَّقص -الذي لم يعرف بوجوده قبلًا- أمام صاحبه. كُن رجلًا يا عامِر. قال لنفسه؛ كُن رجلًا وامنحها ما تستحق. فأنت لا تستطيع أن تعطيها نصف ما سيمنحه لها صاحبك؛ زواج وعرسٌ تترقبه البلادُ كلها، شَبْكة من العيار الثقيل، بيت وأطفال، الحياة بلا تعقيدات مذهبية. ألا يريد الأخ الأفضل لأخته؟

بدأ العرق يتفصّد من جبينه. بصعوبةٍ فتح فمه.

- حسب علمي لأ. مو مرتبطة..

- تعرّفني عليها؟

لقد تصرّف عامِر بشكلٍ مثالي، مثلما هو خليقٌ بصديق العمر.
ولكن نواف لا يفهم؛ كيف لَم يعشق عامر نادية وقد عرفها قبله؟

(٦)

نادية تفرشُ البساط على الأرض، توزّعُ أوعية «المعبوج»، كؤوس اللَّبن بالنِّعناع، حلقات البصل مع الجرجير، تهمهم بأغنية، لكن شفتيها شبه مقفلتين. يرهفُ نواف سمعه، كأنها تغني «بالله يا خلّي، بعد العِشا لا تخلّي». لكن نواف غير متأكدٍ ممّا سمع.

كان يقعي أمام التلفزيون، يديرُ الهوائي يُمنة ويُسرة يحاولُ التقاط تردُّدات القناة الأولى. مناير إلى جانبه. يغضبُ فجأة فيصفع الجهاز وتبدأ الصُّورة في الاتضاح، ثمَّ يتساءل عمّا دهاه.

ليس من طبيعة نوّاف أن يصفع تلفازًا. هذه حقيقة يعرفُها الجميع؛ الزوجة والخدينة والرّب في السماء. كان يسخر ممن يحاولُ إصلاح جهازٍ بإطفائه وإعادة تشغيله، رغم أنَّ الأمر ينجح أحيانًا، لكنه ينمُّ عن جهل، ونوّاف يعرفُ طبيعة العالم الذي يعيشُ فيه، ويعرف بأنه يزحفُ مثل بُرصٍ على سطحِ كوكبٍ في مجرّة، وأن الأقمار الفضائية تحلّقُ على ارتفاعٍ شاهق من سمائه، وأنَّ ثمة قمرًا مخصصًا للعربِ اسمهُ «عربسات»؛ اسمٌ يبدو مستلًا من عالم ألف

ليلة وليلة. وتذكّر نادية التي تريد كتابة رواية، وتساءل إن كان الأمر مؤشرًا على تعاسةٍ لم تبُح بها أبدًا.

بعيدًا عن المدينة، قريبًا من الحدود السعودية، كانت القنوات السُّعودية والإيرانية تملك فرصًا أفضل للظُّهور على الشاشة، ونواف يريدُ مشاهدة برنامج «الكويت في أسبوع»، رغم أنه لن يذكر شيئًا مما يحدث فعلًا؛ لن يحكي قصَّة البلاد التي تخلع جلدها القديم وتستبدله بترسانة إسمنتية تجثم على القلب. لن ينبس بشيء عن العرائض الشعبية، ولا أي شيءٍ مما سيحدث بعد أربعة أشهر؛ حراك غير مسبوق ستتحول فيه الدواوين إلى برلمانات مصغّرة تطالب بعودة الحياة النيابية. عندما يحدث ذلك، سيكون نواف قد عُطِبَ تمامًا، وفقد إلى الأبد اهتمامه بالسياسة، لكنه، حتى هذه اللحظة، ما زال يحاول التقاط تردَّد القناة الأولى.

نظرت نادية إلى نواف، إلى زنديهِ العريضين وحاجبيه المعقودين، لماذا فقد أعصابهُ؟ ليس هذا طبعه. إنه في المجمل يتعامل مع الأجهزة كما لو أنها امتدادٌ لجسده. في أوقات ملله، كان يصنعُ البطاريات بلفِّ سلكٍ نحاسيّ على علبة كوكا كولا، أو يصمِّمُ ساعة شمسية من ورق نشَّاف وقلم رصاص، ولم تفهم قط، كيف استطاع أن يحوّل علاّقة معدنية إلى جهاز إرسال. إنه مستعد لقراءة ستّ صفحات في مجلة عن «دودة موريس» التي تبدو أكثر غرابة من الغيلان والحوريات والجن الأزرق. كان من النوع الذي يبتهج عندما يقول بأن الشاشة مغطاة بحبيباتٍ من الفسفور، وتلمع عيناه

عندما يشرح لابنته أنَّ الضوء ينثني ويعوجّ. اهتزازات وتردّدات تملأ الفضاء. كل شيءٍ هو ضوء. إنه يفقدُ عقله في السياسة ويستعيدهُ في الفيزياء.

تطاير الغبارُ من سطح التلفزيون وعطس نواف. «يرحمك الله» تمتمت وهي تفكر بأنها، لو اختلفت السياقات، ستأخذ منديلا وتمسح له أنفه. لكنها لم تحمل نفسها على الاكتراث. وأدركت بأن كل ما تراهُ في زواجها منه هو الصُّدوع.

«منايِر تعالي ساعديني»، نادت ابنتها ثم توجهت للمطبخ مع أغنية تخصّها: «قاعِد بالطاقة، وعيونه سودا وحرّاقة». ثم أعطت الطفلة ماعون الدَّقوس، وحملت صينية الأرزّ واللحم إلى صدرِ البساط. كان بخار الأرزّ يتضوّع في المكان؛ رائحة رؤوم، حليبية تقريبًا. فوعةُ «الحشو» المنثور فوق الأرز المزعفر تجعل ريقها يسيل. «أساعدك؟». حاولت أن ترفض: «مو ثقيلة»، لكنه حمل عنها الصينية. «روحي نادي الشباب». قال دون أن ينظر في عينيها.

عندما خرجت نادية إلى الحوش سمعت عامِر يغنّي: «مضنى وليس بِهِ حراك، لكن يخفُّ إذا رآك»، وشعرت بتقلّصٍ في معدتها؛ دبيبُ نمل، رفرفات عُثٍّ حول قنديل، شعور حسبت أنها نسيته. وفكّرت بأنها ربما، في مكانٍ ما في أعماقها، ما زالت امرأة.

وقفت لثوانٍ خلف الجدارِ تنصت إلى غنائه، ثم صار بوسعها أن تطل برأسها وهي تطقطق بأصابعها على العامود المعدني الصدئ: «طاح الغدا».

ألقى طلال مِبسم الشيشة من يده: «أي غدا؟! أحد يتغدا الساعة ثمان بالليل؟» منذ تلك البطيخة الحمراء، والشاي السيلاني والبسكويت، لم يأكلوا شيئًا. همَّ طلال بالوقوف، في حين ظل عامر مكانه لحظة: «خاطرك بالشيشة أدري!» قال لنادية. ضحكت. «إي والله». «تعالي تعالي». ينظر إليه طلال: «هذا وقته إنت ويّاها؟». تقتربُ نادية خطوتين وتتناول المبسم، تستلُّ نفسًا وترخي عيناها. بشَّ وجه عامِر. مطرٌ قليلٌ في اليباب.

جلسوا حول المفرش، بركبةٍ مثنية وانحرافٍ طفيف، أكتافهم اليُمنى إلى الدّاخل واليُسرى في الخارج. يأكلون بأطراف أصابعهم كلٌ من ناحيته؛ يصنعون كرات من الأرز، يقذفونها في أفواههم بعد خلطها بخيوط اللحم المنتوف، والدَّقوس والحشو؛ نقيع ثوم الجبل والشطّة. كانت هذه هي طريقتهم في الأكل. الشُّوَك، الملاعق، والأطباق كانت مجرد زوائد؛ فالأكل باليد، ومن صينية واحدة، وعلى الأرض، هو ما ينبغي أن تكون عليه الأمور بالنسبة لعائلة؛ عائلة حقيقية.

كان عامر جالسًا إلى يمين نوّاف، نادية قبالتهما مع مناير، تختلسُ النظر إلى الرَّجُلين المنهمكين في الحديث. سرحت في وجهيّ الرجلين الجالسيْن قبالتها مثل وحشٍ برأسين. كائن كابوسي تحبُّ نصفه ونصفه الآخر.. ألم تكن تحبه أيضًا؟ عرفت لحظتها بأن هذا هو السبب الذي جعلها تتزوج من نواف؛ كان شديد الشبه بالرَّجل الذي تحبّه.

في أول مرة رأت فيها نواف، تساءلت كيف يمكن أن يشبه عامر إلى هذا الحد. وقررت أنه عامِر ذاته، مطروحًا منه الميل الأدبي. عندما تكلّما أضحَكها، شاغبها، فاجأها، قلّد صوتها وأطلق عليها ألقابًا، استغرقه الأمر يومين فقط حتى يبدأ في تصغير اسمها، اختلس منها لمسة دون أن يبدو الأمر مقصودًا، لعب معها لعبة القط والفأر، الفريسة والطريدة، الذئب وليلى. سألت عامر عن رأيِهِ فقال بأنه عرفه طوال عُمره، أنه جاره وصديق طفولته، نصفه الآخر؛ النِّصفُ الأفضل بزعمه، نسخة مطوّرة بتحسينات. لم تفهم نادية ما هي تلك الأجزاء التي كرهها عامر في نفسه ليردّ بهذا الشكل، وقال بأنه لو لم يكن يثق به لما سمح له بالاقترابِ منها. لم ينظر في عينيها أبدًا، بل إلى يديها المتشابكتين على الطاولة، إلى يديها دائمًا؛ شبكة عنكبوت، حبالٌ معقودة، ورطة.

وفي تلك اللحظة فكّرت؛ ربما لم يحبها. ربما كان الأمر من اختراع خيالِها. ربّما سيكون من الذكاء أن تتزوج رجلًا يحبها بدلا من أن تنتظر رجلًا تحبه ولا..

- عمومًا، ما عاد في عذر..

ماءٌ طشَّ على وجهها، أو هكذا شعرت. كأن أحدًا توغل في الأحراش الخبيئة داخلها؛ رأى الجذور النابتة من سفح الخوف. بيت الأشباح المدعوّ قلبها. الروح يباب. لكن الحقيقة أَنَّ أحدًا لم يكن منتبهًا إليها، تقريبًا.

وحدها مناير شعرت بجسد أمها ينتفض.

وحدها مناير؛ زبوطة النقعة.

- خير؟

وجدت نفسها تسأل. يستفيض طلال؛ نواف كلامه صح، الحرب انتهت والحكومة مالها عذر..

- آه..

تنهّدت بارتياح. إنه الموضوع إياه، وهي لا تملك موهبة متابعة الشأن العام ما دامت شؤونها الخاصة تقلقلُ أيامها.

أصواتهم تأتيها من بعيد؛ العريضة الأخيرة لن تمرّ بصمت، لا يحدثُ كل يوم أن يوقّع أكثر من عشرين ألف مواطن على طلبِ عودة البرلمان. قال نواف، بعد أن مَصمصَ مُخَّ العظم وتركه نظيفًا على حافة المفرش. «مو كافي». قالت هدى. طالما أن الصُّحف مضطرة إلى شطبِ كلمات مثل «ديموقراطية» و«مجلس أمة»، وحتى تعبير «عضو مجلس أمة سابق» من كلّ مادة منشورة، سيتلقى السَّواد الأعظم هذا الواقع السّياسي الجديد بلا ذاكرة، وسيخيل إليهم جميعًا بأننا لم نحظ بالدّيموقراطية قط.

يرفع عامِر عينيه إلى هدى فجأة ويسأل: وهل حظينا بها قط؟

نواف يلكزه في زنده:

- إكِل تبن..

ملأ عامر فمهُ بكرةٍ من الأرز. بلعَها بصعوبة، سعُلَ، طقطقَ صدره..

ضحكوا جميعًا. نظرت إليه نادية بطرف عينِها:

- ألحين طبخي أنا تبن؟

يشرقُ عامِر. يهزُّ طلال رأسه ضاحكًا:

- عاد تعال فكّ عمرك من زعَل نادية..

تحمرُّ عينا عامِر من فرط السُّعال، يخرج صوتهُ مبحوحًا:

- ألحين أراضيها..

يصنع لنفسهِ كرة كبيرة من الأرز، يزدردها بسرعة. تتعالى الضحكات. نادية تبتسمُ على نحوٍ غامض، تقرّب ماعون الدقوس وتسكبُ منه على جانبه من الصينية.

- ها رضيتي؟

- بعد شوي..

يخلطُ الدقوس بالأرزِّ ويكوّر لقمة ثانية بأصابعه، تتسع ابتسامة نادية.

نوافُ ينظر إلى زوجته، عاقدًا حاجبيه، وقد نسي فمه نصف مفتوح، وبدا لها، لأول مرة، أبلهًا جدًا.

(٧)

يمكننا القولُ الآن بأن مناير قد اختفت.

لم ينتبه أحدٌ بأنها نامت بالمايوه على أريكة غرفةِ الجلوس بعد الأكل مباشرةً. وجهها ملتصق بدفترها، لطخة بنفسجيةٌ على خدّها، لأنها كانت في منتصف الطّريق لرسم قوقعة.

كان الليلُ دمثًا، يُضمر العالم في سواده مثل سِر، والنُّجوم من فرط قربها تكادُ الأيدي تحلم بلمسها، الأمر الذي جعل نادية ترتعش تحت الأغطية.

كانت تتظاهر بالنّوم، آملة أن يغطّ نواف في سباتهِ حتى تلحقَ بصاحبه الذي أخذت منه، لأول مرة، وعدًا باللقاء، لكي تقالَ كل الأشياء التي لم تُقَل، ويعود إلى العالم نظامه المنطقيّ. أيُّ شيء سيكون أفضل من هذه الميوعة الغرويّة البائسة. تريد نادية العبور إلى مكانٍ تكتنزُ فيه الكلمات وتتورَّم من فرط امتلائها بالمعنى، حيث الخطيئة خطيئة والحبُّ حب. هل هذا هو ما تريدينه حقًا؟ أن تُستعاد الكلماتُ المهدرة، كلماتٌ تشبه الماء المراق في المزاريب؟ أم

أنك تريدين شيئًا آخر؟ جذوة الرغبة تضطرمُ تحت جلدك وتريدين أن تشعري، لمرة، بأنك امرأة؟

ماذا يعني الأمر على أيّ حال، أن تكوني امرأة؟

ربما لو قبّلها رجل تحبه، ستشعر وقتها بأنها امرأة. قبلة تكفي، لا داعي لأن يذهب الأمر أبعد. انتقامٌ مضحك ومكسور. ممّن؟ من الرّجلينِ معًا. وتساءلت؛ لو أنها عرفت بأن عامِر أحبَّها دون أن يقدر على الزواج منها، هل كانت لتقترنَ بصاحبه؟ غير ممكن، ولهذا تمتلئ في داخلها بالغبن. لقد زجَّ بها الرجل الذي تحبه في حياةٍ لن يقدر على منحها لها، وسمّى الأمر بطولة. لو أنه فقط يرى كم تحتقره، تحتقره بقدر ما تريدهُ. لكنه سيمنحها الليلة بعض الكلمات الصَّحيحة؛ سوف يتفقان على الأمرين؛ الحب والخطيئة معًا.

ربما سيقبّلها، ربما سيذهبان أبعد. ربما ستنظر إليه بطرفِ عينها ثم تضحك من نفسها وتعود إلى نواف. ستعرفُ ذلك عندما تراه. وقررت أنَّ هذا الجزء من الحكاية يخصُّها هي. ومع ذلك، كانت ترتجُّ من الخوف، تغمضُ منصتة إلى صرير الجداجِد وعواء الكلاب السائبة. ضُباحٌ كئيب بأصداء، كأنه يخرج من أعماقها.

كانت مغمضة، ولكنها قادرة تقريبًا على رؤية الغرفةِ، زوجها نصفُ العاري يرمقها بطرف عينه. عندما يخلع نواف فانيلته، فهذا يعني أنه يشتهيها. وهي تعوّل على حسن ذوقه كيلا يوقظها من نومها المصطنع. لكنها تشعرُ به في جميع جسدها، يرقبها مثل حشرة بآلافِ الأعين. هي التي لم تمنحه نفسها إلا مرة واحدة خلال شهر.

لم تقدر. أحسّت به يبتعد. دخل الحمّام، وسمعت صوتَ بخّات العطر المرشوش على صدره. ثم أزيز الباب يفتحُ ثانية، وشمّت ضوعَ الكولونيا؛ نافذة مثل رغبته.

وفي تلك اللحظة قررت؛ ستذهب الليلة إلى عامِر، وغدًا سوف تستغفر، أو تطلب الطلاق، أو تبحث عن طريقةٍ لتُحبَّ نواف، حتى لو لم تمتلئ عروقها بالدَّم الفوّار. إنها مدينة له بالمحاولة، ويمكن أن تحبَّه على نحوٍ مختلف، يشبه مصافحة بين صديقين؛ صباح الخير. لا تنسَ إطفاء الأنوار. هل أخذت فيتاميناتك اليوم؟ توجد بثرة على كتفك. اشترِ لي ليفة من الحوّاج. أمي أهدتني قيمر من البصرة. اشتقت للقاهرة. كم مرة أخبرتك بأنني لا أطيق الدَّغدغة؟ ما هي مشكلتك مع يوسف السباعي؟ ليس لدينا رفوف تكفي لكل هذه البراويز. أفكر بتكبير صورة مناير هذه. هل ازداد وزني؟ اليوم سألبس الفستان الأسود الذي تحبّه. ولكن أين المفتاح؟ إنك دائمًا تنسى المفتاح. لقد ضعف بصري. غدًا نراجع الطبيب. اشتقت إلى لندن. كل سنة لندن يا نادية؟ ستجد الكثير من مقاهي الشيشة هناك. عندي شيشة في بيتي. تأخر الوقت. ليلة سعيدة. ليلة سعيدة.

عزاءات صغيرة ستجمعها بدأبِ نملة؛ عزاءً عزاءً. لِمَ لا؟ فهي تحتاج أن تضع بعض الأشياء وراء ظهرها لكي يصبح العاديُّ ممكنًا، بل ومُستحبًا. هذه ليست خيانة؛ فكّرت نادية. أن يستعيد المرء حقه في الحقيقة، أن تُصَفَّ الوقائع على الطاولة لترى بأنها محصّلة تلك الخيانات الصغيرة التي تلتفُّ حولها مثل شرنقة، أن اليرقة لن تتحوّل إلى فراشة، أنها جثة خديج..

(٨)

لا يمكن أن تكون قد نامت. نادية لا تنامُ بسرعة؛ إنها مليئة بالهواجس، أفكارها مُعوجّة ومنبعجة ومرضوضة. إنها آخر من ينام، وأولُ من يستيقظ.

هل تتجنّبه يا ترى؟ إنها تتحجّجُ بصنوفِ الأعذار لتجنّب المعاشرة. في الشهر الماضي وحده، مكّنتهُ من نفسها مرة واحدة فقط، وكان واضحًا أنها فعلت ذلك لإرضائه، ولو أنه زار خليلة قديمة في شقة ما، لا يحسبها تمانع. كانت تتصرّف مثل جثة. بدت مجوَّفة وعالقة في مكانٍ ما داخل رأسها. لا يحتاجُ الأمر إلى تأملٍ عميق لكي يعرف بأنها بائسة. وكلما نظر إلى التقوّس الحزين في شفتها السُفلي أحسَّ بأنه رجلٌ ناقص. كأنه كان يعتزم، عندما تزوّج بها، أن يزيل هذا الحزن الحسّي عن شفتيها. لكنه الآن يريد أن ينسى أفكاره، رغم أنه وجد نفسه يغلي غيرةً، عندما سكبت الدّقوس على جانبِ عامر من الصّينية، إلا أنه يريد أن يصدّق بأنهما مثل أخٍ وأخته؛ معرفتهما قديمة. أمور كهذه تحدث. ولكن في نهاية الأمر؛ هي حبيبته، وهو

صديق عمره. سوف يبقى على سطح العناوين العريضة، ولن يقرأ ما بين السُّطور.

«ندّوي».. همس.

ناداها باسمها المصغّر. عشر سنواتٍ وما زالت، في نظره تلك الصبيّة التي شغف بها في ممرات الجامعة. التي تركَ من أجلها قبيلة نساءٍ، وتزوّج. حتى خياناته الصغيرة بعد الزواج، لم تكن شيئًا يُذكر.

لم يكن يجد في مغامراتِه المختلسة خيانة لها، كانت كالكذباتِ البيض، مدفوعة بنوايا ناصعة؛ سيكون زوجًا أفضل لو أنّه واظبَ على مسرّاتِه، وزياراتِه الليلية للجواخير والمزارع وشاليهات الأصدقاء. فمن شيمِ الواقع أن يجفّفَ الإنسان، وما من زوجة عاقلة تريدُ رجلًا نكِدًا، ولكن المشكلة أنّهن، في الأغلبِ طبعًا، بلا عقل. تظنُّ الواحدة أنها كل ما يحتاجه الرَّجل كي يُعتقَ من التخيّل العاهر، من اشتهاءِ الممكن، من الرغبة الحرام. وفكّر لحظتها بأنَّ الأمر أفضل على هذا النحو، فهو لا يتخيّل نادية مثلًا، تصالبُ ساقًا على أخرى، وتتحدّث ببرودِ العارِف عن ضرورة الفصل بين الحبِّ والجنس، بين الجنس والزواج، بين الحبّ والزواج. إنَّ هذه الأقانيم الثلاثة، وإن كانت منفصلة بالنسبة له، ينبغي أن تبقى، في رأسِ المرأة، عجينًا. فهذا شرط أنوثتها أولًا، وثانيًا، من يدري ما ستكون قادرة عليهِ لو أنها، لا قدَّر الله، لم ترَ ضيرًا في فصلِ الذرةِ عن الشَّعير؟ الجنس عن الحبّ؟ الحب عن الزواج؟

أزعجته خواطرهُ، كأنَّ الأمر ممكن، أن تتبنى زوجته أفكاره هو، أن تتحوّل إلى رجل. أو أسوأ؛ أن تتحوَّل إلى سناء، خدينته القديمة وصديقته إن جاز الوصف، يعرفها قبل نادية بسنوات، لكنها ليست من النوع الذي يتزوّج منه المرء.

وفي تلك اللحظة أرادَ أن يبتسم، وهو يتذكّر كيف قُدِّرَ لسناء، في نهاية المطاف، أن تكون من نصيبه. لأنَّ عامِر عندما التقاها في شارع الجهراء، وألقى بين قدميها قصاصة تضمُّ رقم هاتف الديوانية، شاءت الصُّدف أن يجيب نوّاف على اتّصالها الأول. *ألو، عامِر؟ هلا والله. إي عامِر. أنا سناء. أخيرًا اتصلتي؟* ادّعى يومها أنه صاحبه، واستغرق مع الفتاة في المزاحِ والغزل لساعاتٍ قبل أن يعترفَ بأنه ليس صاحبه، لكن «أنا أحسن لك منه» كما زعمَ، وقال بأنَّ أمامها خيارين، أن تلتقيه -على أمل أن تصرعها وسامته- وتحبّه، أو ألا تعاود الاتصال أبدًا، وهو بالمناسبة لن يخبر صاحبه بشأنِها، وسيكون الأمر أشبه بإهدار نعمةٍ من السماء، فحتى عامِر في قرارته، يفضّل أن تذهب الفتاة إلى صاحبه على أن يفلسا منها معًا. كانا متفقين على بضعة أمورٍ جوهرية؛ أنَّ ميدان المغازلة هو سباق، أنَّ البقاء للأفضل، ومن له حيلة فليحتَل، وأمورٌ أخرى ساهمت، بزعمه، في تعزيز براغماتيّة لم تنفعهما قط عندما يتعلق الأمر بالسياسة، ولكن لماذا يفكّر في السياسة الآن؟ ناقِص نكد «بو النّوف»؟ وعاد بخياله إلى سناء.

أو إلى نادية.

تلك القوانين الجوهرية المتفق عليها ضمنيًا، لم تنطبقُ على نادية.

انسلَّ تحت الغطاء وجذبها إليه. تنشّق في جلدها دهن الورد وفي شعرها عُرفَ الزعفران. كانت توليه ظهرها، ممدّدة على جنبها الأيسر، وتساءل إن كان من عادتها أن تنام على هذا الجنب.

لا.

نادية تنامُ على جنبها الأيسر. كان يعرف.

كانت مشكلته، حقيقة مشكلته، أنه أفضل منها في تلك الألاعيب، وأكثر شيءٍ يُفقده صوابه هو أن يتم استغفاله. نمتي؟ سأل، رغم أنه يعرفُ بأنها مستيقظة. همهمتْ وتململت عندما طوّق خصرها. مسح على زندها، وقبّل الشامة الناضحة بحبّات الخال. همس في أذنها؛ «ندّوي.. أبيـچ». فغمغمت بأنها مصابة بالصُّداع بسبب الساعات التي قضتها تحت الشمس، والساعات التي قضتها بين القدورِ. عاود المحاولة؛ «ندّوي!»، لكنها انفعلت: «عفية نواف ماقدر.. تعبانة»..

(٩)

عندما خرجت نادية من الشّاليه، كان اللّيلُ فاحِمًا، والنجومُ تنتشر على صفحة السَّماء؛ بعضها وشيك السُّقوط. أحسَّت بقلبها يهوي، ووجدت نفسها تشهق وتعيدُ عينيها إلى الأرض. إذ يمكن لمن يطيل النَّظر إلى السَّماء أن يضيع إلى الأبد. أضاءت المصباح اليدويّ وسارت على الشاطئ، تتلفت وراءها وترتعد، قدماها تغوصان في الرمل.

بدا الطريق طويلًا، لكن يمكنها رؤية الضوء المنبعث من الشاليه الذي استأجره عامر غير بعيد عن شاليه نواف. كانت بقية الشاليهات مغمضة تقريبًا. ورأته هناك؛ جالسًا في الحوش يعزفُ على عوده. «زارت وكلّ نجوم اللّيلِ ترعاها»، كان يغنّي، موغلًا في الأماني، يجرجرُ في صوته عشر سنواتٍ من الانتظار، والكذب، والشوق؛ «وأقبلت وهي في شوقٍ تعانقني»، غنّى، وعرفت بأنَّ كليهما أراد الأمر ذاته.

اقتربت بهدوء، جلست على المقعد بجانبه وراحت تنظر إلى

البحر. تتساءل كيف ستقول الأشياء التي تريد قولها. هل ثمة طريقة لقول ما لا يُقال؟ والأهم؛ هل ثمة جدوى؟ وتساءلت من أين تواتيها الجرأة لكي تختلي به في الليل، على مبعدة مئة متر من زوجها النائم. ثم تذكّرت لقاءهما الذي حدثَ قبل شهر، في مقرٍّ عمله في الجريدة، عندما وعد بأن يساعدها على نشر قصةٍ كتبتها.

إنهما يختلفانِ هنا تمامًا؛ عامر ونواف.

لقد أحبَّ عامِر ما تكتبه نادية، أحبَّ ذلك مذ عرفها في الكلية، والحقيقة أنه عرفها بسبب قصة نشرتها في جريدة الجامعة، وناقشها في فنّياتِها وتفذلك على رأسها؛ الاستعارات يجب أن تنبتَ من بيئة النّص. لغتكِ بحاجة إلى تكثيف. هذا التشبيه استعراضي، تخلّصي منه، ما هي مشكلتك مع العناوين؟ العبي لعبة الرابط العجيب؛ القوس نصف دائرة. الدائرة قدر. القدرُ لعنة. اللعنة ضدُّ البركة. البركةَ نماء. النّماء أخضر. الأخضرُ عشب. هكذا تلعبين باللغة. ثمّ اقترح عليها كتبًا. اقرئي غسان كنفاني، اقرئي يوسف إدريس. لا يمكن أن تكتبي القصة القصيرة دون أن تعرجي على تشيخوف. ماذا؟ لا تعرفين موباسان؟ ما الذي تنتظرينه؟

نواف لم يكترث إلى هذا الحد، حاول أن يمتدحها غالبًا، وأخبرها بأنها «موهوبة»؛ لكنه كان ذلك المديح الأجوف، الفوقيّ، أشعرها مثل طفلةٍ تحصل على طبطبةٍ أبوية. عامر على العكس، كان يجلدها بقسوة، لقد أخذها على محملِ الجد.

في ذلك اليوم اتصلت به وأخبرته بأنَّ لديها قصة للنشر. استقبلها

في الجريدة. عرّفها على المحرّر الثقافي، أوصى بأن يُنشر النصّ بسرعة، وبإخراجٍ أنيق، حتى إنّه اقترح اللوحة المرافقة؛ عمل غير مألوف لإسماعيل شمّوط. ثم دعاها لشربِ فنجانٍ من القهوة في مكتبه، ورنَّ هاتفه، انشغل مع مديره، فيمَا امتدت يدها تتفحص البراويز المرصوصة على سطح المكتب، والتقطت صورته مع نواف في أيام التجنيد؛ يرتديان البريهة والبسطار، يقبضان على البندقية البلجيكية ذاتية التعشيق ويبدوان في غاية الوسامة. ربما كانت من ذلك النوع من النساء الذي تجتذبه البزات العسكرية؛ الرجولة في فجاجتِها وغبارِها. طالما أنَّ حربًا لن تقع، لا ضير أن يرتدي الرجال بزات عسكرية، وأن تتمكن من النظر إليهم.

افترّ ثغرها عن ابتسامة وهي ترفع البرواز أمامه، أومأ برأسه ولا يزال في منتصف المكالمة، في الوقت نفسه كان يصوّب سبابته إلى رأسه، مثل مسدّس.

في ذلك اليوم فكرت نادية بأنها قد فقدت صديقًا عندما ربحت زوجًا، رغم أنه صديق زوجها الحميم. وتساءلت متى كانت آخر مرة رأته فيها، كما في أيام الكلية؟ ولماذا لا يمكنها أن تحظى بصداقته، بعيدًا عن نواف؟ تتذكر نادية بوضوح أنَّ الحديث بينهما امتدّ لثلاث ساعات، حتى أصبحت الكلمات أكثر طراوة ومطاوعة، وشعرت بأن في وسعها أن تسأله أي شيء، وأنَّ السؤال الذي طاردها مذ كانت طالبة وحتى هذه اللحظة قد غادرَ فمها أخيرًا.

«طيب، طيب.. سؤال».

هكذا بدأ كل شيء.

اكتشفت في ذلك اليوم أنها الشخص الخطأ في حياة الشخص الخطأ، وأن جمع خطأ وخطأ لا يأتي بنتيجة صحيحة. لكن لنعد إلى تلك اللحظة، عندما مررت أصبعها على سطحِ البرواز برفقٍ وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة خجلى. «عندي فضول». قالت؛ قبل سنوات، في الكلية.. كنت أعتقد أنك تحبّني، حتى رحت تدفعني، تقريبًا، باتجاه نواف. وبدأت أفكر بأن الأمر كله كان اختراعًا من خيالي..

ابتسم عامر، إن جاز تسمية ذلك التعبير ابتسامة. لكنه كان مزيجًا من الألم والتعفُّف عنه. ثمَّ زمَّ فمه واعتصر جفنيه بإبهامه وسبابته، هرع إلى المكتب المجاور ليستعير سيجارة، رغم أنه كفَّ عن التدخين منذ سنتين، وعرفت أنه يحاول ترتيب أفكاره. بدا لها وكأنه كان في انتظار سؤالها منذ عشر سنوات، ولم يخطر لها، للحظة، أنه سيجيبها على هذا النَّحو الشفاف الكفيل بخلخلة تماسك الأشياء، كانت تنتظرُ أن ترى حاجبيه يحلقان فوق عينيه، أن يخبرها بأن لا فكرة لديهِ بأنها أحبته. وأنه يتصرف أحيانًا على نحوٍ أخرق، يسهل إساءة فهمه.

باختصار؛ كانت نادية تنتظرُ منه أن يستمرَّ في الكذب.

لكنه لم.

تريدين الحقيقة؟ قال.

لقد أحببتكِ، وطلبتُ من أهلي خطبتكِ، ولكنهم رفضوا. تنحنح قليلًا؛ أنتِ تعرفين، اختلاف المذهب، خاصة في تلك الفترة..

ولم تسمع نادية ما قاله بعدها، كان شيئًا يشبه الصَّلصلة الجوفاء. نقطًا سوداء وبيضاء على شاشة معطّلة. ضوءًا يتكسّر في منشور. صار فمه يتحرك دون أن تفقه شيئًا، هبط عليها إعياءٌ مفاجئ، وكان كل ما تريده، في تلك اللحظة، هو أن تغادِر.

تنهّدت نادية، كأنها تعبُّ الليل. تعي بأنها لم تنبس بكلمة، إلا أنها وجدت نفسها مرتاحة في الصَّمت. هل يعقل أنها جاءت إليه لكي تصمت، لكي تسمعه يغنّي: «لا صبرَ لي عنكِ والأشواقُ تحرقني، يا كُلَّ حُبّي ويا من نفسي تهواها؟».

ولكن، ماذا عساها تفعل بكلماتٍ مثل هذه؟

(١٠)

أحسَّ عامر بوجيبٍ قلبه يتصاعد وهو يراها جالسة على بعدِ سنتمترات منه، تكادُ حرارة جسدها تذيبه. رآها تغمضُ، كان ضوء الهلال الشحيح، ومصباح الكيروسين المثبت في السَّقف، يجعلان شعرها الأسود القصير يبدو مائلًا للزرقة، وبدت مثل إلهة، أو حورية بحر، في غاية الكمالِ والغضب.

أحسَّ بأصابعه تشتعل، كلُّ بيتٍ يجرُّه إلى ما بعده، كل شطرٍ يشدُّه من أذنيه ليقول كل الأشياء. «أميرة الحسن إنّي مغرمٌ دنفٌ». هذا كل ما في الأمر. للحقيقة، إذا جاءت، غريزة الطوفان. «هلّا رحمتِ محبًا فيكِ قد تاهَ؟». أصابعه تلتهبُ بالنَّغم؛ الله يا (عاشق النَّغم)، الله يا محمد جمعة خان، يا كرامة مرسال، يا حمد سنان، يا أخويّة سريّة من رجالٍ تغنّي العدنيات في كواليس العالم وتعيد الاعتبار للشِّعر وتمجّد عشقَ النِّساء. الفلوت الهندي والمزاج الحضرميّ والصَّوت الكويتي. خليط يشبه عاطفته؛ شرقية خالصة، تمتدُّ من أقصى شمال الخليج إلى ساحل بومباي، مقطّرة ومركّزة

مثل الورد الطائفي، قبل أن تُمسخ تلك الكلمة وتبدأ في تطويق عنقه.

«هلا رحمتِ محُبًا فيكِ قد تاهَ؟».

هذا هو السُّؤال.

ورغم أن خططه كانت تقتضي أن يُطأطئ ويتلقى توبيخها وسُبابها، ثم يعيدها إلى رشدها، وإلى صاحبه، زوجة صالحة لم تُمس، إلا أنّه فوجئ بتصدّعاته الداخلية.

بل أكثر؛ فوجئ برغبته.

وضع عامِر عوده جانبًا. فقد ضعضعته الأغنية.

عندما اختلسَ نظرة إلى نادية، أحسَّ باضطرابِ أنفاسِها. ووجد يدهُ تتحرّك على وجل، لتمسح ظاهر يدها. أصابعه تتحسّس أصابعها برفقٍ، تذكّر عوده وشعر بالدماء تفورُ في عروقه. لو تأتى له أن يلمسَ جلدها كل يوم، تراهُ سيرغب بها هكذا؟ كان ينتظر أن تبعد يدها، أن تدفعه، لكنها لم. وتساءل كيف كانت ستبدو حياته لو أنه أصرَّ على زواجه منها؟

كان العالم سيكون كما هو، لكن بالمقلوب؛ سينجب طفلة يسميها مناير، وسيكون نواف قد بقي أعزبًا، يزور صاحبه وزوجته في الشاليه ويلعب مع الطفلة لعبة القرش الأبيض، يعلمها أسماء القواقع ويحفظها شعرًا يحبه ويخرج معها للقُمبار. أذهلته الفكرة؛ أن صديق عُمره، الكلب ابن الكلب، قد حصل على حياتِهِ هو،

بمساعدةٍ منه، وأحسَّ بأنه يريد أن يستعيد ما له، وكانت يده قد قبضت على يدِها، في انتظار أن تدفعه عنها. أنا نادية زوجة نواف، أنا نادية زوجة نواف يا كلب. اللعنة على كل هذا الكذب، اللعنة على الأقنعة والمعادلات الخطية التي تسيّر عالم المصاهرات وتبتُّ في نجاح الزيجات وفي التعاسة أيضًا. اللعنة لأن صدعًا لا يعنيه في تاريخ لا يخصّه قادر على حرمانه من حب عمره. اللعنة على الزواج بصفته تحالفًا سياسيًا ولا شيء آخر يهم. اللعنة على العلاقات المؤسسية التي تولدُ عجوزًا مجعّدة لكنها مع ذلك لا تموتُ أبدًا. اللعنة على نواف، وعلى نادية، وعليهِ قبل الجميع. ادفعيني عنكِ يا بنت، ارفضيني يا حيوانة، خذي انتقامك البارد بعيدًا وعودي من حيث أتيتِ، عودي إلى فراش زوجك يا أكبر عاهرةٍ في الدنيا. لكنها عوضًا عن ذلك قبضت على يدهِ وترقرقت الدموع في عينيها. يدها اليسرى تُسند ذقنها وعيناها الحمراوان ترشفانِ الليل. وشعر بأن جسديهما، رغم السنتمترات القليلة الفاصلة بينهما، كانا قد اتحدا أصلًا، وتلك الكيمياء المجنونة التي تركض في عروقها، كان يحسُّها في عروقه.

- أنا آسِف.

همس.

ها قد قالها أخيرًا.

وبدت له لحظتها مثل شخصية روائية عالقة في حكاية لا تخصّها، تحاول الهرب من الكتاب الذي أطبق دفتيه عليها. وعندما

صار قادرًا على رؤية الأمر من عينيها، عرفَ بأنها لن تسامحه أبدًا. نادية، نادية. أنا آسِف. ثمَّ لم يعد جسده يخصُّه، بل صار هو الذي يخصُّ جسده، خاضعًا لسلطة يديهِ التي قبضت على وجهها، وتخللت شعرها، ثم رفعت ذقنها برفقٍ ليراها؛ إلهة جريحة، حورية زرقاء مروّعة، يخافُ طوفانها ويأمل أن يجعل منها طوافته. نادية، أنا حمار، أنا أثول، أنا نعال، أنا أحبّك، نادية طالعيني.. نادية! وأحسَّ بأنفاسها تتواتَر، ثم شعر بيديها تستعيدان بعض القوة، وراحت تجذبه إليها وتهمس؛ لا، لا، مع أنها كانت تقولُ نعم، نعم، وتذكَّر صاحبه؛ فانتفض مثل غريقٍ يشهقُ خارج الماء، ورأى في قلب السوادِ البهيمِ ظلًا أسود، ظل رجلٍ أسود، رجل يشبهه.

كأن ليلًا يولدُ من ليل..

(١١)

استيقظت مناير، في منتصفِ الليل، على ما بدا مثل عواء كلابٍ، أو ذئابٍ، أو عفاريت تطلعُ من القماقم.

سُرعان ما تبيّنت أن الشّاليه كان فارغًا. بحثت أولًا في غرفةِ والديها، فوجدت السَّرير خاليًا، والشَّرشف مبعثرًا، واللَّمبات مُضاءة؛ عُثث تدوِّمُ حولها.

لم تجد نعلي أمها ولا أبيها، وراحت تجوبُ الغرف تنادي: ماما؟ بابا؟ بلا رد. ثم توقَّفت أمام المدخل، فتحت الباب الذي صرَّت مفاصله، وخرجت إلى الحوشِ تحدق في الظلام دون أن ترى.

التقطت مصباحًا يدويًا، أضاءته وسارت على الرَّمل تنادي: ماما؟ كانت تهمس، دون أن تفهم سببًا لذلك، كأنَّ صوتها سيثير انتباه العفاريت التي تجوسُ أحراش الليل، والتي تصرخُ على مبعدةِ أمتارٍ قليلة؛ صرخات حيوانية تشبه الجؤار. بدأ قلبها يتقلقلُ وهي تقتربُ من مصدر العواء، ورأت ظلالًا في الليل.

ظلالا تعرفُها.

صوّبت مصباحها إلى ما ظنته ماردًا يخرج من البَحر، لكنه كان أباها، ينتصبُ واقفًا وفي وجهه شيطانٌ جريح.

كان عمها طلال، وخالتها هدى، يقبضانِ على ساعديهِ ويردّدان: «تعوّذ من الشيطان نوّاف، قول لا إله إلا الله..».

على مبعدةِ أمتارٍ كان عمّو عامِر، راقدًا على ظهره، برأسٍ مفضوخ ولطخة دمٍ على صدغه وجبينه. سمعت والدها يزمجر: «وينه؟ وين راح؟! وينه الخنـ.. وينه؟».

رأت طلال يقبض على ذراعي أبيها، يطرحه ويثبت ساعديه إلى الأرض يردِّد: «قول لا إله إلا الله».

رأت هدى تهرع إلى عامِر، تشدُّه من ذراعيهِ وتصيح فيه: «روح! روح لا يذبحك!»، ثم لطمته على وجهه وأجهشت به: «روح الله لا يوفقك!».

رأت عامر ينهض ليركضَ كالبهلول، يلتفتُ إلى البحر، هدى ترفسه: «روح! روح يا ابن الكلب! روح راحت روحك!»

ثمَّ سمعت صوت خطواتٍ تقترب، التفتت؛ كان فواز يدعك عينيه ويسألها عما حدث.

لكنها لا تعرفُ ما حدث.

كانت عيناها قد تسمّرتا على الظل الأخير، الظل الذي بقي في الماء.

ألم تكن أمها تخافُ البحر؟

ما بالها قررت السِّباحة الآن، على هذا النحو الغريب، طافية على بطنها؟

الفصل الثاني

الطَّوافة والطُّوفان

(١)

في تلك الليلة رأت مناير كابوسًا آخر، لكنها عندما استيقظت وجدت أنَّ الكابوسَ ما زال موجودًا، مع اختلافاتٍ طفيفةٍ في الزخرفة. ظلت مُمدّدة على ظهرها دونما رغبةٍ في النهوض. فالمكان موحش، وهي لا تعرفُ متى ستعود إلى بيتِها، خاصّة وأنَّ بيتها في آخر الممر.. لكنَّ الباب مقفل، والمفتاحُ في صندوق، والصُّندوق في دولابِ الجدة، ومفتاح الدُّولاب ضاع. لم تفهم مناير لماذا امتلأ العالم فجأة بالقصصِ والمفاتيحِ والأقفالِ والصَّناديقِ التي تخبّئ مفاتيحَ وأقفالًا وقصصًا، في دواليب تخبئ صناديقَ تخبئ مفاتيحَ وأقفالًا وقصصًا؟

تنامُ منذُ سنةٍ على فرشةٍ أرضية، تراقبُ جدتها كل ليلةٍ تخلعُ طقمَ أسنانها وتمشّط شعرها الفضّي، تتمتمُ بآية الكرسي والسُّوَر المعوذات وتلقِّن حفيدتها «سيّد الاستغفار» وأذكارَ الصَّباح والمساء. تمتلئ الغرفة برائحة المراهم النَّفاذة ونقيعِ الزعتر، وتزدحمُ الأدراج بمشابكِ الشعر المعدنية، وأقراص من كل الألوان.

حلمت مناير في تلك الليلة، كما في ليالي أخرى كثيرة، بأنها تعبر من ليلٍ إلى ليل. «ماما؟»، تطبقُ يدان على عينيها فتشهق. ترفسُ مناير. ثم تستيقظ بفعل ركلاتها، وكما في الليلة التي قبلها والتي قبلها أيضًا، وجدت بقعة بولٍ تلطّخ الفرشة وبنطلون البيجاما. ستوبّخها جدّتها ثانيةً. ستقولُ بأنها كبرت (عمرها ثمان سنوات!) من العيبِ أن تتبوّل على نفسِها كالرُّضع. تنهضُ مناير وتذهب إلى الحمّام. تخلع بنطلون البيجاما وتلقي به في الحوض ثم تريقُ عليه الماء قبل أن تلقيه في سلّةِ الغسيل. تدلقُ الماء على نصفِها السُّفلي، ثم ترتدي سروالًا داخليًا وبنطلونًا نظيفًا. تسحبُ الفرشة إلى الممر. بعد قليل ستأتي «دايا» وتحمل الفرشة إلى السَّطح لتفركها بالماء والصابون وتجفّفها تحت الشمس.

نزلت إلى الطابق السّفلي، تُزحلق يدها على الدرابزين، وتمشي (فقط!) داخل مربعات البلاط، دون أن تمسَّ الخطَّ الفاصل بين بلاطةٍ وأخرى. ما زال عقلها قادرًا على اختراع الألعاب. توجَّهت إلى المطبخ وطلبت من «دايا» بيضة عيونٍ مقلوبة وخبزًا مقليًا بالجبن الذائب. وذهبت تبحث عن جدتها. وفيما هي تقتربُ من غرفة الجلوس، سمعت طنينًا اتضح، لاحقًا، أنه تلاوة للقرآن. كانت العجوز ترتدي ثوبَ صلاتها الأبيض المضمّخ بماء الورد، بأكمامِهِ الواسعة التي يمكن لمناير أن تعبر منها غُدوًا ورواحًا، من الكُمّ اليمين إلى الكمّ اليسار وبالعكس.

كان فواز هناك أيضًا، قابضًا على مُصحفٍ بدوره، يهز جذعه أمامًا وخلفًا، مثل جندبٍ رقّاص.

جلست مناير على يمين العجوز التي أطبقت دفّتي المصحف وسألتها إن كانت قد سمعت دويَّ قنابل، أو طلقَ رصاص. قطّبت الطفلة وهزّت رأسها. لم تكن تفهمُ حتى ما يعنيه ذلك.

كفَّ فواز عن القراءة، وأخذ يحدّقُ في نقوشِ السجادة الفارسية بين قدميه؛ طواويسُ وغزلان وورد بصليٌّ وأصفر على خلفية فيروزية. عاقدًا حاجبيه وزامًا فمه، كمن يحاول تفكيك أحجية.

وتمتمَ وكأنَّ السؤال قد وُجِّه إليه أيضًا.

- أنا سمعت.

وقالت العجوز: «العراق احتلّت الكويت»، أو شيء من هذا القبيل. الحقيقة أنها أعادت صياغة الأمر عدة مرّات لأجل أن تنفذ إلى عقل طفلة الثامنة؛ *العراقيين دخلوا علينا. احتلال، غزو، حرب الله يستر.*

كلمات كثيرة كان يجدر بمناير أن تتعلّمها في دقيقة أو أقل.

كلمات معقدّة، مجرّدة، مَلغومة.

فغرت فاها قليلًا. فهي تعرفُ على الأقل بأنَّ فلسطين مُحتلة، ورأت في التلفزيون أطفالًا يقذفون الحجارة على الدَّبابات، فهل هذا هو ما يعنيه الأمر بالنسبة لها أيضًا؟ في الثامنة فقط من عمرها، لم تعرف مناير بأن هناك دولة اسمها عراق. فشرح لها فواز بأن العراق هي جارة الكويت، كانت في حربٍ مع إيران لثمان سنوات، وكانت تكرهُ كل شيء يقوله مهما بدا صحيحًا، لأنه يقوله فقط

ليشعرها بأنها طفلة، خاصة بعد أن نبت شارب أخضر مضحك فوق شفتيه.

قبّلت الجدة المصحف ووضعته على الرَّف، ارتجف صوتُها قليلًا وهي تقول:

- عمّك راح المخفر يطلب سلاح..

- وين خالتي هدى؟

- راحت معاه.

وكان بودّها أن تسأل؛ «وأمي وأبوي؟»، لكنها تعرفُ بأنَّ العجوز لا تسمح بأسئلة من هذا النوع.

بدأ الخوفُ يتفتّحُ في أعماقِها، مثل جرحٍ مُزهرٍ بألف تويج. احتلال، حرْب، غزو. إنها لا تستطيع تصويب الحجارة على الدبابات، إنها لا تستطيع تصويبَ غطاء قنينة في سلة قمامة. الأرجح أنها سوف تموت.

اغرورقت عيناها واهتزَّ ذقنها، أحسَّت بشيء يابس يتكلّسُ في حلقِها. وفي حين انتظرت أن تخبرها جدتها بأن لا داعي للقلق، وأنَّ كل شيء سيكون على ما يُرام، وجدت العجوز تخفي وجهها بكمّ جلال صلاتها الواسع، وأخذ جسدها يتقفقفُ ويهتزّ.

- ماما منيرة لا تبكين..

قال فواز، هو الآخر ارتعشَ ذقنه ولمعت عيناه. فنشقت العجوزُ ومسحت وجهها بكمّها ثانية.

- الله يرحمنا برحمته.

وغمغمت «أمر الله غالب يا وليدي»، ثم فتحت دفتيّ المصحف وهمّت لتعاود القراءة، لولا أنَّ مناير، هذه المرة، لم تستطع الاستمرار في تأدية دور الطفلة الخارقة التي لا تحتاجُ إلى أمٍ وأب، لاسيما عندما يردّد الكبار كلمات مثل رمي رصاص، وحربٍ وتفجير.

أريد أمّي.

همست.

ربما لم تسمعها العجوز. ربما تظاهرت بأنها لم..

ثمّ بصوتٍ أعلى، وأعلى. «وين أمّي؟».

احتقنَ وجه مناير وتغضّنت وجنتاها وهي تتأهَّبُ لنوبة بكاءٍ صاخبة. الإجراء المعتاد؛ تنبطح على بطنِها وترفسُ وترفسُ، يسيلُ المخاط من أنفها وتشتمُّ في السِّجادة رائحة الغبار، يحمرُّ خدّها من احتكاكه بوبر السجّاد، تنشجُ حتى يغلبها النوم ويترك ريقها لطخة على الأرض.

ولكن فواز في تلك اللحظة هبَّ من مكانِه، وجرَّها خارج الغرفة: تعالي معاي مناير. وين؟ تعالي نشوف الجنود. لم تكن تريد ذلك، إلا أن التعبير على وجهِ ابن عمّها جعلها تتبعه، وتخيلت أنها على وشك أن ترى كائنات مخيفة، مثل العماليق والعفاريت الزرق. وإذا رأونا؟ لن يرونا. كان واثقًا.

جذبها من يدِها وصعدا الدَّرجات.

بسرعة مناير. بسرعة.

قلبُها يدقُّ سريعًا.

بلغا السّطح، صفعتهما حرارةُ الهواء؛ رطوبة أغسطس في أوجها، هواءٌ بحرارة الفلفل الأحمر. تورّدت وجنتاهما وهما يتسلَّلان زاحفينِ ليختبئا خلف صبةٍ إسمنتِية قريبة من الحافة. وهناك أشارَ فوّاز إلى المدرسةِ القريبة..

«كاهُم!»، همسَ ثم زَرَدَ ريقه. ولم تدرِ مناير هل كان ابن عمّها يشعرُ بالرُّعب، كما يدّعي، أم بالإثارة.

رأت مناير مدرعات عسكرية ودبّابة ترابيّة اللون، وجنودًا وقوفًا على المدخل، يقبضون على الرشاشات، يتمنطقون بأحزمةٍ عريضة من رصاص، يرتدون الزيّ العسكري الكاكي، وخوذًا خضراء داكنة، وبُسطارات سود. بعضهم يدخن، بعضهم يتحدّث، بعضهم يضحك. كان الحرُّ يقتلهم جميعًا.

لكن إذا أزلنا تلك التفاصيل جانبًا، فكَّرت مناير، فقد كانوا مجرد رجال.

(٢)

كان الأجدر بنوّاف بعد أن فجّر السُّجناء بوّابة السِّجن بأسطوانات الغاز، أن يعود إلى المكتب الإداري ويتّصل بأخيه. لكنَّ الفكرة لم تخطر ببالِه حتى، والأرجح أن العالم الخارجي قد أسكره؛ الزَّرازير والفجرُ الليلكيُّ ورطوبة أغسطس الحليبية المالحة. خرجَ يهيمُ في الشوارعِ، يعبَّ من الدنيا؛ هواءٌ ساخنٌ يلفح وجهه، سرابٌ يترقرقُ على ألسنة الشوارع الذاهبة بعيدًا، حواسه تخرج من سباتها. عبرَ نوّاف بوابة السِّجن في حين بدأت سيارات الأهالي في التوافد على مبنى السِّجن، كلٌّ لالتقاطِ نزيلٍ يخصّه؛ القتلة واللُّصوص والإرهابيين والمظلومين أيضًا، آن أوان عودتهم إلى العالم.

سار وحيدًا، عبَر الشَّارع الرئيسي ثم الشّارع الآخر، وتغَلغل في الطُّرق الفرعية حتى وصل إلى الأحياءِ السَّكنية في منطقة «الفردوس». سار لا يلوي على شيءٍ، شبهُ ثملٍ بالحريّة، دون أن يفكّر بأمرٍ واحد واضح، وقد امتلأ رأسه بمجرّة حليبية تسبحُ فيها الشّامات السود، ولوهلة شعر بأن نادية تطفرُ من مسامِه، لكنه بعد

مزيد من السَّير الأعمى تساءل، فجأة، ما الذي يفعله هنا، ولماذا لم يتّصل على أخيه. كان قد ابتعد أكثر مما يجب لكي يعود إلى مبنى السِّجن، وصارت الشمس تطبخُ العالم ببطء، والعرقُ يسحُّ من جلده غزيرًا؛ لطخ ماء تتسع على دشداشته في ظهرهِ وإبطيه. هاجمته صور غير معقولة؛ نادية تصوّب على وجهه كاميرا فيديو وتسأله: «قولنا وين رايحين؟ شنو تاريخ اليوم؟». أسئلتها المعتادة كلما شغلت الكاميرا. رأى بحرًا يتكسّر الضوءُ الذهبيُّ على صفحتهِ؛ قطع تبرٍ تبرقُ، بياضٌ يملأ عينيه. صوتُ نادية ينبثقُ من داخله: «قولّنا وين رايحين. هذا أي شارع؟» لكنه لا يعرفُ أينَ هو، وتساءل إن كان ماضيًا بدأبٍ نحو الجنون، ثم وجد نفسه يدقُّ على باب.

وجدَ نواف نفسه واقفًا أمام نساءٍ بعباءاتٍ وبراقع، إحداهنَّ تبدّت تجاعيدها حول عينيها وحدسَ بأنها في عُمر أمّه، جميعهن يحلقنَ فيه بأعينٍ مرتابة وتذكّر، وكأنه يستعيرُ حقيقة بعيدة من واقعٍ مفارق، أنَّ احتلالًا قد وقع، وأنهن خائفات منه. «السلام عليكم»، كان لسانه ثقيلًا متخشبًا بالكادِ يطاوعه وهو يسأل: «ممكن ماي؟». تجمّع الزبد في زاويتيّ فمه وابيضّت شفتاهُ. أحسَّ بدوارٍ في رأسه، مثل دردورٍ لعينٍ أزرق. وبالكاد سمعَ شيئًا مما قالته النسوة، إذ بدأ السَّديم الأبيض يغبّش ناظريه وتساءل إن كان سيهوي بين أقدامهن. لكنه التمسَ من بعيد أصداءً للكلمة ذاتها: «إنت كويتي؟ من ولده؟ من حضرتك؟» وأخذ يهزُّ رأسه ويردد: «إي كويتي، نعم كويتي» وشرحَ لهنَّ بالتفصيل أين يقع منزله، ولقّنهم اسمه الرُّباعي، وعائلة أخواله وأنسابهم، وقال بأنه يريد الاتصال على

أخيه لكي يعيده إلى بيته، وبأنَّه ليس معه سيارة. أبعدت العجوز بناتها عن طريقهِ قابضة على زنودهن: «إقلط يمّه حيّاك». خرجَ إلى الحوشِ مجموعة أطفال، تكدّسوا وبقية النساء حول العجوز مثل برادةِ حديدٍ حول مغناطيس. وتساءل نواف إن كان عليهِ أن يبرّر هيئته؛ الدشداشة البيتية والنَّعل المطاطية. لكنَّ العجوز لم تسأله، ليس بعد. دوار في رأسهِ يشتد. استندَ إلى جدار الديوانية يسمع العجوز تشرحُ له بأنَّ أبناءها التحقوا بوحداتهم العسكرية منذ ليلة أمس. فتحت له باب الديوانية وقالت «حيّاك وليدي»، وبمجرد أن دخل نوّاف أحسَّ بالهواء البارد لوحدة التكييف يلفحُ وجهه، وتوجه إلى الحمّام ليغتسل. خلال دقيقة عاد أحد الصبية بقناني مياه، وشربَ ما بها حتى آخر قطرة، لدرجة أنَّ الصبيَّ خبَّ ليأتيه بالمزيد. وفيما هو ينتظر امتدّت يدهُ، وكأنما من تلقائها، لتشغل التلفزيون المطفأ، ورأى على الشاشة جنودًا يحملُ أحدهم يافطة كارتونية كُتبَ عليها: «المجد المؤزّر لأشاوس البلدِ المحرّر»، وردّد على نفسه بأن البلاد مُحتلة، لأن الواقع ما فتئ يغيب وينأى داخل رأسه.

خرج من الديوانية وطرقَ باب البيت، وقفت العجوز خلف الباب نصفِ الموارب وحولها النساء وطفلين. «يمه أقدر أتّصل؟»، «إي يمّه» قالت، وأرسلت أحد صغارها لينقل الهاتف إلى الديوانية. ولم يستطع ألا يسأل «شالأخبار يمّه؟» وكان الشيء الوحيد الذي قالته بأن «الأمير ووليّ العهد بأمان»، لكن ما عدا ذلك، لم يكن ثمة ما يُقال. وأحسَّ نوّاف بنظرات النساء تمشّط دشداشته ونعله؛ تفكك هيئة البهلول المشّاء في مجازات الليل. حينها تلكأ وهو يخترع

لهنَّ قصة معقولة؛ أنا موظف جمارك، عندي مناوبة ليلية، الجيش العراقي حاوطَ البناء، اضطرينا ننحاش «چـذي» وأشار إلى ثيابه. شيء أفضل من سجينٍ هارب. وفي لحظة تبدى للأعينِ مثل ناجٍ من مجزرة، ابتهالاتٌ كثيرة تطايرت من الشفاه. «الحمد لله على سلامتك يا وليدي»، قالت العجوز ثم أرسلت البنات ليجهزن له شيئًا يؤكل. أحسَّ نواف بقرقرة في معدته. استأذنتهُ العجوز أن ينتظر في الديوانية لدقائق قليلة، ريثما تأتيه بالهاتف وبالفطور.

عندما عاد إلى الديوانية، وجلس تحت الهواء البارد للمكيّف يتفرّج على غرابة العالم في التلفزيون، على الجنون المحضِ خارجًا من عقاله، تنزّل الثقل على جفنيهِ وأغمض. تسللت إلى منامِه جملٌ تلفزيونية رنانة وشعارات تجثمُ على القلب. وعندما جيء بالهاتفِ وصينية الفطور، بعد دقائق، كان قد استغرق في الشخير.

استيقظ نواف والشمس توشكُ أن تغرب. وجدَ نفسه ممدًّا على الأريكة في دوانية بيت الغرباء، وتذكّر أمه. رأى جهاز الهاتف على الطاولة أمامه، ورأى أطباق الفطورِ البائت تنتظره منذ الصَّباح. دلّة قهوة عربية وتمر. التقط السماعة واتصل بأخيه؛ جاءه صوتُ طلال يرشَحُ بالهلع: «إنت وين؟!»، صاح يوبخه، لأنه ذهب مع من ذهب إلى مبنى السجن المركزي ولم يجد له أثرًا، لم يجد أحدًا. أمه تلتقطُ السَّماعة من أخيه تنهره «خبصت قلوبنا يا يمّه» ونوّاف يعتذر. «أنا بخير»، يشرحُ ظرفه. في بيت في «الفردوس»، تعال اخذني. يطلبُ منه طلال العنوان، يحسُّ الخوف في صوتِ أخيه. «مادري شنو

وضع الشوارع بالليل»، يقول. يطرق نواف ويُنهي المكالمة: «شوي وأتّصل».

خرجَ إلى الحوش، وجد الفناء فارغًا فطرق بضعة طرقاتٍ على باب البيت، برزت رؤوس صغيرة لأطفال، أعقبها برقع الجدة تسأله «ها وليدي، صحيت؟» وأردفت بأنه بدا مُتعبًا، وأنهم لم يشاؤوا إيقاظه. تمتمَ نواف خجلًا «السّموحة يمه» لأنه لا يدري كيف نام هكذا، في هذا الظَّرف. وعرفَ من احتقانِ عينيها أنها ما زالت تنتظرُ أولادها لكنه خشي أن يستفسر. طلب منها عنوان البيتِ حتى يدلّ أخيه على مكانه، لقّنته العنوان، فاعتذر ثانية، وسألها إن كانت تحتاج إلى أية خدمة قبل أن ينصرف، فسألته إن كان يستطيع إصلاح مذياعها، ونواف يعرفُ بأنه يستطيع إصلاح أي شيء.

عندما جيءَ له بالمذياع بدأت أصابعه تتحرك من تلقاء نفسها؛ فكَّ المسامير، أزال الغطاء، أمسك الشريحة المعدنية الخضراء بيديه ثم طلب قصديرًا ومكواة، خلال دقائق كان المذياع يعمل، وكان أول شيءٍ سمعه: «سوف نجعل الكويت مقبرة لكلّ من تسوّل له نفسه الخيانة». وفي تلك اللحظة، خارجًا من الغمام الكثيف لأفكاره، بزغ وجه عامِر.

ناولَ العجوز مذياعها وقال «من رخصتك يمه» وكان على وشكِ العودة إلى الهاتف ليتّصل بطلال ويلقّنه العنوان، عندما سمعَ صريف مفاصل الباب الخارجي، ورأى رجلين يدلفان الحوش وقد ارتدى كلاهما جلابية مصرية واسعة، واضح أنها مستعارة من عمال

الشوارع. وفي تلك اللحظة راحت العجوز تلطمُ خدّيها وتشهق مرددة: «مساعد وينه؟ وين مساعد؟»، فاغرورقت عيناه، وعرفَ بأنَّ هناك سنتمترات قليلة باقية من قلبهِ.. لم تمت تمامًا.



(٣)

في صباح اليوم التالي، كانت مناير تقرفصُ على سجَّادةِ الصَّلاة، وقد لفّت الجدَّة رأسها بشيلة سوداء وأعطتها مُصحفًا بغلافٍ مذهّبٍ أخضر، وطلبت منها أن تقرأ «سورة البقرة».

كانت لدى الجدّة نظرية متماسكة منطقيًا، وهي أنَّه ما دامت سورة البقرة تنفعُ في طردِ الجنّ والشَّياطين والعين والحسد، وما دامت تُبطل السِّحر وتفعلُ صنوف الأعاجيب الأخرى، فهي ستنفع في طردِ جنود الاحتلال أيضًا، مع أن مناير متأكدة بأنَّ الجنود هم مجرّد رجال. لم تجرؤ على البوح بشكوكِها، لاسيما وأن فواز قد سبقها بعشرين صفحة، وهو يقرأ وكأنَّ مستقبل البشرية يتوقفُ عليه، يريد أن يُضاعف مفعول الآيات ضعفين. وقد أخبرها بأن الكويت تعوّل عليها أيضًا، لكي تضاعف مفعول الآياتِ مرّة ثالثة. وفكّرت مناير بأنّه لو قرأ الجميع سورة البقرة ثلاث مراتٍ، فسوف تتحرَّر البلاد في غضونِ نصف ساعة. لكن المشكلة أنها في الصَّف الثالث الابتدائي فقط، بصعوبةٍ تستطع أن تقرأ جملة من

أربع كلمات، وبدأ رأسها يدور، وهي تحدق في الآياتٍ بوهن. مهمة تحرير الكويت بدت مستحيلة. لأن سورة البقرة طويلة جدًا، وقراءة القرآن صعبة، لا سيما مع كونها جهرية. وهي عندما قرأت في البدءِ كلمة «ألم» صحّح لها فواز «ألف، لام، ميم» ولم تدرِ لمَ. كانت تجد صعوبة في تنغيمِ قراءتها مع صوتيّ جدتها وابن عمّها. صوتُ العجوز حُبيبيٌ ومهترئ. صوتُ فواز يتراوحُ بين المعدنيّ الحاد والحيوانيّ الأجش، يشبه صرير احتكاك الطباشير بالسبورة السوداء. لو أنها استطاعت أن تقرأ، لكان هناك صوتٌ ثالثٌ يشبهُ مُواء الهريراتِ الوليدة.

كان ابن عمّها يلتفتُ إليها بين حين وآخر ليصحّح لها نُطق الحروف المقَلْقَلَة، ويردّد أشياء معقدّة لم تفهمها؛ مثل أن المدَّ بعد الهمزة بأربع حركات، وبعد الحرفِ المشدَّدِ بستّ، وأن النُّون تختفي هنا، والرّاء تُفخّم هنا، وبقية التَّفاصيل التي وظفها لأغراض التَّباهي. وقال بأنها إذا لم تقرأ القرآن على النَّحو الصَّحيح، فلن تُؤتي القراءة مفعولها، وظلَّ يذكرها بأنه فازَ في جائزة التلاوة للعام الماضي، وهي لم تكن متيقظة بما يكفي كي تسأله؛ في أيٍّ مركز؟ ستعرف بعد سنوات أنه حاز على المركز السابع عشر. لكنها في ذلك اليوم راحت ترفسُ وتبكي، وتصيحُ بأنها تريدُ أمها، وارتجفَ صوتها وكأنها أتت على ذكر الشيطان. طأطأت الجدة كأن الطفلة (قليلة الأدب!) قد بصقت في وجهها.

أخذت مناير تتقلّب على ظهرها، وتصرخ، وهي تشدُّ كمَّ جدّتها، وشيلة رأسها، عازمة على المضيّ في احتجاجاتها إلى النهاية.

حتى نهض فواز من مكانهِ وجثم على بطنها، ثبّتَ يديها إلى الأرض وقال: «خلاص منابر»، وفي تلك اللحظة سمعت عواءً غريبًا، ورأت ليلًا، وأحست بيدين تطبقان على عينيها، فتيبّست ملامحها وجحظت عيناها، وصار جسدها يرقصُ من تلقاء نفسه؛ مثل سمكةٍ لفظها البحر.

دفعت الجدة فواز بعيدًا، ضمّت الصغيرة إلى صدرها، وأخذت تمسحُ على رأسها وتردّد: «بسم الله عليك بنيْتي، بسم الله الرحمن الرحيم».

وذكّرت العجوز حفيدتها بأن والدها في طريقه إلى البيت، بأنه اتصل بالأمس، فعرفت بأنه في ضيافةِ أسرةٍ ما، واتفقوا لاحقًا أن يبيت في البيت الغريب لكيلا يضطر إلى الخروج في الشوارع ليلًا. أحسّت العجوز بالوهنِ وهي تعيد شرح كل شيء، خاصة وأن الطفلة لم تنم طوال الليل، وظلت متشبثة بساعدِها مثل عظاءة، تسألها أسئلة ليس لها إجابات؛ ومتى سيعودون إلى بلادهم؟ ولماذا جاءوا؟ وهل أكلتِ جرادًا فعلًا يا جدتي؟ هل هو لذيذ؟ وما جمعُ برص؟

ردَّدت العجوزُ مرة بعد مرة؛ «أبوك جاي بالطّريق، نوّاف جاي. والله العظيم جاي». لكن منابر لم تشأ تصديق وعودٍ فارغة. فقد سمعتهم طوال سنة يرددون بأنه سيعود عندما تصير طفلة شاطرة وتحسن التصرف، ولم يأتِ أحد على ذكر أمها، ولا مرّة واحدة، رغم أنها أحسنت التصرف على قدر ما تستطيع، وحصلت

على درجاتٍ عالية في الصفّ، وكرّمتها ناظرة المدرسة بنفسِها في طابور الصَّباح، وأعطتها طقم ألوانٍ شمعية جديدًا، والتقطت معها صورة تحت سارية العلَم. لكن جسدها كفَّ عن الرَّقص في النهاية، وكانت هذه هي المشكلة، أنها تتعبُ بسرعة، فلا تؤخذ على محمل الجد.

بعدَ دقائق سُمع صريفُ الباب الخارجي، فتوهّج وجهُ الجدة وانفرطت ملامحها في ابتسامةٍ غير مصدّقة، ضربت على جيدِها وهتفت «نوّاف رجع!»، ثم هرعت، رغم آلام ركبتيها وطقطقة عظام ظهرها، تهرولُ إلى الممر المفضي إلى المدخل، وسمعت الطفلة صوتًا تعرفه ينادي: «يمه؟» ولم يكن ذاك صوت عمّها طلال.

«أبوك رجع منّورة!» صدَح فوّاز، ثمَّ انتشلها من إبطيها وجذبها من ساعدها وركضَ بها إلى المدخل، حتى ترى الأمر بنفسها. هذه المرَّة لم تكن وعودهم فارغة. هرولت منايِر بأعين واسعة، غير مصدِّقة، إلى أبيها، وأمام الباب رأتهُ، بالدشداشة البيتية والنعل المطاطية الزرقاء، ذقنه غير الحليقةِ والشيب في فوديْه، وكأنه خارج من غرفة نومِه، لا من غياب سنة. ورأته ينثني ليحتضن أمّه التي راحت تتشمّم عنقهُ. سمعت عمَّها يقول: «قرّت عينك يمّه»، وجدّتها تردد: «الحمد لله، الحمد لله». ثمَّ أخذت تنوحُ وهي تلفُّ ذراعيها حول وسطه، بالكاد تصل إلى منتصفه: «ما كحّلت عيني بشوفتك إلا يوم راحت الكويت»، غلبها النشيج. رأت منايِر والدها يعتصر أمه، ثم يحملُها مثل طفلةٍ وهي تضحك وتبكي وتردد: «لا يمه لا، غربلتني يا وليدي!»، ورأت دموعًا في عيني أبيها وابتسامة شاسعة

على شفتيه، وبدا مثل سندبادٍ عائدٍ من مغامرةٍ بحرية، وتسمّرت هناك، تنتظرُ أن يراها.

لكنه لم يرَها.

حتى عندما حطت عيناه على وجهها؛ لم يرَها.

مطّت عُنقها إلى الأمام، تشنّجت على أطراف أصابعها ومدّت ساعديها في الهواء: «بابا!»، لكنه لم يسمعها. وضع فواز يدهُ على كتفِها وهمسَ لها: «صبري شوية منّورة». لكنها لم تصبر، اندفعت تتشبث بدشداشته:

«بابا! بابا!»..

ثم جاءت هدى، خارجة من المطبخ بمريول الطبخ وبطنها البارزة؛ داخلها بحرٌ وسمكة ستتحول إلى طِفلٍ بشري.

جاءت لإنقاذها كالعادة.

حملت هدى مناير تقرّبها من نواف: «الحمد لله على سلامتك نواف». رفعت مناير ذراعيها كي يحملها أبوها، كما فعل مع أمّه، لكنه نظر إليها وافتعل ابتسامةً، وقال كلماتٍ باردة من قبيل «كبرت» و«يحليلها»، وهي الأشياء التي يقولها الغرباء في الشوارع عن أطفال أصحابهم، أو هكذا ستفكر مناير بعد سنوات.

ثم حملها لثوانٍ، ووضعها أرضًا، فتعلقت بهِ مثل قردة، لكنه قال بأن ظهره يؤلمه، وفكّ قبضتها عن عنقه، وسار مع أخيه وأمّه إلى الداخل، يسأل عن آخر الأخبار..

(٤)

كان من المفترض أن يسافروا صباحَ ذلك الخميس إلى القاهرة، وقد ادَّخرت فاطمة مبلغًا لرحلةٍ مثل هذه، آملة أن ينجح السَّفر في تصفية دخيلتها من وعثاءِ البلادِ والنّاس. الحكايا التي لا تعرفُ كيف اضطرّت (وكأنَّ الأمر قصاص) أن تنوءَ بحملِها. شقيقُها الذي يتّصل بها كل شهرٍ أو شهرين، ويخبرها بلسانٍ ثقيلٍ وبلادةٍ لا تغتفر أنه بحاجة إلى النُّقود. انتقل إلى فندق أرخص، وليس لديهِ ما يأكله. تسأله «طيّب ليش ما ترجع؟» فيبدأ في الشَّتم واللّعن، ناسيًا أنها أخته الكبيرة، التي مسحت مخاط أنفه وغسلت مؤخرته، وأنَّ هذا الكلامَ لا يصحّ. «إنت متى تتأدّب أبي أفهم!»، كانت تقول، ليسقط هاويًا في إحساسٍ دبقٍ برثاء الذَّات، ويبدأ في الانسحابِ من المكالمةِ على نحوٍ تكتيكيّ، مثل طفلٍ بكّاء. «خلاص إنسي الموضوع، مابي شي من أحد» مضيفًا على نحوٍ دراميّ: «الشَّرهة عليّ أنا اللي اتّصلت» فيجيشُ بداخلها شعورٌ بالذَّنب، وتذهبُ في صباح اليوم التالي إلى البنك لتحوّل له مئة دينار، إن أمكن. وتتقشّف في راتِبها حتى آخر مئة فلس في انتظار العُطلة الصّيفية.

ماذا عساها تفعل، وعامِر منذ شهورٍ يجوبُ المطارات هاربًا من نفسِه. خسر وظيفتهُ وحياته في الكويت، ولم يعد قادرًا على النَّظر إلى أحد، لاسيما نفسه. تعرفُ أن والدها لا يستطيع إرسال مبالغ أكبر لولده، يكفيه أنّه في هذا العُمر، رجلٌ مجعّد الوجه هشّ العظام، مضطر إلى دفع إيجار بيتٍ جديد بعد أن غادروا المنطقة مجلّلين بالخزي كلّه. كانت في دخيلتِها تلعنُ عامِر، وقد توصَّلت في لحظاتٍ إلى كرهه، بسبب الثَّمن الذي تكبدوه مقابل حماقته. رعونة وغباء، نعم. لكن الأسوأ أنه نسيَ الله. أنه «ما خاف الله في نفسه» كما تقول، تستنفرُ حواسها أمام المشاهد الماجنة التي تتخيّلها، لأخيها وتلك المرأة، العاهرة بنت الحرام.

الألسن سكاكين، وقد سمعت أباها يردّد دائمًا «الصّيت ولا الغنى» لكنَّ ولده حمارٌ لا يفهم. «أستغفر الله بس». تصرّف وكأنه كان مضطرًا إلى غمسِ وجوههم في الخراء. ومع ذلك، في صباح يوم الخميس ذاك، كانت مستعدّة لرؤيته، لو أنَّها وصلت إلى القاهرة. وتخيّلت أن تذهب معه إلى «الحسين»، وأن يلاعب الطّفلين، وربما إذا تسنى لهما الجلوس لوحدهما ستلطمُ أنفه ثمَّ ستسامحه، لشدّة ما يبدو مثل طفلٍ وسّخ حفاظته أمام الجميع وتحوَّل إلى سالِفة، حكاية تصولُ وتجولُ في جلسات «شاي الضحى» والدّواوين ومكاتبِ الموظفين في الوزارات؛ في الكويتِ كلّها، أرضِ القيلِ والقال.

لم تفهم فاطمة لماذا كانت مضطرّة لأن تدفع هي أيضًا ثمنَ حماقةِ

أخيها. كانت مكتفية بما لديها؛ ابتداءً بالطفل المعاق، مرورًا بالزوج العسكريّ البدون، وانتهاءً بالتّوافهِ المزعجة مثل حصوةٍ في الحالب؛ البشرة الجافّة والهالتين الداكنتين حول العينين والشَّحم في الخاصرة، وكانت تعتقد بأنها تملك شرعية (وترف) الاكتراث بأشياء كهذه، حتى لا تنمسخ في يبابِ الأيّام وتتحوّل إلى آلة، آلة «مكسورة وتبرّد» كما يقولون. وليس أن تنوء بفضيحةٍ من العِيار الثَّقيل. لا سيما وأنَّها عاشت حياتها باستقامة، ولم تقدّم أية تنازلات على أيّ صعيد. ابتداءً بالحجاب الشرعيّ وانتهاءً بتحريمِها للمعازف (باستثناء الأغنيات الوطنية وأم كلثوم)، وعزوفها عن النميمة والخوض في الأعراض، وانهماكها الحثيث على حفظ القرآن. لكنَّها الآن موصومة؛ مثلهم جميعًا. يكفي أن يعرف أحد اسمَ عائلتها حتى يقيمَ، في رأسه، علاقاتٍ بين الأشياء.

مرّت سنة، وفاطمة تنتظرُ السَّفر. رغم أن السَّفر مع الطّفلين منهِك، والقاهرة ليست بالمدينة الباردة التي ترغب بأن تصطافَ فيها (لكن ما العمل والمال قليل؟). أحسَّت فاطمة بأنها تعيشُ في عالمٍ من الأشياء؛ ماديّ ومحسوس ومحدّد، حتى تحوّلت هي نفسها إلى شيء. لكنَّها في صبيحة ذلك الخميس، استيقظت بمزاجٍ رائق، حتى إنها دندنت أغنية وهي تستحمّ في الصباح. أيقظت الطّفلين بكلّ الحنوّ الممكن، حمّمت يحيى وسرّحت شعر أماني وجهزت القيمر والعسل وخبز التنّور لحسين الذي لم يعد بعد، ورقائق الذرة بالحليبِ للطفلين، والشاي و«البخصم» لها. وجلست تنتظر أوبة زوجِها الذي غادَر ليلة أمس، دون شروحاتٍ، ووعد أن يعود قبل

موعد الرّحلة، حتى لو اضطرَّ إلى لقائها في المطار. المطار الذي لم تعرف فاطمة بعد بأن مدارجه قد قُصِفت، ليس بعد.

تملَّت فاطمة في ملامحِ طفليها؛ ملامحُ الصَّباح الرُّخوة، الوديعة على نحوٍ مخاتل. كلاهما يفتحُ بفمه بآليةٍ ويأكل ملعقة أخرى من رقائق الذرة المحلّاة، وقد سألتهما مرَّتين إن كانا يرغبان ببيضٍ مسلوق، لكنّهما هزّا رؤوسهما دون كلامٍ زائد، مغلّفين بالكامل بغشاءِ النّوم الرقيق، وخلال ساعة على الأكثر سيبدأ يحيى في شدّ شعرِ أخته وستبدأ الصغيرة بالصراخ. لكن ليس بعد، ليس الآن. وفي وسعِ فاطمة أن تختلس لحظاتٍ من هذا المزيج الرائق الذي يغلّفُ حضورها، فخطر لها أن تشغل الراديو وتستمع إلى شيءٍ من تلاوة «محمد صدّيق المنشاوي» إن أمكن، لكنّها فوجئت بتواتر الأغنياتِ الوطنية التي لا تنفكّ، وبدأت تقلّب القنوات، وصولًا إلى إذاعة بغداد التي أذاعت ما أسماهُ المذيع انتهاء «الحُكم الكويتي».

في غضونِ دقائق جاءها اتّصال من جارتِها «أم برّاك»، تخبرها بأن تلك التَّهديدات التي لم تؤخذ على محمل الجد، وتندَّر عليها الجميع، قد تحققت فعلًا، وأن العراق عندما حشد جيشه على الحدود لأيام لم يكن يحاوِل ابتزازهم، بل احتلالهم فعلًا! وسألتها عن حسين، لأن زوجها قلقٌ عليهِ، فتلعثمت فاطمة بأنه غادرَ ليلة أمس، ولم يشرح لها طبيعة الاستدعاء، وأنه لم يعد حتى اللحظة. وخلال دقيقة قرّرت فاطمة، دون تفكير زائد، أن تخرج إلى الشارع. أخذت الطفلين، شغلت السيارة وبدأت تقودُها كمن يتشمّم مكانًا

مجهولًا، حتى صادفت أول حاجزٍ عسكريّ، أخضر وناتئ من العدم، مثل طرثوث. وهناك سألها الرَّجل بلهجةٍ مألوفة وغريبة معًا «لوين رايحة؟» وتلعثمت فاطمة، لأنها لم تكن ذاهبة إلى أيَّ مكان. أرادت أن ترى الاحتلال وحسب.

مثل جميع من في الشَّارع، أُمرت بالعودةِ إلى بيتِها. وبمجرّد أن عادت إلى البيت رنَّ الهاتف، وابتهلت أن يكون المتّصل هو حسين. لكنه كان صوت عامر، وقد جاءها قصيًا وصائتًا ودامِعًا «فاطمة؟ شلونكم فاطمة؟! طمنيني!» ولم تدرِ وقتها بماذا تردّ.

(٥)

في ذلك المساء، فتحت الجدّةُ الدُّولاب، وأخرجت منه صُندوقًا خشبيًا، ومن الصُّندوقِ علاقة مفاتيح.

بسط نواف راحتهُ ورأت أمه ارتعاشَ أطرافه. همست له ألا يخاف: «فضّينا لك المكان، ما خلّينا شي». لكنه لم يكن واثقًا من إمكانية الأمر؛ العودة إلى المكان المؤثث بالتفاصيل، الموصوم بالماضي. شبح نادية يظهر مرة أخرى، يصوّب كاميرا الفيديو إلى وجهه، يسمع صوتها الضاحك: «نوّاف زرارِك مفتوح». ينظرُ إلى دشداشته البيتيه ويرى أنه نسي تزرير ياقته. يتساءل لماذا ظهرت، ومتى ستختفي؟

توقظه أمّه من خيالاتهِ إذ تضعُ المفتاح في راحتِه وتضمُّ يده. تهمسُ: «روح ارتاح في بيتك يمه». فهو بحاجة إلى حمّامٍ بارد، وقطعة صابون معطّرة، ومزيل عرق، وثياب نظيفة، ومنشفته القديمة التي تفوحُ بأريج الليمون. التفصيلة الأخيرة من صنعِ نادية. سوف يكتفي بمنشفة نظيفة.

«أغراضها وين؟».

يسأل أمه دون أن ينظر في عينيها. دون أن يلفظ اسمها.

«أنا وهدى تصرّفنا».

يقبّل رأس أمّه، لا يفهم لماذا تقفزُ منایر بجانبه مثل ضفدعة فرحانة.

قبل أشهر، طلبت هدى من فواز أن يبقي منایر منشغلة، فأخذها إلى الحوش وانهمكا في خلط الأسمدة، ملء الأصص بالتربة، غرسِ الشتلات؛ ريحان وياسمين. كنسا الحوش، وأخذا بواقي السّماد الذي تساقط على الأرض ونثراه على الأحواض. اصطادا دعسوقة صفراء، وعثرا على يعسوب ميت. نثرا الخبز البائت للفواخت والقبرّات. حاولا تسلّق النَّخلة وأخفقا. حوّلا علبة صفيح إلى طبل، غمرا الحوش بالماء، ثم سكبا علبة كاملة من صابون «فيري»، وامتلأت الأرض بالرغوة الزلقة. كانت منایر تُكركر، وكان الفتى يرنو بين وهلةٍ وأخرى إلى النافذة في الطابق العلوي. عندما تُغلق الأنوار ستكون المهمة قد أنجزت، وحتى ذلك الحين عليهِ أن يبقي منایر في خيالاتها، ولم تكن تلك مهمة صعبة.

في تلك الأثناء، دخلت الجدّة وهدى إلى شقة نواف وقامتا بتطهيرها من كلّ ما يخصُّ نادية. قرطين من اللؤلؤ على سطحِ التسريحة، شعراتٌ سود بين أسنان المشط، براويز وصور لحياة السنوات العشر؛ في القاهرة ولندن وفي الكويت حيث البحر. أحذية بكعوب، وأخرى مسطحة، ونعلٌ بيتية من الساتان الفستقي. فساتين؛ شيفون، دانتيل، حرير. قمصان النوم القطنية والأخرى

التي.. دزينة من دهن العود، ثلاثون زجاجة عطر فرنسية. تنانير سوداء إلى منتصف بطة السّاق. ستة أقلام كحل وزوجي ماسكارا، أحمر شفاه نبيذي، وآخر عنّابي قانٍ، ومشمشي، و.. كلها أزيلت. حمّالات صدرٍ من جميع الألوان؛ الأبيض، الليلكي، الزيتوني، الأسود. عباءة. ثوب صلاة أبيض. صابونة رقي، فرشاة أسنان. سبع علب لبودرة الوجه بدرجات الوردي. ليفة. ربع كيلو مُرَّة. صابونة نابلسية. بودرة الحناء. سنفرة اللوز المر. كسر بخور هندي..

كان المكان مؤنثًا بالكامل، فكّرت هدى، ولم تتخيل أن يكون تطهيرهُ بهذه الصُّعوبة. فقد كان عليها أن تخمّن أحيانًا ما هي الأشياء التي تخصُّ نادية، وما تلك التي تخصّ نواف. لم تعرف كيف تتصرّف إزاء المكتبة، واكتفت بإزالة الروايات (غسان كنفاني ويوسف السباعي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وتشيخوف وموباسان)، وكتاب طبخٍ واحد لفاطمة حسين، وأبقت على كتب التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع. لم يخطر لها أن كتاب «تاريخ الكويت السياسي» لحسين خلف الشيخ خزعل كان هدية نادية إلى نواف، أنها أوصت به من بيروت، وقد توهجت عيناه من الإثارة عندما قبض بيديه على الكتاب الممنوع بأجزائه الخمسة وغلافه المقوّى. كما أغفلت عن نسختيّ «أبناء السندباد» بالعربية والإنجليزية، الكتاب المفضّل لنواف لذي لم يقرأهُ قط، بصور البحّارة وغاصة اللؤلؤ والسُّفن الشراعية. كانت متأكدة بأن دواوين نزار قباني وفاروق جويدة ولميعة عباس عمارة تخصُّ نادية، لكنها احتارت بشأن محمود درويش وبدر شاكر السيّاب والمتنبي، وخافت أن تمسّ

أشرطة مظفر النواب، إذ لا بدَّ وأن تهريبها من البَصرة كان أمرًا عسيرًا. لكن الأصعب هو ديوان «مذكرات بحار» لمحمد الفايز، إذ تضمّنت الصفحة الداخلية توقيع نادية، لكنَّ كل ما فيه من معانٍ كان يخصُّ نواف؛ البحرُ والجوعُ واليامال والسنبوك وقلائد اللؤلؤ والمدينة الحزينة. الأدهى أنها لم تنتبه إلى عددٍ من الكتب كانت مُستعارة من مكتبة عامِر، وظلت مستعارة لسنوات طويلة ولم تعد إلى صاحبها قط. الكتبُ التي هي أناجيلُ لأفكار الرَّجلين وما يبدو عليه شخصٌ يساريٌّ من بعيد؛ مؤلفات غرامتشي، نسخة بغلافٍ مقوى من «رأس المال» لكارل ماركس، وكتاب فرانز فانون «معذَّبو الأرض»، وشيء من كريم مروة. تركتها كلّها، غير منتبهة إلى مصدرها، إلى جانب أعداد من مجلة «الطليعة» و«الأهالي» المصرية ومجلة «العربي».

كما لم تدرِ هدى كيف تتصرف إزاء مجسّمات أم كلثوم التي اشتراها الاثنان من شوارع «الحسين» في القاهرة؛ هل من الصواب إزالتها؟ ثم قررت أنَّ الأقلَّ هو الأكثر، وأنَّ التطرّف في المحو أفضل من التهاون فيه. وفي حين كانت متأكدة من أنها أفرغت الجوارير من حمّالات الصدر، الكورسيهات، الأحزمة الجلدية، السَّراويل القطنية والحريرية، والجوارب الشفافة، كانت قد أفلتت جوربًا واحدًا ملتصقًا بأحد سراويل نواف.

تساءلت إن كانت زجاجة «دهن العود» تخصُّ الرجل أم المرأة؛ فهذه الأشياء ثُنائية الجنس، وعليهِ قررت أن تتخلّص منها، مهما

بدت غالية، وأنَّ على نواف أن يشتري زجاجة جديدة بعد عودته من السّجن. في كيسٍ بلاستيكي أسود، ألقت هدى بكلّ الأشياء، ومعها أقراص منع الحملِ التي عثرت عليها في درج الكومدينة. لكنها سَهَت عن أقراص الكالسيوم والمغنيسيوم التي تتناولها نادية بانتظام منذ وضعت مناير. مكملات غذائية محايدة تقريبًا. كانت العجوزُ تحوقلُ، جالسة في طرفِ السرير على مضض، في مكانٍ ملوّث وآثم. عيناها تجوبان فتحات التكييف، واثقة من وجود قبيلة من العفاريت، وكثير من حجابات السِّحر المدسوسة في الطيّات والثنايا. فلا شيء يفسّر ما حدث بين الرجل وامرأته إلا الشيطان.

لم تتخيل المرأتان أن إزالة تفاصيل نادية ستستغرقهما يومًا بطولِه، وكلما ألقت هدى بأحد أشياء نادية في أكياس القمامة، كانت تشعرُ بشيءٍ في قلبها ينكسر؛ هشيم زجاج، ضلع مخلخل، بودرة عظام. كانت مجرد غلطة وها قد تم محوها بالكامل. وتساءلت هدى إن كان من الصواب قتلها إلى هذه الدرجة، اختصارها إلى خطيئة. ماذا عن الطفلة؟

كانت العجوزُ تعوّل على الزمن؛ تكبر وتنسى، كلنا ننسى.

هكذا دأبتْ الأسرة طوال سنةٍ على اقتلاع الأم من ذاكرة ابنتها، وتحويلها إلى يتيمة، أو إلى ما هو أفضل؛ إلى لقيطة. فألا تحظى بأم لهو أفضل بكثيرٍ من أن تكون سليلة عاهرة.

الشيء الوحيد الذي لم تقدر هدى على تطهيره كان خزنة الذهب، فهي لا تعرف مكان المفتاح، ولا تريد أن تعرف. قررت

ألا تثير الأمر مع العجوز، إذ ينبغي أن تؤول مجوهرات نادية إلى ابنتها، ربما يصبح ذلك ممكنًا في يومٍ ما. بخلاف ذلك، كانت متأكدة من أنّها انتزعت المكان من ذاكرته، خرجت في نهاية اليوم وأقفلت الباب مرّتين، ثم سلّمت المفتاح للجدة، وذهبت إلى غرفتها لتنشج وهي تسمع كركرات مناير المتصاعدة من الحوش تدوّمُ كاليراعات في ليل البيت، أقنعت نفسها أن الأمر كله لحماية الصغيرة، وبأن الجدّة تعرف ما تفعله. لكنَّ قلبها امتلأ بحنينٍ محرّم إلى أخت لم يعد في وسعها أن تعدّها أختًا. وتساءلت لماذا كانت الخطيئة كلها من نصيبِ نادية؟ لكن أحدًا لا يستطيع تكدير خاطر امرأة عجوز، ولا أن يخالف المرويات الرسمية؛ لقد فعل نواف الشيء الصحيح بالنسبة لرجل، لا أحد يتوقع منه ما هو أقل من ذلك.

شرف العائلة. كرامة الرّجل.

عناوين رنّانة.

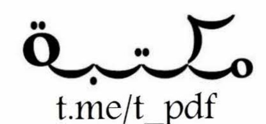
أغفلت هدى تفتيش غرفة مناير، اكتفت بمسحٍ سطحي لم تجد على إثره سوى دُمى، ألوان شمعية وكراسات، ثوبٍ تنكري لحورية بحر، وحفنة من قواقع «ناب الفيل». سهت عن صورة نادية في الدرج السُّفلي من الكوميدينة، تلف ذراعها على عنق مناير ويطير الحمام فوق رؤوسهما والأكتاف في ساحة الطرف الأغر بلندن. عُمر الصورة سنتان تقريبًا. صيف ١٩٨٨، قبل أن ينقلب العالم على عقب.

نسيت هدى أيضًا أن تمرّر يدها على سطحِ المكتبة العلويّ، حيث

الغبار وجثث البعوض والعناكب المتيبسة وكثير من الدفاتر التي خجلت منها نادية، وعمدت إلى إخفائها، لأنها تضمنت محاولاتها الأولى في كتابة القصة القصيرة ومخطّط لرواية.

صورة الأم والابنة. جورب شفاف. مكمّلات غذائية، وبضعة نصوص ضعيفة فنيًا؛ هؤلاء فقط نجوا من المجزرة.

ثمَّ عاد المفتاح إلى صاحبِه..



(٦)

تسمَّر نوّاف أمام الباب لا يجسرُ على الدّخول. عظامهُ تصطكُّ ويتقطَّرُ العرق من مسامِه. تساءل إن كانت ابنته الواقفة قربه قادرة على سماعِ وجيب قلبه. شبحُ نادية على يمينه. تصوّب الكاميرا إلى وجهه: «شفيك خايِف؟». يبلعُ ريقه ولا يفهم لماذا يمكنها أن تراه إلى هذا الحد. يسمع صوتها في رأسه؛ «والآن، أعزائي المشاهدين، نتابع معكم البثّ المباشر مع السيد نواف الخوّاف، انظروا إليه كيف يخافُ من بابٍ ومفتاح».

الذاكرة جحيم. وهو يعرفُ الآن بأن الجحيم هو كاميرا فيديو مصوبة إلى وجهك؛ أكثر قسوة من سبطانة بندقية. إمكانيّة أن تُرى إلى هذا الحد. الطفلة تغني: «شبَرا أمرَا شمس نجوم كواكب مراكِب..» دون أن تكفَّ عن النّطنطة، تريد أن ترى ألعابها المحشوة ودفتر ملصقاتها وكنزها المصنوع من القواقع. تبدو مثل جدجدٍ مبتهج. نادية تضحك.

«أعزائي المشاهدين نحن ننظرُ الآن إلى جرادة بشرية نطّاطة وأب عاجز عن دخول بيته. انظروا جيدًا».

أحسَّ نواف بأنفاسهِ تضطرب، وهو يدخل المفتاح في قفلِ الباب ويديرهُ مرّتين، ويسمع مفاصله تئنّ.

في تلك اللحظة داهمته الرائحة.

ورغم أن السُّطوح بلا براويز، ورغم أنه لم يجد أقلام الكحل وأحمر الشفاهِ النبيذي على المنضدة، ولم يجد صورتها بفستان الزفاف على الكومدينة، كما لم يجد نعلها البيتية. لم يجد أشياءها، إلا أنه لسببٍ ما.. وجد رائحتها في الهواء، رائحة المسكِ ودهن الورد والشوق والهمسُ وملمس يدها على جبينهِ أحيانًا، رائحة شجاراتهما في النهارات وقبلاتهما في الليالي. رائحة أقفل عليها لعامٍ كامل، حتى تكثّفت وثقلت وتدلّت.

نادية تعلّق:

«سيداتي سادتي، ما هذا الذي نراه على وجه نواف الخواف، هل هذه دموع؟».

لم يقوَ على الوقوف أكثر، ترك الباب مشرّعًا وهرعَ ينزلُ الدَّرجات. صوتُ نادية يعلو بداخله؛ «نواف الخوّاف ينسحب، إنه يشبهُ نفسه الآن ولا يحاول خداع أحد. انظروا إليه جيدًا، أعزائي المشاهدين، فهذه اللحظات قليلة في حياةِ رجلٍ مثله».

غادَر نواف، وشبح نادية وكاميرا الفيديو الافتراضية..

وبقيت منابر.

(٧)

تجولُ عيناها في المكان؛ يمين، يسار، فوق، تحت.

سجادة، سقف. ثريا، وسائد.

ما الذي حدث هنا؟

تجمّدت الصَّغيرة واقفة عند المدخل، تحاول أن تفهم لماذا تغير المكان إلى هذا الحد. ولماذا بدا فارغًا وأقل من خيالها. كانت صورها (طفلة في الثانية تلعب بصنبور المياه في الحوش، وأخرى عندما كانت في الرابعة، تسبح في حوض سباحة منفوخ بعمقِ شبرين) ما زالت على الرّف، لكنَّ الصُّور العائلية؛ (هي وأمها وأبوها يطعمون الإوز في الهايد بارك، وأخرى في عيد الفطر الماضي عندما ارتدت فستانها الليموني المكشكش، وأخرى في الشاليه، عندما جلسوا على الرمل ومعهم شبكة صيد وجردل مليء بأسماك الزوري، والأخرى عندما بنت مع أمها قلعة رمل مزينة بالأصداف وزبابيط النقعة) كانت تلك الصور كلها قد اختفت. انتابها شعورٌ حُلمي، موجيٌ

رجراج. وكانت مثل شخصٍ استيقظ من حياته، ووجد أن كل ما يعرفهُ هو محض تزويرٍ لحقيقة لن يعرفها أبدًا.

فكرت بأن أمها لم توجد قط، رغم أنها ما زالت قادرة على تنشّق رائحتها؛ رائحة قطنية، معتّقة وقديمة، تلتصق ببشرةِ القلب. شرّعت مناير الدواليب ولم تجد فيها ما يخصُّ نادية، وأحست بشيءٍ صلبٍ يشبهُ الحجر، ينبت أعلى حلقِها ويسدُّ منفذ الكلام، ولم تعرف أية كلمات تُطابق الشيء الذي يجيشُ داخلها، طوفان يعلو من أمشاط قدميها وحتى عينيها. بحرٌ برمّته يولد. صارت تهيمُ في الحجرات، تضغط مفاتيح الإضاءة وتتجوّل مثل روحٍ هائمة، شبح من الماضي يحاول العودة إلى حياتِه، ليجدَ أن حياته لم توجد إلا في خياله.

فتحت مناير الجوارير والدَّواليب وخزانة الأحذية. بحثت عن قرطيّ اللؤلؤ على سطح المنضدة، بحثت في الحمّام عن عشرات المستحضرات التي تجلبها أمها من العطارين ومحلات التجميل. امتلأت المكتبة بالفراغات وبدت، مثل فمٍ كريهٍ بلا أسنان. فتشت عن أقلام الكحل وأحمر الشفاه والأشياء التي كانت تختلسها دون أن تنتبه أمّها، فتوبخها لاحقًا، ثم تطيّب خاطرها بوضع قليل من أحمر الشفاه على شفتيها وخديها وتدعكهما بأصابعها. تتذكّر الإحساس بخدّيها لكنها لا تجد دليلًا عليه. وفكّرت؛ ربما لم تحظَ بأمٍ قط، ربما ألقت بها اللقائق في حجر جدّتها. ربما كانت لقيطة متبنّاة، وربما لم تكن هذه عائلتها أصلًا. امتلأ قلبها بالثقل؛ كما لو

أن داخلها قد امتلأ بأكياس الرمل. ولو أنها نظرت في المرآة لرأت بأن فمها قد تقوّس إلى الأسفل، لكنها، من فرط الحيرة، لم تبكِ. وفي تلك اللحظة شعرت بأنها، هي نفسها، لم توجد قط.

أفزعها ارتطام حمامةٍ بزجاج النافذة. ما لبثت أن طارت. هل تحدثُ الأشياء فعلًا أم أنّنا نتخيلها فحسب؟ ثمَّ تذكّرت بأنَّ لها غرفة تخصّها. وهناك، داهمتها رائحة بودرة الأطفال فارتخت ملامحها قليلًا. على أطراف أصابعها سارت نحو النافذة، أطلّت على الجنود الواقفين أمام بوابة المدرسةِ القريبة، بتلك الرَّشاشات المروّعة والأحذية العالية وأحزمة الرّصاص، وخلال لحظة وجدت نفسها خارج الغرفة مرة أخرى، داخلها يدوّي؛ بوم! بوم! ماذا تفعل الآن وقد أصبحوا قريبين من غرفتها؟ جلست على الأرض مستندة إلى الجدار بظهرها ترمقُ صندوق ألعابِها بعينين جائعتين. كانت تنتظرُ أن تعود إلى بيتها طوال السنة الماضية، لكنه كان بالغ الوحشة بالنسبة لروحٍ صغيرة هائمة. كان الأسلم أن تعود إلى غرفةِ الجدة، وأن تتغاضى عن طقم الأسنان في المحلول. لكنها قبل أن تفعل، زحفت على بطنها نحو صندوق ألعابها، تجذب جذعها بذراعيها وتدفع بكوعيها إلى الأمام، ساقاها تنطويان وتنفردان مع كل شبر تقطعه. هكذا تضمن بأنه حتى لو رفع جنديٌّ عينيه إلى نافذة غرفتها، فلن يراها. وستكون طفلة خفية بالكامل. خفية كما ينبغي.

فتحت صندوق الألعاب، نبشته بيدين عجولتين، ثم عثرت على ثلاثة من قواقع «ناب الفيل» في قاع الصندوق. دسّتها في جيبها

وزحفت إلى الخارج. نهضت من مكانِها وركضت بأقصى سرعةٍ إلى الطابق السفلي، وحتى عندما ارتطم إصبع قدمها الصغير بالعتبة في طريقها خارجًا، حتى وهي تتفافزُ من فرطِ الألم وتعضُّ على شفتيها كيلا تصرخ، انتابها منذ ذلك اليوم عطبٌ أبدي، وظلت لسنواتٍ لاحقة يراودها بين الفينة والأخرى ذلك الشعور الحلميّ المتموّج وهي تتساءل إن كانت موجودة فعلًا، أم أنها مجرد حلم يقظة لشخص أكثر حقيقية منها.

(٨)

في اليوم التالي حدثت أشياء عجيبة، امتلأ العالم، فجأة، بالكنوز والخرائط والأسرار، واكتشفت مناير، بقدر غير قليلٍ من الغبطة، أنها تعيش بين قراصنة.

وضعت الجدّة جميع ما تملكه من ذهبٍ في صُرةٍ قماشية، ثلاثة كيلوغرامات من الحُليّ والسَّبائك، وأضافت إليها مجوهرات هدى؛ قلائد وأقراط ومضاعد وخواتم، سمّت كل واحدٍ باسمه؛ «المزنط» و«المقمّش» و«الهامة» و«كرسي جابر». ليرات وحجول. تبرٌ يبرق ويضيء. كانت قُماشة الصرّة مفرودة بين ساقيّ العجوز المنفرجتين، جالسة على أريكة غرفة الجلوس، ومن حولها كنّتها وحفيدتْها، توشكُ أن تطوي أطرافَ القماشةِ عندما همست هدى: «خالتي وذهب نادية؟».

تغمضُ العجوز فجأة، كما لو أنَّ أحدًا تفلَ على وجهها. لا يجدرُ بأحدٍ أن يلفظ هذا الاسم، لاسيما أمام الطفلة. لكنّ الأمر هذه المرة يتعلق بالذّهب، والبلاد محتلة. فتقرر أن تغضَّ الطّرفَ قليلًا. تسأل:

«وينه؟»، تتهامس المرأتان: مادري خالتي، أكيد في الخزنة. وين المفتاح؟ نسأل نواف. لأ. يمكن نعتازه. الله لا يحوجنا. خالتي الدنيا حرب. تضع العجوز يدها على رأسها وتحوقل، ثم تزمُّ فمها وتهمس في أذن كنّتها: «قولي لرَجْلِك يكلمه».

تزحفُ مناير على بطنِها مثل بُزاق، تبلغ آخر الصالة حيث نواف وطلال، تسمع همسَ الاثنين:

- أمك تبي الذّهب.

- أي ذهب؟

ينظرُ طلال في عينيّ أخيه ويكرّر: «الذّهب، ذهبكم»، لا يريد أن يلفظ اسمها هو الآخر.

يتضرَّج وجه نوّاف.

- يحترق.

- حرام ياخوك، ما يجوز..

- قلت لك يحترق.

يكرِّر على أخيهِ كلمات امرأته:

- يمكن نعتازه، الدّنيا حربْ.

يتأفَّف نواف، ينتأ عِرقٌ في جبينه لم تلحظه مناير قبلًا. شبح نادية يظهر ليصوّب الكاميرا إلى وجهه: «نوّاف شفيه ويْهك قَلَب أحمر؟ بعدين تراه ذَهب، ذَهَب مع الذي ذَهب. لا تكبّر

الموضوع». يخضع نوّاف أخيرًا؛ المفتاح في درج التسريحة على اليسار.

يهمسُ طلال لامرأته، تصعد هدى الدرجات، يدها على بطنها المتكوّرة، عظامها تطقطق مع كل خطوة، في بطنِها بحرٌ وفي البحرِ سمكةٌ تلبط. تتبعها مناير. غير مرئية أيضًا، ترى الخزنة تُفتح، قلادة نادية المرصَّعة بالفيروز، شَبْكة زفافها المعشّقةِ بالزمرد، خواتمها الماسيّة، سلاسل الفضة، خلخالٌ هزيل، وحتى الهامة والمقمّش والحجول وحزام الذهب الذي ارتدته في «جلوة» زفافها، كلها آلت إلى الصُّرّة، بين ساقيّ الجدة.

وارتاحت مناير لفكرة أن أمها قد وُجدت حقًا. لكن ربما يحتاج الأمر إلى جهد لإقناع الآخرين بذلك. فهم على ما يبدو لا يرونَ ما تراه. ثمَّ حاولت أن تحمل الصرّة؛ كانت ثقيلة، في وزنِ طابوقتين من الجيري. هشَّت عليها العجوز «بعدين يا بنيّة!»، وأعطت الكنز إلى كنّتها لتشرف على عملية دفنِه.

ستفكّر مناير، بعد ثلاثين سنة، بأنّها سليلة عائلة من الدفّانين. لكنها لم تتأمل الأمر على هذا النَّحو يومها، بل خرجت إلى الحوش مثلهم؛ رجلان وامرأة، فتى وطفلة وجنين، مجرفة ومعزقة، تحلّقوا حول حوض النخلة. طلال يحفر وفواز يراقبه باستماتة. يلحُّ عليه: «يبه خلني أجرّب». «بعدين يا ولد، بعدين». يغرسُ المجرفة في الترابِ ويصنع حفرة على عمقِ متر، ثم يمدُّ يده إلى هدى ويتناول منها الصرّة التي لفّتها بورق النايلون. يضعها في الحفرة ويسمح

لولده، هذه المرة، بأن يدفنَ السّر. مناير تنفذُ بين الأجساد. كانت قرصانة تعرفُ مكان كنزٍ مدفون. وبعد أن ينشغل الجميع بشيء آخر ستذهب إلى قوقعة «نابِ الفيل» وتتصل بالبحر لتخبره بكثير من الزهو؛ بالمناسبة نحن قراصنة.

ينتهي فواز من الدفن فيأخذ طلال المعزقة ويسوّي التربة فوق الصرّة، ثم يجمع أوراق شجرٍ ميت ويبعثرها على المكان. يرفعُ جبينه ويمسح وجهه بكمّ دشداشته، ثم ينظر إلى أخيه المنتصب عند الباب، في عينيه شرودٌ وشياطين. يسأله: «وين دفتر التجنيد؟».

يعودون إلى الصالة. رجلان، امرأة، فتى وطفلة وجنين.

لا يستطيع نواف بعد دخول غرفته. في رأسِ نادية تردد: «نوّاف الخوّاف، مثل الصغار يخافُ من أشياء غير موجودة، الطنطل وحمارة القايلة وأم السّعف والليف». يكرزُ بأسنانه. «إنتي أم السّعف والليف». تطلق نادية ضحكة رقيعة، تتخلّل شعرها الأسود بأصابعها وتدندن: «أم شعرِ حرير، والله عليها نغير، حورية من الجنّة».. ثم تنظرُ إليه بطرفِ عينها وتغمزه: «تغار عليّ نواف؟» الدماء تفورُ في عروقِه.

طلال يستدعيه: نوّاف!

يبدو كالخارج من الماء: ها!

- وين دفتر التجنيد؟

ينكّس ثانية، يهمهم. «في الخزنة، الدرج اللي تحت».

تصعد هدى ثانية، البحرُ في بطنها يترجرج. تيّارات الحملِ تزداد قوة. تقعي أمام الخزنة، تفتح الدرج وتستخرج الوثيقة. ترسل مناير لجلبِ مقص. تحوّل الدفتر إلى قصاصاتٍ بلا معنى، ثم تتوجه إلى الحمام وتلقي بها في المرحاض، تسحبُ السيفون لتذهب القصاصات إلى حيث لا يعلم أحد. تتخيل مناير القصاصات السابحة مع الفضلات البشرية، تعومُ في المجاري تحت الأرض، تزحفُ عليها الصراصير والجرذان والعناكب. ستخبر البحر بشأنها أيضًا، لاحقًا عندما ينامون.

طلال يلتفت إلى نواف؛ وملابس التجنيد؟ تهمُّ هدى بالصعودِ ثانية، يستوقفها طلال. «خلاص كافيّ». يتبرّم بأنهما انتظرا ستة عشر عامًا حتى تحبِل. «بالعدال على نفسك»، يقول. هذه المرة سيذهب بنفسه.

ثم يخرجُون إلى الحوش ويبحثون عن جردلٍ معدني، تدس هدى الملابس داخله وتسكبُ عليها الكيروسين وتحرقها. تتأكد بأن الشمس قد غابت، لكي لا يرى أحد تصاعد الدخان.

يعودون أخيرًا إلى الداخل. تجلس هدى على زاوية الأريكة تهفُّ بيدها على عنقها ووجهها، الجدة تأمر فوّاز «روح جيب لأمّك قلاص ماي»، وتصيحُ هدى «الماي!».

يصعد طلال ونواف، هذه المرة، إلى غرفةِ الغسيل في السطح، ويعودان بالدلاء والمرطبانات والجرادل وأواني الغسيل والقدور المخصَّصة للولائم، يصفُّانها في حمام غرفةِ الضيوف بعد ملئها

بالماء. يحرك طلال سبابته في وجهِ الصغيرين؛ من الآن فصاعدًا، الماء للضرورة.

في ذلك اليوم تعلمت مناير كلمة جديدة؛ (الضرورة).

في الليل أخرجت مناير من جيبِها قوقعة «ناب الفيل» وأخبرت البحر بكلّ شيء. سيكون لديها المزيد لتخبره عنه في الغد، عندما يعود طلال وهدى من السُّوق، مع ستةٍ من أكياسِ الأرز والعدس، دزينتين من معلبات الحمّص والفول، وشرائح الأناناس والخوخ المحلّى، وأكياس الطحين (ثلاثة من الطحين الأبيض وسبعة من الطحين الأسمر)، مع زجاجة شراب اللوز المركز، وسحّارة عصير (صن توب) البرتقالية بملصقات الدُّب على جانب كل علبة. اشتروا أيضًا كيسًا من فحم الشواء، علبة من الأربطة المطاطية، والكثير من الأشرطة اللاصقة، وطفقوا يلصقون النوافذ؛ الزوايا الأربع بالكامل، وعلامة X في المنتصف، على كل نافذة في البيت، ثم التفتت هدى إلى زوجها وقالت متردّدة، في نبرة اعتذارية تقريبًا: «كاميرة الفيديو».

شيءٌ ما، مثل نصلٍ مدبب، انغرس في ضلوع نواف. إنَّ كاميرا الفيديو هي نادية، امتلأت أشرطتها بتسجيلات له ولصاحبه، واحد يعزف والثاني يصفق. يأكلانِ القباقب المسلوقة مع الليمون. غرفتهما الفندقية في لندن، شهر العسل في القاهرة. «نكسر الكاميرة». قال. طلال وهدى اعترضا. قد نحتاجها، نحن في حرْب. طأطأ. لا يذكرُ أين هي، ربما في الشاليه؟ يتحشرجُ صوته. «أنا أدلّ مكانها». تقول

هدى، في صوتها نغمة اعتذار، تصعد وتنزل، ثم تضع الكاميرا بين قدميّ طلال. يرفع عينيه إلى السّقف ويحدّق في فتحات التكييف، ثم يطلب من ولده أن يأتيه بسلّمٍ ومفكّ براغٍ.

ظنّت مناير أن الأمور لا يمكن أن تصير أكثر غرابة، بعد أن خبأ الكبار كاميرا الفيديو في فتحة التكييف. لكنّها سرعان ما تبينت العكس، عندما جاء كلٌ من طلال ونواف بما لديهما من نقود؛ دنانير كويتية، جنيهات مصرية وبريطانية. سمحت هدى لمناير أن تساعدها، حوّلت الأوراق النقدية إلى لفافاتٍ، وربطتها برباطٍ مطاطيّ. ثم توجهوا إلى غرفةِ العجوز، ودسُّوا اللفافات في عمقِ الأسطوانة المعدنية التي تُعلَّق عليها الستائر.

لاحقًا تلك الليلة، جلبَ طلال الكثير من الفرش الإسفنجية وملأ بها أرضية السرداب. قال؛ منذ اليوم تنام النساء والأطفال هنا. الجدة رفضت: «لا والله ما عليّ منكم، أنا بنام بغرفتي». وعرفت مناير بأن الجدة تخشى أن يراها ولداها وكنّتها بلا أسنان، أكثر مما تخافُ الموتَ بقذيفة.

لسببٍ لم تفهمه مناير، كان طلال يردّد بأن عليهم ألا يصعدوا إلى الطابق الثاني إلا للضرورة، وأن يكونوا سريعين في العودة. أن يتجنبوا السَّير بمحاذاة النوافذ، وأن يبقوا دائمًا في منتصف الغرفة. قال ذلك، ثم ذهب ونواف إلى الصالة، وأخذا معهما جهاز الراديو.

وهكذا في الليل، وجدت مناير الأمر غريبًا. الخالة هدى ممددة على ظهرها، فمُها نصف مفتوح، تشخرُ كأنها موشكة على الاختناق.

«دايا» تشخرُ أيضًا، بعد أن قضت النهار بطوله تبكي بسبب انقطاع الاتصالات الدولية، وأبلغت العجوز أنها تريد العودة إلى بومبي.
ومناير تتساءل؛ كيف يمكنها أن تنام بين المرأتين دون أن تبلل فراشها..

(٩)

جلست فاطمة منفرجة السّاقين أمام صينية معدنية، تحمسُ فيها قِطعًا من الفحم، لتصنعَ منه كمّامات واقية من الكيماوي. بقدر ما بدت الفكرة مضحكة ومستحيلة، كانت الشيء الوحيد الذي يمكنها فعله.

عميقًا في دخيلتها، وأعمق من السرداب، لم تصدّق فاطمة بأنَّ الفحم قادر على امتصاص الغاز الكيماوي، لكنّها قررت أن تفعل مثل الجميع، أن تنفّذ التعليمات غير المنطقية كما وردت في منشورات «الصُّمود الشعبي»، وهي تفكّر فيما كانته قطعة الفحم قبل ملايين السنين؛ جذوع أشجار، نبتة طمرتها الأرض لمليون عام، مليوني عام، مئة مليون عام. كانت فاطمة، مدرّسة الجيولوجيا التي تقاعدت مبكرًا للعناية بطفل معاق، تجدُ عزاءً في أفكارٍ من هذا النوع.

تستغفر، وتنظر إلى يحيى الذي يتقلّب على ظهرهِ، فاغرًا فاه والريقُ يسيل من زاوية فمِه. صبيٌّ في الثانية عشرة من عُمره، يكاد

ينبت شاربه، ومع ذلك فهو مجرد طفل. يرفع دشداشتهُ إلى بطنه ويكشف عورته للجنّ والأشباح ولها. تنهره: «عيب!»، لكن غضبها يبهجه، يخلع كل ما يرتديه. إنه لم ينهض من مكانه طوال اليوم، ويبدو أن دافعه الوحيد للعيش يكمن في معاندة أمّه. تحوقِلُ. تريد أن تقرص فخذه وتربّيه، لكنها تقرّر أن تبقي عينيها على صينية الفحمِ. لأن عليها أن تباشر العجن، وتساءلت كيف لها أن تطعم كل هذه الأفواه؟ حسين والطفلين وجيرانهم في «بيت العظيمي». ذهبت أحيانًا لشراء الخبز، استغرقها الوقوف في الطابور ثلاث ساعات، وهي لا تستطيع أن تترك طفليها كل هذا الوقت، ولا تستطيع أن تعتمد على حسين؛ زوجها عسكري، سوف يحصل على رصاصةٍ في الرأس إذا سارت الأمور على نحوٍ سيء.

قايضت الفرن بالخبز من بيت «العظيمي»، وصارت تمضي الساعات تعجنُ العجين، تصفّه على الصَّواني، ثم تدخله الفرن، كل واحدٍ من الرجال الذين تطعمهم -لأنَّ حسين يحبُّ أن يجمع الجيران في بيته- يستهلك أربعة أرغفة. كانت متعبة، لكنها لا تملك ترف الإحساس بالتّعب.

تسترق نظرة إلى يحيى المبتهج بعُريِه، يبحث عن الضَّوء في سردابٍ قاتم. كانت النافذة العلوية مغطاة بالشريط اللاصق، تنفذُ ضوءًا قليلًا. أماني تنام على فراشٍ أرضي، في فمها سلحفاة بلاستيكية. تنهض من مكانِها وتسمع طقطقة في ظهرها. قلبها في حِداد. تفتقدُ والديها، وتحمدُ الله أنهما مسافران، تتذكر عامر، اتصل بها صبيحة اليوم الأوّل وسألها بصوتٍ مشروخ، وبشيءٍ من القوة

المصطنعة، إن كانت بخير. مثل غيرِه ردّد عليها؛ أيّام ويغادرون، ويعود كل شيء إلى طبيعته، لكنّها تعرفُ بأنه لا يصدّق ما يقول، لأنَّ الحروف تثقل في فمِه عندما يكذب. ومنذ تلك اللحظة أحسَّت بأنها تفتقده كثيرًا، رغم أنّه كلب، و«ذيل الكلب ما يتعدّل».

لم يكن ينقصنا إلا احتلال. وجدت نفسها تبتسم، على نحوٍ حتى هي لم تفهمه. ثم ألقت نظرة على السّرداب؛ رواق الخيمة المسنود على الجدار الأيمن، الصبغ المتقشّر في السّقف، المروحة ووحدتيّ التكييف بالكادِ تنفثان الهواء. الهواء رطبٌ وثخين. على الجدارِ المقابل رُصّت أكياس الأرز، معلبات حليب كارنيشن، علب الفول والفاصوليا والذرة، أكياس الطحين، وكل ما يمكن تخزينه. لكنها لا تملك ما يكفي من أقراص منع الصَّرع ليحيى، وهو..

«لا يحيى لا!»، خيطٌ سائلٌ أصفر كان يثبُ من عضوه إلى منتصف السجادة. وبدا الفتى سعيدًا، مثل شخصٍ أحرز هدفًا في مرمى.

(١٠)

على أريكة غرفةِ الجلوس، تمدَّد نواف على ظهره دافنًا عينيه بساعدِهِ. رأسهُ قريبٌ من فخذ أمّه المتربعة بجانبه، مصحفها بين كفّيها تقرأ سورة البقرة للمرة التاسعة؟ العاشرة؟ جيوشٌ جرّارة من الملائكة، جنود الرّب، يتأهبون للانخراط في حربٍ مقدسة داخل رأسها. وفي رأسِ نوّاف نادية والكاميرا، يسمعها تسأله: «شفيك مو قادر تنام؟ مشتاق لي؟».

كان متعبًا. من العودةِ، من ثالوث الذنبِ والشوق والعار. دقيقة واحدة قضاها في شقّته جعلت القشرة الرقيقة التي يغلف بها ألمه تتصدّع. مثل كتكوتٍ خديجٍ كُسرت بيضته قبل أن يتهيأ لمجابهة العالم، والآن هناك الحرب، وكل هذا الجنون، وهو لا يستطيع الانتسابَ لما يحدث. شقيقه وزوجته يخرجان ويعودان بالأطعمة وقناني المياه والأخبار والإشاعات. لا أحد يطالبه بشيء. عطبهُ يمنحه حصانةً ما. مثل معتوهٍ أو قاصِر، يبتسمون له ملاطفين إذا قال شيئًا عاديًا، شيئًا من قبيل «وين راح طلال؟». يبدو لهم مثل

طفلٍ يتهجأ الكلامَ للتوّ. ويشعرُ بأنّه غير معنيّ بشيء، لكنه عندما يلصقُ أذنه بالراديو ويسمع: «سنجعل الكويت مقبرة لكلّ من تسوّل له نفسه الخيانة»، يتذكّر عامِر.

يلمحُ ابنته ممددة على بطنِها، ترسمُ حورية بحر وقبقب وقنافذ سوداء. ثم تنهضُ لتريه اللوحة، يضع يدهُ على رأسها لثانية أو أقل، يتساءل متى أصبحت الطفلة شديدة الشبه بأمّها؟

بدت له نادية دائمًا أجمل بكثير من طفلتها التي لم تحظ ببشرتها الحليبية وغمازتيها الرائعتين وشاماتِها. منابر حِنطية وممصوصة، مثل جخاخة مجففة. لكنه مذ عاد إلى البيت وهو يرى في وجهها وجه المرأة التي قتلها.

تذكر نوّاف، دونما سببٍ واضح، كم مرّة تشاجرا في السنوات الخالية لأنه أرادَ ولدًا (ولد اسمه بدر) أو دزينة أولاد إن كان صادقًا. لكنها كانت تقول؛ لا. كل يوم لا. ولا يوم واحد، ولا حتى لخاطر عينيه؛ نعَم. أحيانًا كانت تخترعُ أسبابًا بالطريقة نفسها التي تخترعُ فيها قصصها الغبية. نقص في الحديد، في الكالسيوم، في البطيخ. أوجاع في الرقبة والعمود الفقري. لا أريد طفلًا آخر. وحتى عندما كان يغضب، ويتأبط وسادته ويذهب للنوم في السِّرداب، لم يكن ذلك ليحدثَ فرقًا. وإن كانت في صباحِ اليوم التالي ستطبعُ قبلة أمومية على جبينه، وتدلّله بشيءٍ من الجبن والزيتون وحمسة القرنبيط على الفطور. ما لم يفهمه هو أنّها (العاهرة!) كانت تحبُّ الأطفال، تلاحقهم بعينيها في المجمعات التجارية، تقرص خدودهم كأنها تتعمّد إحراجه.

متمليًا في ساقيّ ابنته المتأرجحين وألوانها الشَّمعية، كان نوّاف لأوّل مرة ممتنًا لأنه لم ينجب طفلًا آخر، وعرفَ بأن هذا الكائن الأنثوي الهشّ كعيدانِ الأسنان، الذي هو ابنته، ليس أكثر من ورطة.

وسمع صوت نادية داخل رأسه: «أعزائي المشاهدين، انظروا جيدًا إلى هذا الوجه، هذا ما يبدو عليهِ الندم. والنَّدم هو الناتج الرياضي لجمع خطأ وخطأ. لكن بطل قصتنا عاجزٌ عن فهم بعض الأشياء، ويظنُّ أن بإمكانه أن يحيي ويميت مثل إله، دون عواقب».

ينخر؛ أي عواقِب؟

يرى أصابعها تقرّب العدسة من وجهه. تسأله:

- يعني موتي ما كفّاك؟

يهمس:

- لأ.

ثم يرفع رأسه ويسأل هدى:

- وين طلال؟

ها هي تبتسمُ على نحوٍ أبله للمرة الثانية، يعتريها الخجلُ عندما تخبره بأنه ذهب وفواز، مع بعض الجيران، لفكّ يافطات المنطقة، أسماء الشوارع، وأرقام المنازل. ثم تشرح بأن عليهم أن يحموا العسكريين في حال أغار الجيش العراقي على المنازل، وتقولُ بأن باصاتٍ كثيرة محمّلة بالمعتقلين في طريقها كل يوم إلى بغداد.

بطبيعة الحال، لم يخطر ببال طلال أن يعرض على أخيهِ مرافقتهم،

لم يطالبه أحد بأن يكونَ مفيدًا، بأن يسمو فوق حكايته. تنتفي كلّ القواعد عندما يتعلق الأمر به، فهم يعرفون بأنه عليل، ربما يحتاج الأمر إلى أكثر من احتلالٍ لكي يكفَّ الألم عن نهشهِ من الداخل. كما أنّه يعتقدُ، مثل آلافٍ غيره، أنها مسألة أيامٍ ويغادرون، ويعود كل شيء إلى ما كان عليهِ، قريبًا سترسل الحكومة دورية لإعادته إلى السّجن وينتهي هذا الفصل الهزليّ من حرّيته العبثية قبل أن يطيب خاطره.. ومع ذلك، ثمة شيء ينتفض في أعماقهِ كلما سمع ذلك الصوت على إذاعة بغداد يردد؛ «أيها الكويتيون النشامى الميامين صناع ثورة الثاني من آب». يتذكّر، وكأن الذكرى ما عادت تخصّه، إلى أي حدٍ كان معنيًا بعودة البرلمان. تلك كانت ثورته؛ قبل أن تُعطبه الخيانة. أما هذه الحرب؛ فهي محض نكتة، وكان الوحيد القادر على الضَّحك عليها.

- نواف؟

تقاطع هدى أفكاره، تقول بأن عشرات الاتصالات وردتها اليوم تسأل السؤال نفسه؛ نغادر أم نبقى؟ هدى تريد أن تبقى، وإذا كان يريد المغادرة فهي ستتفهم، لكنها تفضل أن تبقى مناير في رعايتها.

يمط نواف شفتيه ويرفع كتفيه:

- نبقى.

ولكن ليس لأجل الكويت، ولا لأجل الطفلة.

لديه مهمّة واحدة فقط، ومن بعدها فليذهب هذا العالم الداعر إلى الجحيم.

(١١)

«الله يساعدَك».

قال موظفُ الاستقبال وهو يعطي لعامِر مفتاح الغرفة، وتساءل عامِر إن كان الرَّجل يعنيها حقًا. حاول ألا يرفع عينيه إلى صورة الرئيس المترامية على امتداد الحائط؛ مرتديًا بذلة رمادية بربطة عنق قرمزية، مبتسمًا في فمه ومتوعّدًا في عينيه. بدا فولاذيًا إلى درجة خلَّفت في لسانِه مذاق الصّدأ. ها شخصٌ آخر يبدو واثقًا جدًا مما يقول، بآراء قطعية بشأن العالم، وقادرٌ على القتل. شعرَ بأنه مرئيٌ أكثر من اللازم، لكنّه ذكّر نفسه بأنه تافه وغير ضروري، بالكادِ يُرى.

كانت فرائصه تهتز. يريدُ جسده إعلان احتجاجاته. لا يصدّق أنه في بغداد، ليرى الحرب تترك ظلالها الكابية على الوجوه، ويرى الجدران وإضاءات الشوارع والأسوار ملطخة بصور الرئيس القائد؛ بالزيّ العسكري واللباس المدني، بالثوب العربي والغترة أحيانًا. عينان معدنيّتان وجبين عريضة مجعّدة قليلًا. بشرة لوّحتها

الشمس، ابتسامة تُضمر عُبوسًا فطريًا. وعيدًا نازلًا من السماء كأنَّه القصاص.

حوّل عامِر وجهه إلى قالبٍ من الجصّ. بدّل لهجته قليلًا وهو يتحدث مع موظف الجوازات، وسائق التاكسي، والصبيَّ ذي الشفة الأرنبية، الذي أصرَّ أن يحمل له حقيبته الوحيدة، الخالية تقريبًا، إلى الغرفة.

سرير ومنضدتان، مروحة معدنية ولمبة الأبجورة محروقة. دولابٌ خشبي يصرُّ كلما فتح مصراعيْه. تبدو غرفة طاعنة في السن، لكنها تحاولُ أن تبدو جديدة من أجله. تسمّر أمام النافذة يطلُّ على النَّهر. ألصقَ جبينه على الزجاج، رنا إلى دجلة خلف «جسر السَّنك»؛ نهرٌ طينيٌ عكِر. قواربُ خشبية تمخر عبابه، صيادون بصنارات على الضفاف، شجر شاحبٌ شحيح. لم يكن غريبًا على بغداد. زارها مرّتين في صِباه، وتساءل إن كانت تبدو له مثل مدينةٍ تخوض حربًا. ضدّ من؟ أحسَّ أن الحرب ضده شخصيًا، لكنه لا يفهم كيف يستطيع أن يطفو هكذا، مثل حشرةٍ نافقة على سطحِ الطوفان، أن يكون هنا دون أن يثير حفيظة أحد.

شيءٌ واحد يشغله هذه الأيام؛ فاطمة. تراها بخير؟ انقطعت الاتصالات الدولية منذ ثاني أيّام الاحتلال. طوال الأسبوع الماضي حاول الاتصال، كأنَّ أمرًا ما سوف يتغير، كأن صوتها سوف يأتيه مخترقًا قوانين الفيزياء والأسلاك الشائكة ومضادات الطائرات والدروع البشرية وغير البشرية. غدًا يراها. طمأن نفسه وهو يرى

ثلاث نسوةٍ يرتدين العباءات السود، يعبرنَ الجسر مع قبيلة أطفال. أوجعهُ قلبه.

أمس كان في القاهرة. ومثله مثل نوّاف، كان يعرفُ أن سنة قد مرت على ذلك اليوم، ويرى نادية مسجاة على بطنِها تطفو على الماء والليل. لسببٍ ما، ما زالت المجسّات في أطراف أصابعه تتذكّر ملمس بشرتها. لكن الذنب أعطبه حتى صارت أقصى أمانيه أن يموت. أن يموت متسممًا بالكحول والحبّ والخيانة، هكذا يجب.

وقرّر أن يُمضي تلك الليلة، ليلة الذكرى الأولى لمقتل نادية، حبيسًا في الفندق مع زجاجاتٍ تأخذ عقله إلى مكانٍ لا تصله الذاكرة، حيث لا ذنب ولا خطيئة. مجرد عدمٍ يطفو المرء في سديمهِ اللؤلؤيّ دون أن يعرف من هو وما هي حكايته. وكان كلّما أطلَّ من البلكونةِ ورأى «النيل» بعواماته، يشعرُ برئتيه تمتلئانِ بالماء. أمضى سنة يهربُ من نفسه. هجرَ البيت الذي عاش فيه طوال عمره جارًا لنواف. استغرقَ في السُّكر ومضاجعة نساء بيضاوات بشعرٍ قصير أسود، وغمازتين إن أمكن، يبكي على أكتافهنّ، يطردهنَّ في قلبِ الليل، يضربهن على وجوههن، أو يعتذر لهنَّ دون أن يمس منهنَّ إصبعًا. كأنه يحاول تغييرَ ما حدث، أو محوَه. إعادة الشَّريط على النحو الصحيح *«لا نادية، لا. أنا ما أحّبك، ولا عمري حبّيتك»*. لو كان ممكنًا أن تقال تلك الأكاذيب ثانية، وينقذ حياتها.

سجن ثلاث سنوات مع الشُّغل والنفاذ. لا يصدّق أن هذا هو ما تساويهِ حياتها. وكان قادرًا، في لحظاتٍ بعينها، على كرهِ نواف.

لكنَّ الخزي ما يلبث أن يرشح من مسامِه حتى يصبح الغضبُ امتيازًا لا حقّ له فيه. كانت الخطة هي أن يسكر. لا أقل ولا أكثر. لكنّه وجد الحياةَ تجرفهُ في طوفانها. قبل أن ينهي زجاجته الأولى عرفَ بأن الكويتَ مُحتلّة، وتغير كل شيء.

بعد أسبوعٍ من التقصّي، سمع أنه يستطيع العودة إلى الكويت عبر بغداد، وتساءل؛ ما المانع؟ بعد تغيير اسم البلاد من «دولة الكويت» إلى «جمهورية الكويت»، ثمّ إعلان ضمّها إلى الجمهورية العراقية، بناءً على طلب «الحكومة المؤقتة» -هذه التفاصيل تجعل دمهُ يفور- لأيّ سبب لن تسمح له السلطات العراقية بالعودة؟ خلال دقائق أجرى الحجوزات اللازمة؛ من القاهرة إلى عمّان، ومن عمّان إلى بغداد، غدًا يأخذ سيارة توصله إلى الكويت، ويرى أخته. لكنه هنا الآن، في بغداد يطلُّ على دجلة ويفكّر في ضياع الأشياء. يحسُّ بنادية تنبضُ في جبينه مثل عصبٍ متوتّر، مثل خلعٍ في الفك، مثل ضرسٍ منخور. ورغم أنه متعبٌ، آتٍ لتوّه من المطار، إلا أنه يعرفُ بأنه لا يستطيع المكوث مع نفسه دقيقة أخرى؛ ليس قبل أن يعود إلى الكويت.

نزل إلى الشّارع وسار على الأرصفة؛ ليس باتجاه شيء، بل هربًا من كلّ شيء. أتى عليهِ زمنٌ كان كلما حذَّر من «صدّام حسين» وُصمَ بالخيانة. اتضح الآن أنه على حق، لكنه لا يشعرُ بأي انتصار، بل بالخزي وحده. وفي جميع الأحوال، كان ذلك زمنًا يخصُّ شخصًا آخر، نسخة قديمة منه، قبل أن يتحوّل إلى هذا الشيء السَّكران. ولو

كان ما زال الشخص نفسه لما أمضى السَّنة الماضية في الطَّواف بين المواخير والحانات والفنادق، لا يطيق أرضه ولا بحره.

سار بمحاذاةِ شارع الرشيد، يهزُّ رأسه أمام مزامير سيارات الأجرة. يريد أن يمشي، أن يُنهك نفسه حتى يصير النوم ممكنًا فيما بعد، وأحسَّ بأن بغداد تشرّع أبوابها من أجله، لكنَّ أبوابه كانت كلها موصدة. امتلأ الهواء برائحة شواء، ضوءٌ يتكثف ويثقل مع كل خطوة. تناهى إليه صياح الباعة، وألحانٌ تتسلل من أجهزة المذياع، وغناءٌ و(كيف له أن يخطئ هذا الصوت؟) عزف عود. وتذكّر عودهُ. ليس العود الشّامي الذي اشتراه بعشرة دنانير عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، بل عودًا غاليًا من صنع العراقيّ محمد فاضل، اشتراه بخمسة وثمانين دينارًا عندما كان في سنته الجامعية الأولى. كم أحبَّ ذلك العود، والعدنيّات، وهندًا التي «يرقُّ منها المحيّا». رجفةٌ انتابت أصابعه.

وصل سوق الصَّدرية، سار بين الأكشاك وتملى في البضائع؛ بصل، باذنجان، بطيخة حمراء مفضوخة على الرّصيف.. سار يخترقُ الأجساد؛ زنخ اللحم وعبق الشواء والمعلاق والكباب، والرائحة الراكدُ للخضراوات في صناديقٍ من الفلين، أو طافية في طسوتِ ماء؛ فراولة، يقطين، عنب. التمر وجرار المخللات. وجد شيوخًا يتكئون على الأرصفة يشربون الشَّاي ثقيلًا، أحدهم يحتضن عوده يدندن: «وداعًا والذي راح بعد مَيْعود ثاني». يبتسم عامِر رغمًا عنه، يدندن: «كفاية تلومنا الناس على حزن الأغاني».

اللَّيل يهبطُ ناعمًا، السَّماء رؤوم. سمع قرقرة في معدته. دخل مطعمًا صغيرًا امتلأ بحشرٍ من الرجال؛ كلٌ يلامس كتف الآخر. غمامة مخضوضرة من دخان النارجيلة تطفو على الرؤوس. سديم ميتافيزيقي يقع فيما وراء الصَّواب والخطأ. مكان آمن للخاطئين والحمير. جلسَ إلى طاولة في الزاوية وطلبَ صحنًا من الكباب العراقي، ولبنًا بالنعناع. سرح في المكان؛ الشُّمغ البيضاء والسَّوداء، بقبقة الدُّهن في القدور، واللوحة الرخامية على الحائط كتب عليها بالخط الكوفي المذهّب؛ «هذا من فضلِ ربّي»، وتساءل أين يقفُ الرّب في حربٍ مثل هذه؟

أنهى طعامه، ترك الحساب على الطاولة وغادَر. استقل أول سيارة أجرة وذهب إلى مخزنٍ لبيع الكحول. اشترى زجاجتي ويسكي، فاليومُ خمرٌ وغدًا أمر.

سيسكرُ في بغداد هذه الليلة، وغدًا يعود إلى الكويت.

(١٢)

كان نواف هو الوحيد الذي يضحك.

على شاشة التلفزيون، حيث تحوّلت القناة الأولى إلى «تلفزيون حكومة الكويت الحرة المؤقتة»، ظهر رجلٌ يرتدي دشداشة شَد زئبقية اللون، بتطريز أبيض على حوافّ الياقة. طلال! تعال شوف «النَّسفة». يشير نواف إلى الطيّة المثّلثة للغترة، توشك أن تلامس حاجبي المذيع، منبعجة ومائلة إلى اليسار. يلتقط جهاز الريموت ويرفع الصّوت: «أيّها المواطنون في كويتنا الغالية، أيها العرب الشُّرفاء في كلّ مكان. إعادة بيان تشكيل الحكومة المؤقتة». أصابعه تشيرُ ببذاءة إلى المذيع، من فوق رأس أمه.

ما زال طلال عاجزًا عن هضم الحقائق الجديدة، ولا يعرف كيف سيرمّم هشيم الأفكار التي آمن بها ونادى بها وخوزقته. نواف، في المقابل، كان قادرًا على الضَّحك. فيما العجوز تدعو على المذيع بعذاب القبر وعذاب جهنّم وفتنة المحيا والمات، يمتلئ رأسها بكتائب من ملائكة العذاب وتتخيل سيناريوهات

إلهية تنقذ الموقف؛ منذ جيش الجراد مرورًا بانشقاق البحرِ وحتى الطوفان. هذا العالم فسد أكثر مما يجب على أي حال، وهو بحاجة إلى طوفانٍ لتطهيره. وكانت قد بدأت تفكّر بأن السَّبب الحقيقي للاحتلال هو الذنوب، وفي تلك اللحظة لم يخطر ببالها سوى نادية.

نادية، وأمثالها.. هم السَّبب.

وحده نواف يستطيع رؤية النكتة في قاعِ النكبة، كمن يجد متعة في التفرج على مسرحية رديئة، لأنها رديئة. سمعيهِ يمّه شلون يقول «حسين».. الرائد عصام عبدالمجيد حسيين.. يضيف وهو يهزُّ رأسه. لاحظي شلون قال «جلال».. جيمٌ رخوة، سمعتيه يمّه؟ تعاود الأم رفع رأسها: «تخلخت حلوجه عمت عينه». يضحك نواف: «فكنا من هالشّيفة! ماحب أشوفهم».

ينتقل إلى القناة الثانية. تهتف مناير مبتهجة لعرض حلقة من «مغامرات السندباد»، ورغم أن فواز أثبتَ لها -مستشهدًا بشارة بداية المسلسل وبالجزء الثالث من ألف ليلة وليلة- بأن السِّندباد عراقي، وبغدادي حتى، إلا أنها كانت مصرّة على موقفها الرُّخو وغير الوطني. والحقيقة أن الفتى كان يطيب له أن يتفرج على الحلقات أحيانًا، إذ من السَّهل أن تجذبك حكايات مليئة بالعفاريت وطيور الرُّخ وأودية الماس، وفكّر نواف بأن الإنسان عاديٌّ على نحوٍ لا يغتفر، والأيام بدأت تشبه نفسها، وكان من عادة عقلهِ عندما يشردُ هكذا، أن يأخذهُ إلى عامِر، فتساءل أين هو، وبدأ يحسُّ

بعبثية كل شيء؛ الاحتلالُ والجنود في نقاط السيطرة، الإشاعات والأدرينالين، وانتظار فرصة مناسبة لتصحيح اعتوار الأشياء..

ولسبب غامض، أحسَّ نفسه فزّاعة؛ دمية محشوة بالقشّ لا تصلح حتى لإفزاع الزرازير، وتساءل ما الذي عليهِ فعله لكي يعود إلى الاكتراث، ليس بشأن ابنته فقط، بل والسياسة أيضًا. لقد انتُزعت حقيقته منه تقريبًا، حتى وجد نفسه طافيًا خارج السِّياقات؛ العام منها والشخصي أيضًا. كانت رؤيته يقبّلها تلك الليلة قد ألحقت به عاهة داخلية. ولم يسنح لأيّهم أن يكتشف، حتى الآن، حقيقة الوحش البارد الذي صاره. لكنه وحده يعرف، وهو يرى شقيقه يطلق الشتائم النابية منذ أيام بسبب تأخر صدور بيانات بالإدانات العربية. منذ الصباح وطلال يسأله: «شنو يعني؟» كل تلك السنوات التي حاربنا فيها ضد تدخل الأمريكان، كل تلك المظاهرات الطلابية ضد بناء قواعد عسكرية في الخليج.. «عشان شنو؟!»، يضحكُ حتى يحتقن وجهه ويتساءل نواف ماذا دهاه، ومن هو الآن؟

في مساء ذلك اليوم تسلّل من البيت ملثمًا بغترته، مرتديًا نعله المطاطية والدشداشة البيتية. سارَ بمحاذاةِ بيوت الجيران؛ أسوار معدنية، جدران من الآجر الأصفر، إضاءات شوارع مغمضة، سدرٌ شاحبٌ ونخيل. عيناهُ مثبتتان على البيتِ الثالث إلى اليمين. يعرفُ أنه مهجور، غادرته العائلة منذ الحادثة. أخبرته هدى بأنها كانت عائدة من السُّوق في أحد الأيام عندما رأت سيارتي هاف لوري

تحملان أثاثًا تعرفه جيدًا. الأرائك التي جلست عليها لساعات، جمعات «شاي الضّحى» مع فاطمة وأختيها، الوسائد المقلّمة بالأزرق والزعفراني. الأم والأب، البنات والابن، كلهم غادروا. تساءل نواف أي نوعٍ من الشتائم كالها الأب لولده الذي سوّد وجهه حتى خرج من حيّهم مجللًا بالعار، فيما هو يكابد أسئلة محقّقي النيابة، ويرى الأصفاد توضع على يديه، ويحصد طبطباتٍ على كتفيه، ثم ينتهي به الأمر في السجن ويمتلئ رأسه بكلمات صدّاحة ذات أصداء؛ شرف العائلة. كرامة الرّجل.. ويسمع نادية تضحك؛ أي رجل تقصد؟ ويشعرُ بنفسه دميمًا مثل جرذ. كيف يستعيد المرء رجولته إذا تركته زوجته نائمًا (أو هكذا تخيلت) وسارت إلى سرير (لو أنه تأخر قليلًا) صاحبه؟ أي نوعٍ من الأشياء فكّر بها عامِر وهو يعتصر عنقها ويتحسس بشرتها؟ تراهُ قال لنفسه بأنَّه هو، نوّاف، لا يكفيها؟

- لا تغيّر الموضوع..

يلتفت خلفه فيراها، كاميرا الفيديو مثبتة إلى ظهره، ولكنها أيضًا داخل رأسه. يسألها: «شنو الموضوع؟» فتسأله:

- إنت أصلًا حبّيتني؟

يبصقُ نوّاف على الرّصيف، يبشُّ وجهها ضاحكًا.

- إنتي ما تستاهلين الحُب.

- وليش هذا كلّه؟

لأنه لا يفترض بالرجل أن يرى زوجته في حضن رجلٍ آخر، لاسيما صديق عمره. الأمر بهذه البساطة.

رفع عينيه إلى البيت. الأضواء مطفأة، السُّوسُ ينخرُ النخلات، في الأصصُ بقايا متفحّمة لما كان في يومٍ ما ريحانًا. الصَّدأ ينتشر كالطَّفح على البوابة. الطلاء الأسود تقشّر وظهر أسفله سطحٌ متعفّن أخضر. هل سيكون جنونًا أن يتسلّق السور؟ فعلها مليًا في صِباه، تسلّق أسوارًا وجدرانًا، وتسلل إلى نوافذِ البناتِ، وكان يشعرُ وقتها بأنه قادرٌ على أيّ وكل شيء. ما زال، داخل رأسه على الأقل، قادرًا على أي وكل شيء. ألم يقتلها؟

لو أنهم تركوا ناطورًا يدلّهُ على مكانِه. هدى تحلفُ بأنه خارج الكويت، لكنه يعرف بأنّها تحاول حمايته فحسب. لا أحد يستطيع حمايته من نفسه، ولا حتى هو. وهو يعرفُ الآن بأن الأشياء السيئة تحدث فعلًا؛ الحروب، الأوبئة، والخيانات الزوجية. إنها تحدث لنا أيضًا، وليس لآخرين على الطرف الآخر من الشارع.

يعودُ نواف أدراجه. فالمكان، كما قالت له هدى، مهجور فعلًا، مهجور منذ سنة، وعامر (الجبان الخسيس وشتائم أخرى) لا أثر له، لكن صوتًا في داخله، صوتًا أزليًا تقريبًا، أخبرهُ بأنّه سيراهُ قريبًا، كما لو أن ثمة حبلًا سريًّا، يربطه به ويجعل فكاكهما مستحيلًا، كأنَّ عامر، رغم كل شيء، ما زال نصفه الآخر.

(١٣)

من گراج «النهضة» ببغداد، استقلَّ عامر توصيلة تعيدهُ إلى الكويت.

أمضى ساعات في الصّمت، باستثناء تبادل الحدِّ الأدنى من الكلمات مع السَّائق الذي اتضح أنّه يحب «جاسم يعقوب» و«فتحي كميل» ويحلم بامتلاك فانيلة المنتخب الكويتي من عام ١٩٨٢، ويعقد المقارنات بين لاعبيه والنَّجمين العراقيين «حسين سعيد» و«فلاح حسن». التفّت الأحاديث بحذرٍ حول السَّياسة، لكنها خاضت في الرِّياضة دون تحفّظ، لا سيما عند الحديث عن مشاركة المنتخب الكويتي في كأس العالم. كان السائق يحفظ الأغنية أيضًا: «سمر الملاعب غنَّوا اليامال»، وعامِر يعرفُ اليامال ويعرفُ البحر، يعرفُه إلى الحد الذي لا يريد معه أن يعرف.

رأى عامر بساتين متباعدة لدى مروره بـ«الحلّة» و«الديوانية»، أرتالُ نخلٍ باسقة تلوح من بعيد، ثم امتدّت الصحراء هجيرًا من يبابٍ مصفرّ. على مشارف «الناصرية» رملٌ شاحبٌ يتموج، أثل

وعرفج. رأى أحيانًا، على حدود «البصرة» شعلات نارية لمصافي وحقول نفطٍ في عُمق الصحراء. ثمَّ رأى حدود بلاده، دون أن يصدّق عينيه، وأحسَّ بالعرفج ينبتُ في حلقه.

تحوَّل الاحتلال من فكرة مجرّدة إلى واقعٍ محسوس عندما رأى عامِر تلك الدبّابات السوفيتية تفتضُّ الشوارع، آليات نقل جنود ومدرعات، خوَذ وكلاشنكوف، حواجز عسكرية نابتة من اللا مكان مثل عفن الخبز والكمأ وفطريات الأقدام، سيّارات محترقة ومقلوبة على قفاها، ولاحقًا؛ شعاراتُ الحرية مكتوبة بأصباغ الرَّش على الجدران. بمجرد دخولهم الحدود الكويتية، ما كان في السَّابق حدودًا كويتية، علقت ملامحه في مكانٍ ما بين التبسّم والتجهّم، عاجزة عن الذهاب بأيهما حتى نهايته. ورأى بلادهُ؛ رماديّة مُتربة مرضوضة مثقوبة. وصار يردّدُ عاجزًا: «لا حول ولا قوة إلا الله»، وترقرق الدمع في عينيه، في حين تحوَّل السَّائق العراقيُّ إلى تمثال، إلى شاهدٍ أعمى على نكبته.

ورغم أنه كان قد غادَر الكويت، في الوقت الذي رفعت فيه الحكومة هراواتها على الشعب الذي تظاهر ضد تعطيل الدستور وحلّ البرلمان، قبل أشهر من الاحتلال، وأنه في تلك الأيام قرّر أنه لا يمكن لهذا الوطن أن يؤلمه أكثر، إلا أنه يعرفُ الآن بأنه على خطأ، وأنه قد لا يكون هناك شفاءٌ حقيقيّ من هذا الشيء الذي يسمونه وطنًا.

لقد غادَر بغداد مع الفجر، وفي رأسهِ صداعٌ وبواقي ثمل،

ورأى قرص الشمس معلّقًا فوق الأرض بأصبعين؛ لطخٌ نحاسية تملأ السماء. وعند الظهيرة وصل إلى شوارع يعرفها، بدأ يوجّه السائق (بصوتٍ مبحوح) إلى بيتِ أخته؛ يمين، يمين أخرى، يسار. لم ينبس أيهما بكلمةٍ عندما مرّا بمدرّعة محترقة على الشارع العام. وأمام كل نقطة سيطرة، كان يكفي أن يتحدث السائق مع الجنود لكي لا يضطر هو إلى قول شيء. الكثير من «الله يساعدك» و«تفضّل عيني». ثمَّ وصل.

رنَّ الجرس، وانتظر.

لأول مرة يحسُّ عامر بأنه حيث ينبغي أن يكون.

(١٤)

وقفت فاطمة أمام إحدى بسطات بيع الخضار تشيرُ إلى صندوق البصل تنهر البائع: «خمس دنانير! ليش إن شا الله؟» تضاعف سعر البصل أكثر من خمس مرّات في غضون شهر. «عطني من الآخر. آخذه منك بثلاثة». كانت تساوم كما اعتادت؛ احتلال أو لا. قوانين السُّوق لا تتغير. «السِّعر واحد خيْتي»، يردُّ البائع. يرتدي كوفية بيضاء وسوداء، عقالًا غليظًا. ثوبًا سماويًا خفيفًا. بذقنٍ مهملة وشاربٍ كثّ. «ياهو اللي ينطيك أقل من عندي، تجيلي وأنطيك البصل بلاش». أخرجت الدنانير من محفظتها المهترئة وألقت بها أمام البائع.

تسأله:

- خويا ما سمعت عن قرار الريّس بإعدام اللي يتاجر بالأغذية؟

ينظرُ إليها مندهشًا، من اللهجة التي تجيدها والابتسامة «الكلاوچية» على شفتيها. هكذا تخيّلت ابتسامتها؛ شيء متوعّد لكنه غير جادٍ بالمرّة.

- والله خسارة عليَّ.

يعتذر البائعُ ضاحكًا وهو يسلّمها صندوق البصل. «ما تردين شي ثاني؟» تسأله: «كيلو البطاط چـم سعره؟»، يزمُّ فمه على سبيل الاعتذار: «خمس دنانير بعد». تغضب: «البطاط كان سعره دينار! أقل من دينار». تضع البصل في كيس بلاستيكي وتمضي رافعة كفّيها. «الله عَ الظالم». تخترق زحامَ الأجساد. حبيبات العرق ترشح من مسامِ أنفِها. آسيويون، كويتيون، عراقيون عساكر ومدنيون، فلسطينيون. تسمع امرأة تصيح: «محمّد! يا محمّد!»، أضاعت المسكينة طفلها وكلما صاحت «يا محمد» التفتَ السوق كلّه. تتسمّر فاطمة مكانها، تنتظر أن تعثر الأم المفجوعة على ولدِها. تناديه هذه المرّة: «حمّودي!»، ثوانٍ ويقترب منها رجلٌ قابضًا على يدِ طفل مذعور؛ مخاطُ أنفه الشَّفاف يسيل حتى شفتيه. يفلتُ الطفل يد الرجل ويركض إلى أمّه. تتنهد فاطمة وتمضي في طريقها.

تسقط البلادُ في ظرف أيام لكن السوق باقٍ. عالمٌ رجراج وأبديٌّ. تتزاحمُ في أنفها زوائح العرقِ والخضراوات والسَّمك المقدد. رائحة كابية مخضوضرة. نُثر فلّين على الأرض، قراطيس وقشور برتقال. يقف الناس بمحاذاةِ الشوارع يبيعون الجبنة، معلبات الفول والحمّص، أجهزة الفيديو المستعملة، أشرطة أفلام. عند أحد البسطات، وجدت علبة كيوي بخمسة عشر دينارًا، وكيس باذنجان بعشرين دينار. كانت تصيح في وجهِ البائعين «ما سمعتوا الرّيس ديقول رح نعدم كلمن يتاجر بالأغذية؟»، كأنَّ

استخدامها للهجة العراقية يعطيها حقّ الصراخ، ليس دائمًا، لكن غالبًا.

اشترت لبنة وزيتًا للقلي. عدّلت وضع عباءتها على رأسها وسارت تخترقُ الأجساد. جنود الجيش الشعبي يترنَّحون من الحر، يستظلون بالمحال، يقبضون على رشاشاتهم كالأطفال التائهين. لمحت على طرفِ الشارع رجلًا يرتدي الدشداشة ويتمنطق بحزامٍ من رصاص. تقرر أن تبقي عينيها على الأرض؛ أعقاب سجائر، بُصاق. قططٌ ضالّة وكلاب سائبة تتشمّم الأرصفة. للريحِ طعمُ الرماد. على الرّصيف المقابل للسوق، رأت أرتال سياراتٍ بلا إطارات، مصفوفة بجانبِ بعضها.

- فاطمة؟

سمعت صوتًا وراءها. التفتت وشهقت: هدى!

كانت ملامحها متورّمة، وبطنها كرة متدلّية بين قدميها، بالكاد تلتقط أنفاسها وتبدو على وشكِ الولادة في أي لحظة. وتذكّرت عامر؛ ما فعله تلك الليلة، العارُ والحرامُ والدم. نكّست عينيها: «شلونكم هدى، شخباركم؟»، لا تدري إلى أي حدٍ تستطيع أن تذهب بأسئلتها.

تنظرُ هدى عميقًا إلى عينيها، تضغط يدها قليلًا عندما تصافحها. تريدُ أن تذكرها بأنَّها صديقتها منذ الثانوية العامة، لن تأخذها بجريرة أخيها مهما فعل. تتبادل معها الكلمات المعتادة؛ الحمد لله، خالتي بصحّة وعافية، والأطفال بخير. تسألها عن يحيى،

عن أماني وحسين. تتحاشى ذِكر عامر. تبدأ فاطمة في الابتسام، يخلع وجهها تلك القشرة المتصلّبة من التوجّس، وتظهر الغضونُ حول عينيها، تبدو عجفاء مثل عجوز في عقدِها الثالث. تسألها هدى «محتاجة شي؟ ناقصك شي؟»، وتهزُّ فاطمة رأسها: «مستورين الحمد لله». تلاحقُ بعينيها ذبابًا يدوّمُ فوق رأس قرنبيط، تشير إلى الذباب وتغمغم: «ترسوا الديرة الله يقطعهم». تبتسمُ فاطمة. تقبّل الواحدة وجنتيّ الأخرى وتنصرفان.

تعبر هدى الشارع، تلاحقها فاطمة بعينيها وهي تبتعد خطوتين، ثلاث خطوات، أربعًا، تبدو متعبة وهي تسند ظهرها بكف وبطنها المتدليّة بكف، أكياس الخضار معلّقة على معصميها.

وفجأة قررت أن تناديها.

- أم فوّاز!

تلتفت هدى خلفها، ترى يد فاطمة تلوّح لها لتعود إلى الرّصيف:

- أبيـج بكلمة راس..

(١٥)

كانت مناير تشعرُ بالوحدة، وقد أصبحت شفّافة بالكامِل، تكاد تنفذُ عبر الجدران. تفاقم الأمر بعد أن تسلَّلت إلى غرفتها في الطابق العلويّ، وزحفت إلى درجِ الكومدينة، وعثرت على صورة أمها. كانت تبحثُ عن قلم تلوينٍ شمعيّ ولم تحسب حسابَ رؤية وجه نادية بعد سنة من اختفائها. قبضت مناير على الصورة وتمدَّدت على بطنِها أسفل السرير، لا تعرف أيهم تخافُ أكثر؛ الجنود في الخارج أم جدّتها لو عرفت. خلال دقائق غشيها نعاسٌ حليبيٌّ عميم واستغرقت في النوم.

في يدها القابضة على الصُّورة، كانت نادية تطوّق عنقها بساعدها وتريح ذقنها على رأسها. لا تزال مناير تتذكر، أو تتخيّل أنها تتذكّر، إحساس التصاق ذقن أمها برأسها. الحمامُ على الأكتاف، بين قدميها، وفي الهواء؛ ريشٌ فضيّ وأبيض، فيروزيّ وقرمزي. مناير تقبضُ على حبوب الشعير وتمدُّ يدها في الهواء، وتبدو عيناها ذاهلتين. فيما تنظر نادية إلى عدسة الكاميرا، إلى نواف. لها ابتسامةٌ

مثالية، يتحوّل التقوّس في شفتها العليا إلى جناحيّ فراشة، أو قلب حُب. منايِر أيضًا كانت تبتسم، ليس على ذلك النّحو المثالي، بل على نحوٍ آخر، كمن مسّه شيءٌ من المطلق، بعينين ترنوان إلى أعلى. كانت ترتدي معطفها الأحمر الذي تحبّه، وقد ارتدت أمها حذاءً بعنقٍ طويل، ومعطفًا أبيض يصل إلى منتصف فخذيها، داخله فراء أرانب. خصلة من شعرها تحجبُ عينها اليسرى. بمجرد أن تنظر إلى الصُّورة كانت منايِر تسمع ضحكات أطفال، زمامير سيارات أجرة، باصات حمراء، وتشمُّ في الهواء رائحة حلوة؛ مطرٌ وشيك، ريشٌ وأم.

ثم يلعلعُ الرَّصاص في الخارج وتستيقظ منايِر، تحسُّ بالألمِ المدبّب يجرحُ سقف حلقِها، تزحفُ إلى دولابِها تبحث عن حقيبةٍ صغيرة. تتساءل إن كان أحدهم قد فطن إلى اختفائها، لأنها تنسى أحيانًا كم هي لا مرئية. وعرفت بأنها صارت تخافُ توبيخ الكبار أكثر مما تخاف دويّ الرصاص، وتبدو القنابل والأسلحة الكيماوية والبيولوجية مثل بقية المخلوقات التي اخترعها الكبار للإبقاء على الأطفال في المنازل، مثل «حمارة القايلة» و«الطنطل» و«أم السَّعف والليف».

والحقيقة أن الكبار يغيّرون الحقائق بحسب أمزجتهم. إنهم يجعلون الكائنات توجدُ وتختفي، فلتوجد «حمارة القايلة» لبعض الوقت، ولتختفِ نادية. ربما كانت هناك جنية في فتحات التكييف، وقبيلة من العفاريت في سدرة بيت الجيران، وربما توجد جيوش الملائكة في رأسِ الجدة، وربما لم يوجد السندباد البحريُّ قط.

عندما عادت إلى السّرداب، تأكدت مما كانت تعرفه أصلًا؛ أنها طفلة غير مرئية، لم يفطن أحدٌ لغيابِها. كان غشاءُ النعاس الشّفيف ما زال يغلفها، وبدت مثل جنينٍ يطفو في سائلٍ غروي، محلول لتحنيطِ الخدّج. ستفكّر منابر في تلك الاستعارات عندما تكبر. لكنها في تلك اللحظة كانت مجرد طفلة عادية تريد أمها.

لم يفهم أحدٌ ما حدث في ذلك اليوم.

رفضت منابر أن تتكلّم، أمضت أيّامًا ممددة على ظهرها تشخصُ في السَّقف عاجزة عن مزاولة الحياة. بالكادِ تأكل. كلما ناداها أحد أخفت رأسها تحت اللحافِ مثلَ زبوطٍ يتوغل في قوقعته. جدّتها تحسَّست جبينها؛ لا حُمّى. لكنها عليلةٌ في قلبها. أحيانًا ترسمُ بفتورٍ أصدافًا وقواقع، وأحيانًا تنصتُ إلى هدى وهي تقصُّ عليها الحكايات، لكنها في المجمل كانت تتمنى الموت، وصرخت مرّة بأنها تريدُ «دايا»، لأن أحدًا لا يعد المعكرونة مثلها، لكنَّ «دايا» سافرت وانتهى بها الأمر في مخيّم للنازحين في عمّان. تستطيع منابر أن تردِّد اسم «دايا» بقدرِ ما تريد، لكنها لا تستطيع لفظ اسم نادية، والصورة مطوية جيدًا ومخبأة في جيبِ الحقيبة. تعرفُ بأن عليها إخفاءها دون أن تفهم سببًا لذلك.

في ساعاتٍ بعينها، كانت تفكّر بأن الحلَّ هو أن تمرض، أن تمرض حتى تلامس تخوم الموت، متأكدة بأن سببًا مثل هذا سيجعل أمها تعود، لتضع راحتها على جبينها فتلمسها وتتأكدُ بأنها حقيقية، أكثر من الأسلحة الكيماوية حتى. أحيانًا كانت تترنّمُ، هامسةً لكيلا

يسمعها أحد (خاصة الجدة!) بالأغنيات التي رقصت عليها في مسرح الروضة وسط دموع نادية، بعد أن تلصق قوقعة ناب الفيل بأذنها «إذا مرضتُ تسهرُ، إذا نجحتُ تفخرُ، حنانها وأذكرهُ، أمّي لها محبّتي». وتتساءل أي ضربٍ من الحيل عليها أن تأتيه لكي تكفَّ نادية عن ترحالها؟

في تلك الليلة عندما أطفئت الأنوار، رأت مناير مرة أخرى ظلالًا في الليل، وسمعت جؤارَ ذئاب، وصار جسدها يرقصُ من تلقاء نفسه؛ اهتزازاتٌ مجنونة. هدى تضمُّها وتبسمل، فواز يضمّخ وجهها بالماء ويردّد «قومي نلعب منّورة، يالله قومي». ولم تفهم مناير لماذا اكتفى والدها بالوقوفِ عند عتبة الباب، لماذا لم يبلل وجهها بالماء، أو يلمس جبينها براحته. وقفَ بعيدًا؛ بينه وبينها بحورٌ وأودية، يعتصر وجهه ثم يلكم دعامة الباب. يسأل هدى بين لحظة وأخرى: «شلونها ألحين؟» وتشعر مناير بأنه يكرهها لأنها جعلته يقلق، وأنها طفلة سيئة، وتتمنى أن تموت حتى تكفَّ عن إزعاجه.

تصوّب هدى عينيها إلى نواف، تحدّقُ فيه ناقمة. لكن لا أحد يقولُ شيئًا. لا أحَد.

(١٦)

في مساءِ اليوم التالي عاد طلال من صلاة العصر في المسجد ليضع أمامَ مناير هُريرةً صغيرة.

هريرة حقيقية، تموءُ وتخرخر.

يتوهّجَ شيءٌ في صدرِ مناير. تُخرجُ رأسها من اللّحاف. عيناها واسعتان وفكُّها متدلٍ... تزحفُ إلى الهريرة، تمسّدُ رأسها، جسدُ القطيطة يرتعدُ، أذناها تهتزان. لم تكن بيضاء بلطخةٍ سوداء على رأسِها، كما تخيلتها طوال عمرها، بل صهباء بأذنين بيضاوين، وكانت أجمل شيءٍ في العالم.

قالَ طلال بأنه وجدها تموءُ بين أزواج النَّعل عند مدخل المسجد، وانتظر أن تأتي القطة الأم لالتقاطها، ثم تأكد بأنها وحيدة. تشعرُ منايرِ الآن بأنها عثرت على أخت. أكثر من أخت؛ على توأمها المفقود.

يحاول طلال أن يشرح؛ أمّهات القطط يتنقّلن من مكانٍ إلى

آخر لحمايةِ الصِّغار. تحملُ الأمُّ الهريرات واحدة بعد الأخرى إلى المخبأ الجديد، وأحيانًا تنسى واحدة، أو تدهس سيارةٌ القطة الأم ولا يعود أحدٌ لأجل الصغار. تحسُّ مناير ببرودةٍ في عينيها. تربّتُ على رأس القطيطةِ وتقرّر؛ سأكون أمّها.

العجوز لا تخفي قرفها: «وإذا وسّخت المكان؟».

تقسمُ مناير: «أنا أنظّف».

تقول العجوزُ بأنها ستلقي بها في الشارع إذا تبرزت على سجادة صلاتِها. تومئ مناير؛ إنها توافق على الشرط.

نواف لا ينبس بكلمة. كأنه ينظر إلى ابنته عبر فاترينا زجاجية.

هدى تسأل: «مستانسة منّورة؟».

تهزُّ رأسها. نعم، هي سعيدة أكثر مما تخيلت أنها ستكون، رغم أن جلَّ ما كانت تتمناه حتى اللحظة هو أن تموت. أحيانًا كل ما يتطلبه الأمر هو هريرة صغيرة لكي يصبح كل شيء على ما يُرام. يقترب فواز ويقعي بجانبِ الهريرة ويمسّح أذنيها، يهمس؛ سنطعمها من معلبات التونة اليوم، أظن بأن لدينا طعامًا للقطط في الفرع، اليوم أتأكد. ثم يرفع رأسه إلى أمّه يسألها؛ عادي نعطيها حليب كارنيشن؟ تضحك هدى؛ لا طبعًا. يعود فواز ليداعِب عنق الهريرة، راحت تخرخرُ. ثم ينظرُ في وجهها ويرى تكتّلاتٍ صلبة تغطّي جفنيها. يرفع رأسها قليلًا، عيناها باللون الليلكيّ الشاحِب، زوائد لحمية من الجفن بارزة من جهة الأنف، بالكاد يرى بؤبؤين في حدقتيها.

- يبه؟

يستدعي فواز انتباه والده.

يومئ طلال بأسى؛

أظنُّ أنها عمياء.

الفصل الثالث

السِّندبادان

(١)

في ليلة الثاني من سبتمبر ٩٠، بعد مرورِ شهرٍ على الاحتلال، صعد الأهالي إلى سطوحِ بيوتهم كما وردت التعليمات في منشورات «الصمود الشعبي»؛ في وقت واحدٍ يصعد الناسُ إلى السُّطوح ويكبّرون لنصف ساعة. حضّرت العائلة نفسها لهذه المناسبة، وتشوّقت مناير للأمرِ، إذ لم يحدث في تاريخ العائلة أن صعد جميع أفرادِها إلى السطح، وكان السَّطح دائمًا حيّزًا حصريًا لدايا. كان الأمر أشبه بالذهاب في رحلة. لكنَّ الأمور لم تجرِ بحسب الخطة، لأن هدى وقبل أن تبلغ نهاية الدَّرج تبوّلت على نفسها، أو هكذا ظنّت مناير. ثم راحت تصرخ وكأنّها رأت صرصورًا، أو هكذا ظنت مناير. وشرعت العجوز تنادي: «طلال! يا طلال!» وكان ما زال يصعد الدرجات على أقل من مهله. سمعت مناير جدتها تقول شيئًا غريبًا: «انبطّ كيس الماي!». وعرفت بأن حدسها كان في محله، أن في بطنِ هدى بحرًا، وفي البحر سمكة تلبط، لكنَّ البحر انسكبَ الآن وهذه مصيبة.

خلال دقيقة شبكت هدى يديها بيديّ زوجها وولدها، وصارت تنزلُ الدرجات وتبتهل مرتعشة الذقن دامعة العينين، صوتها ارتجفَ قليلًا، وأصابعها أيضًا. وكانت مناير تظنُّ بأن هدى لا يمكن أن ترتجف.

في صباح اليوم التالي، عادت هدى إلى البيت مع وليدة ضئيلة حمراء تشبهُ دجاجةً مسلوقة، وكانت بطنها قد تحوّلت من كرةٍ متصلّبة إلى كيسٍ رخوٍ من الهلام، وازدادت العائلة واحدًة جديدة.

لم تكن العجوزُ تسمحُ لولديْها بتوريث اسمها إلى المواليد. كانت تتطيّر من أمرٍ كهذا، تراهُ علامةً على دنوّ الأجل. ستفكّر مناير لاحقًا بأن جدّتها لا بدَّ وأن تكون مولعة بالحياة كثيرًا لكي تفكّر على هذا النّحو. «إذا متّ سمّوا عليّ لين تشبعون». كانت تقول، تقصد الأمرين معًا؛ التسمية والبسملة. وهكذا احتال كلٌ من طلال ونواف على أمّهما للعثور على اسمٍ يتمسّح بها، تحُلّ عليه بركته دون أن يكدّر خاطرها. سمى نواف طفلته مناير، وسمى طلال طفلته التي تشبه زبوطًا بلا قوقعة؛ «نورة». في ذلك الصَّباح نظرت الجدة إلى طلال بنصفِ عينٍ ونصفِ ابتسامة. «من كانت له حيلة فليحتال»، قالت وهي تتناولُ الوليدة من كنّتها، «بسم الله الرحمن الرحيم». تقبّل جبينها، تشمُّها وتهدهدُها: «صباحك صبّاحي.. الوردِ والتّفاحي». أُخِذت مناير تمامًا، أمام رضيعة بطول شبرٍ ونصف، ملفوفة بقماطٍ مثل دودة أرض، مغمضة ودميمة تقريبًا، لكنّها سحرية، لأن كل من يراها يبتسم.

«عادي أشيلها؟».

سألت مناير، فطلبت منها هدى أن تتربّع، ووضعت المولودة في حجرها، وعلّمتها أن تسند عنقها بيد، وبالأخرى استطاعت أن تمسح على جبينِها الذي امتلأ بالقشور، وأدهشها أنَّ الرضيعة كانت بلا رموش. وعندما أزالت هدى طاقية رأسها، اتضح أنها شبه صلعاء، لكنها مشعرة قليلًا في زنديها، ثم أخذت الوليدة تفتحُ ثغرها وتقفله مثل سمكةٍ ذهبيّةٍ في حوض، وأطلقت مواءً مضحكًا، فقالت هدى بأنها تريد أن ترضع، وحملتها إلى حجرتها تتبعها مناير، تراقبها وهي تفتح زرّيها العلويين وتلقم الوليدة حُلمتها.

منذ ذلك اليوم، صارَ اسم الغرفةِ الجانبية: «غرفة النِّفاس». وباتت شبه محرّمة على جنس الرّجال، وإن كانت قوانين الجدة تُكسر أحيانًا. لكنها في المجمل تخصُّ النفساء، والوليدة الدميمة الحمراء، ومنايِر، والهريرة العمياء.. إذا لم تكن العجوزُ منتبهة.

أنزلَ كلٌّ من طلال ونواف سريرًا كبيرًا إلى غرفة النفاس، كما جاءوا بسريرٍ للطفلة من السَّطح، كان لفواز عند ولادته. رغم أن مناير لا تستطع أن تتخيل ابن عمّها ضئيلًا جدًا مثل كتكوت منتوف. ومنذ اليوم الأول، فاحت في الهواءِ رائحة نقيعِ الرّشاد والحِلبة واليانسون والزنجبيل المطحون، تتضوّعُ من قدرٍ تغرفُ منه الجدّة مرّتين في اليوم مزيجًا عجيبًا، حُبيْبيّ، بُنيّ مخضوضر مثل طين تشوبه الطحالب، ويبدو كالمحاليل التي تعدّها السّاحرات الشريرات لتسميم الأميرات الحسناوات. لكنّ هدى لم تمت،

وعرضت على مناير مرّة أن تتذوّق -ولو بطرف لسانِها- ما أطلقت عليه اسم «الحسو»، لكنّ مناير أطبقت شفتيها وفرّت هاربة وسط ضحك المرأتين.

طوال أيام، لم تسمح الجدة لكنّتها بأن ترشف قطرة ماء. لأنَّ الماء يفسدُ النَّفساء، دون أن تفهم مناير المقصود من ذلك، وكانت ترى خالتها تجفُّ وتتيبّس، حتى تبدأ في الصُّراخ بأنها عطشى، وعندها كانت الجدة تسكبُ لها نصف فنجانٍ من الماء الدافئ، وتذكّرها بأنّ تكون ممتنة لأنها ليست بصرامة «أمها موضي الله يرحمها»، وتسمح لها بأن تبلّل لسانها وشفتيها. تقول الجدة بأن لسانها كان يتهدَّل من فرط العطش دون أن تُسقى قطرة، الأمر الذي جعلها تعود لزوجها بعد النفاس مثل عروسٍ جديدة، أيًا كان ما يعنيه ذلك.

كان على هدى، لأيامٍ طويلة، أن تأكلَ الشيء نفسه؛ فجلٌ وكرّاث على الغداء، ولفافات العجين المحشوة باللحم والزبيب والحِلبة والفلفل الأسود. الأمر الذي كان مدعاة احتفالٍ للرجال في الغرفةِ الثانية، فقد سئموا الأكل المعتاد. لم تعجب مناير بلفافات العجين المنقوعة في المرق، ولكنها أعجبت باسمها: «قبّوط». يبدو ملائمًا لقوقعة.

قرّرتْ الجدة أنه لا ينبغي لهدى أن تأكلَ الدجاج قبل أن تتمّ يومها السّابع من النفاس، وقد بحلقت مناير في العجوز عندما جاءت في اليوم الموعود تحمل قِدرًا امتلأ بمچبوس الدجاج؛ الأرزّ الأصفر وحشو النِّخي والزبيب والبصل وشعيرات الزعفران، الأمر

الذي جعل طلال ونوّاف يهللان ويشمّران عن أكمامهما ويرددان: «اضرب! اضرب!».

عبرت الجدة الصَّالون مارة بولديها، وفي طريقها إلى غرفةِ النفاس كانت تضربُ ظهورَ الأيادي التي تمتدُّ لتذوق غداء النَّفساء، أو ما ظنت مناير أنه غداء النَّفساء. لكنه لم يكن كذلك، إذ اكتفت الجدّة بأن وضعت القدر بين ساقي هدى المنفرجتين على السَّرير، ثم غطّت كنتها مع القِدرِ بشرشفٍ وطلبت منها أن تتنشّق بخار الدجاجة، ثمَّ انتزعت القدر من هدى ودفعت به إلى غرفةِ الرجال ليشرعوا في التهامِه حتى آخر عظمة ممصوصة.

منذ شهرٍ لم ترَ مناير أحدًا يضحك، لكنهم في ذلك اليوم ضحكوا، وغابَ كلٌ من نواف وطلال فيما يشبه رحلة «القُمبار» المجازية، حيث كل قطعة دجاجة هي قبقب يحاول الهرب فاردًا كلّابتيه، تلتقطه الأيادي إذ يرددان: «صيدَه لا ينحاش!»، ولوهلة، أحسّت مناير بشعورٍ بحريًّ، كأنها تمشي على الشاطئ عائدة إلى أمّها. لكنّ أفكارها تبددت عندما شرعت هدى بالبكاء، وقالت بأنها لا تريد نفاسًا «تقليديًا»، وأن كل ما تريده هو أن تأكل. وراحت الجدة تردِّدُ عليها «عشان مصلحتچ ياالخبلة، تِخترين!»، ولم تفهم مناير ما الذي يمكن أن يُخرّب الخالة هدى، وكيف يمكن أن تخرب المرأة على أية حال. لكنها داومت على المراقبة، وابتسمت عندما سمحت الجدة لكنتها بأكل دجاجة مسلوقة في اليوم الثامن، وسقتها فوح الدجاج كله، مليئًا بحبوب الرشاد وبودرة الحلبة وكريات الفلفل الأسود.

لم تسمح العجوز لهدى، ولا لمرة، بأن تأكل الأرز. لكنها ألقمتها الكثير من حلاوة الطحينة والسِّمسم لإدرار حليبِها. الأمر الذي وجدته مناير مُدهشًا، خمس خيوط بيضاء تخترقُ الهواء، في إحدى المرات أصاب أحدها عين مناير، وكانت شبه متأكدة بأن هدى تعمَّدت ذلك.

كانت الجدّة تصرُّ على كنتها بأن تلفَّ بطنها المترهلة بأحد أشمغة طلال. ورغم ذلك ظلت تلقِمُها ماعونًا من العصيدة يوميًا، بما يكفي لإنباتٍ «كرشٍ فوق كرشِها»، على حد تعبير هدى. لكنّ العجوز لا تسائل التقاليد، وبدأت مناير تشكُّ بأن جدتها مشعوذة، ثمّ تحققت من ذلك عندما جلبت صحنًا مليئًا بقشور البصل، مِبخرًا وفحمًا، وحرقتْ القشور حتى تصاعد منها دخانٌ كثيف، وطلبت من كنتها الوقوف فوق المبخرِ ثم أسدلت حوله قميصها البيتي حتى يمتلئ داخلها بالدخان. لم يكن مسموحًا لهدى بأن تستحمَّ قبل اليوم السابع، ولا برؤية زوجها. كانت العجوز تتيحُ لفواز أحيانًا زيارة أمه وإلقاء نظرة على أخته التي تحوّلت من شيءٍ يشبه البشرة الملتهبة إلى صوصٍ منتوف الريش، وكانت تبكي طوال الليل، لأتفهِ الأسباب كما قررت مناير، إذ لم يسبق لها رؤية شخص يصرخُ بسبب «الغازات».

ببطءٍ تراخت قبضة العجوز على كنتها، وصار طلال يدخلُ الغرفة المحرّمة، يحملُ الوليدة ويمشي بها في دوائر. وفيمَ يفعل ذلك كان ينقل لزوجته ما يصله من أخبار العالم الخارجي؛ قبل أيامٍ أصيب مقيمٌ أمريكي برصاصٍ عراقي وبترت ساقه. كان يفترض

أن يكون الشَّرارة التي تبدأ الحرب، لكنه لم يكن. خسارة يا هدى. أووه.. تقيأت «نونو» على كتفي. هل تتخيلين أن إصلاح وحدة التكييف يكلف أربعين دينار كويتي؟ نواف مستعد لإصلاح أيّ شيء مجانًا، أظنه بحاجة للانشغال بشيءٍ ما. يخرجُ من البيت أحيانًا ليحومَ.. هناك. الله وحده يعلمُ بماذا يفكّر. رآه ابنك أمس في طريق عودته. كان على وشك أن يتسلق السُّور. الناس أطلقوا لحاهم والجنود يطالبون بحلق الذقون. نامَت «نونو»، خذيها هدى.. أنباء عن حرق فيلا في الجابرية وقتل أحد عناصر المقاومة. لم يبقَ لنا منطق نحتكم له، وهذه الحربُ العبثية الغبية المقيتة (يتطاير الرذاذ من فمه) تجعلك تتقيئين أحشاءكِ، وعندما تنتهي.. هذا إذا انتهت، ستكون أشياء كثيرة قد انتهت أيضًا. أشياء ذات معنى. أشياء تربّينا عليها يا هدى. «شوي شوي على نونو». لا تقلقي نفسكِ بالعالم في الخارج. دعي الأمر لي. واسمعي.. سوف أصنع مع نواف قنًّا للدجاج، أنتزع بلاط الحوش وأستصلح التربة لنزرع بعض المحاصيل. خيار وطماطم وجزر وقرع. الجو سيبرد قريبًا. صدّعت راسك بسوالفي أم فوّاز؟ شكلك تعبانة. أطفّي اللمبات؟ طيّب، نامي شوي إذا تقدرين، تصبحين على خير.



(٢)

ألم تجدي لها اسمًا بعد؟ سأل فواز وهو يداعبُ أذن الهريرة في حضنِ مناير. «لا»، فمن أصعب الأشياء أن تسمّي قطة، خاصة وأنَّ مناير تريد أن تطلق على الهريرة أجمل اسمٍ في العالم، لولا أنها لا تعرفُ ما هو.

هل أكلت؟ نعم. هل تبرّزت؟ نعم. وأزلتِ البراز من صندوق الرَّمل؟ نعم. كل شيءٍ على ما يرام باستثناء أن فواز يصرُّ على وجود خطأ. يمسّدُ رأس الهريرة فتأخذ في الخرخرة، تلعقُ سبّابته، لسانها مخملي ووردي، عيناها حليبيّتان، كأن بؤبؤاها قد انقلبا إلى الداخل. لكنَّ مناير متأكدة بأنها تراها؛ فهي تتبعها أينما ذهبت. حتى عندما تنبطح على بطنها لتقرأ القصص، كانت الهريرة تجلس على ظهرها.

همسَ فواز: «مسكينة». وأحسَّت مناير بأن الكلمة تخصُّها أيضًا. مسكينة، اختفت أمّها. تعيد مناير المشهد في رأسها. القطة الأم تعضُّ أحد صغارها وتعبر به الشارع، تدهسها سيارة. في المخبأ الجديد -على الأرجح- ثلاث هريراتٍ سوف تموتُ من الجوع،

وفي المخبأ القديم واحدة عمياء، محظوظة بما يكفي لتحصل على أمٍ بالتبني، حتى لو كانت طفلة شفافة. تسأله؛ هل تعتقدُ بأن الهريرات الأخرى ماتت أم أنّها حصلت على بيوتٍ ومتبنّين؟ يرفع فواز حاجبيه؛ أيُّ هريرات أخرى؟ تجيبه؛ الذين حملتهم أمهم إلى مخبئهم الجديد ثم دهستها سيارة. تتخيل مدرّعة زيتية، يقودها الرئيس العراقي شخصيًا؛ تجسيد الشر على كوكب الأرض. تتيبس ملامح فواز؛ أظنُّ أن أمها تركتها عمدًا. تجحظ منابر، تنظر إلى الزَّغب المخضوضر فوق شفتيه، بثوره والدّمل النابت على طرف حاجبه، ما الذي يقوله هذا الحيوان؟

يرمش فواز مرّتين ويضيف؛ تركتها لأنها عمياء.

في تلك اللحظة فكّرت منابر بأنَّ أمّا ميتة هي أفضل بكثيرٍ من أمٍ تهجرك. وعلى نحو غير مفهوم، صارت تتذكر صورًا عجيبة من تلك الليلة؛ يد فواز تدسُّ في جهاز الفيديو شريط مسرحية «السندباد البحري»، الأغنية العالقة في رأسها أبدًا: «بلادكم حِلوة، حِلوة، بس الوطن ماله مثيل».

في اليوم التالي، استيقظت منابر في غرفةِ جدتها، حيثُ طقم الأسنان يعومُ في المحلول على المنضدة.

انتصبَ فواز واقفًا، في ذقنه شعيراتٌ مجعّدة، يلفُّ رقبته بشماغٍ ويغادر، أنا ذاهبٌ إلى العمل. يقولُ مثل الكبار. في الخامسة عشرة من عمره فقط، لكنه يقود السَّيارة في المنطقة ويعملُ في فرع السُّوق المركزي، يرصُّ معلبات جبنة الشيدر والحليب المركّز على الأرفف،

حفاظات الأطفال في الصف الرابع، الفوط النسائية (تحمرُّ أذناه) هناك أيضًا. ليس لدينا تفّاح. هناك طماطم وجزر. عندما يُسأل عن جنسية الخضراوات يردُّ: «كويتي طبعًا»، لكنه كان يكذب. يعرفُ بأن مدير الفرع يشتري المحاصيل من مزارعي البصرة، وأن هناك خضراوات واردة من عَمّان. حتى الأغذية تخضع لاختبارات الولاء والبراء، يذهبُ لتزويد الفرعِ بالبضائع من مخازن الشركات في «الشويخ»، يردّد مصطلحات الكبار بكثير من الخيلاء، في اليومين الماضيين قال كلمتي «الأمن الغذائي» خمس مرّات.

العجوزُ منكبّة على ماكنة الخياطة. «سنجر» مذهبة بقاعدة خشبية، تشبهُ بجعة سوداء، كلما خاطت درزةً تصاعد منها صوتٌ يشبه لعلعة الرّصاص. يحملُ نواف الماكنة، يقلبُها، يزيّت مفاصلها ويعيدها فيكفُّ الصوت عن مضايقة أمّه. تقفُ الطفلة أمام العجوز حاملةً الهريرة. تبرقُ عيناها وهي ترى انسدال القماش؛ أصفرُ بلون الخردل، بلون القيء. إنه أقبح لون في العالم، لكنها مع ذلك بحاجة لإظهار شيء من الامتنان. تسأل: «ماما منيرة متى يخلّص النَّفنوف؟» ترفعُ الجدة رأسها، يتجعّد أنفها بمجرد أن تلمح الهريرة بين ذراعيها. تصيح «وخريها عنّي بنت إبليس، قطيعة تقطعها!».

تنسحبُ منايِر فورًا. لا تعرفُ كيف ستحافظُ على الهريرة ما دامت جدتها تكرهها إلى هذا الحد. وكانت قد قررت مرّة أن على الجدة أن تلمس رأس القطيطة حتى تحبّها، فوضعتها في حضنها وهي منهمكة في قراءة القرآن، وفي تلك اللحظة تعالت صرخاتُها: «أعوذ بالله السميع العليم من شرّ ما خلق!»، هرع فواز يحمل القطيطة.

ضحكَ طلال: «شدعوة يمّه». وبختـه العجوز: «جايبها لي من الشارع، مادري كم درام زبالة حاست فيه، وحاطينها بوسط بيتي غصبٍ عني.. حسبي الله عليكم!»، يناكفها طلال: «في كل كبد رطبة صدقة يمه»، فواز يضيف: «بعدين يمه هذي قطوة كويتية». تنفثُ الجدّة ناحية القطة، فيما يبدو مثل بصقةٍ متخيلة، جافّة نعم، ولكنها تبلغ الرسالة بالضبط. يذكّر طلال أمه بقصة البغي التي سقت كلبًا بخفِّها فدخلت الجنة. منابر تجذبُ فواز من قميصه تسأله: «شنو يعني بغي؟»، فواز يضع سبابته على فمِهِ ويقول «ششش.. عيب». الجدة تمطُّ شفتيها، ترد بأن البغي بحاجة للتقرّب إلى الله بالقطط والكلاب لأنها بغي، لكن هي.. وأشارت إلى المصحف بين يديها؛ «الحمد لله على نعمة الإيمان».

بعد تلك الحادثة صارت العجوز تطلق على الهريرة لقب «بنت إبليس»، وتشعرُ منابر بأن عليها أن تسرع للعثور على اسمٍ بديل، قبل أن يلتصق الاسم بقطتها إلى الأبد. لكن تسمية القطط مهمة صعبة، والاقتراحات التي يقدّمونها غير معقولة. طلال اقترح -ضاحكًا- أن تسمّى «تاتشر». تضحك هدى وتقول لا لا.. نسميها لميعة (اسمٌ أعجب منابر قليلًا)، أو.. اقترح طلال: «وِمبي»، ثمَّ أضاف: مشتهي همبورغر بالبيض. كأن قطتها مجرد نكتة.

لكن منابر تعرفُ ما تريد، تريدُ لقطّتها أجمل اسمٍ في العالم.

ذهبتْ إلى غرفةِ هدى لتضع الهُريرة في بيتها؛ علبةٍ كرتونية مربعة، رسمت على سطحها بالألوان الشمعية بابًا ونوافذ على

حوافها أصص أزهار حمراء، وجدرانًا من الطُوب. ماءت القطيطةُ، لكنّ مناير لم ترغب بحملها. كانت تريد أن يحملها أحد.

هل تخلت القطة الأم عن ابنتها فعلًا؟

اقتربت خطوتين من هدى، كانت متربّعة على السَّرير، والرضيعة في حضنها تغطيها بشيلة سوداء شفافة.

لا ينبغي للنفساء أن تتكلم في أثناء الرضاعة، فهذا يجعل الصغيرة تشرقُ بالحليب، ويضاعف غازات بطنها، أو هذا ما تردده العجوز. لكن هدى، بمجرد أن نظرت إلى عيني منابر (إلى الوحشة الزَّرقاء الباردةِ في عيني منابر)، مدّت يدها ومسّدت رأسها، ثم سوّت غرتها وهمست بأنها ستقصُّها لها قريبًا. تشتاق منابر إلى أمها وتبدأ في البكاء، وعندما تسألها هدى عما يبكيها لا ترد، لأنها لا تعرِف.

(٣)

في المساءِ أنهى نوّاف بناءَ قنٍ للدجاج. دشّنهُ من ألواحِ الخشب والصّفيح، وشبكٍ معدنيّ عثرَ عليهِ في أحد البيوت نصفِ المبنيّة. كانت لحيته تغطي عنقه، والمسامير مثبتة بين شفتيهِ يدقّها في الألواح يساعدُه طلال في تثبيتِها. يردّد طلال ما سمعهُ من أخبار؛ أكثر من ربع مليون شخص غادر الكويت حتى الآن. سفينة غادرت ميناء الشويخ لإجلاء سبعمئة هندي. وفكّر نواف بما تبدو عليهِ بلاده المداسة بالبسطار؛ ليست أطلالًا، بل مكانًا عالقًا خارج الزمن؛ مثل خديج تم إجهاضه؛ دولة لم تقم أبدًا، توليفةٌ من المخلّفاتِ وبيوت الأشباحِ والسراديب المأهولةِ بالأطفالِ وإنارات الشوارع الشحيحة وكل ما لن يحدث.

يردفُ طلال؛ «لازم نحط سِستم»؛ نظام مناطقيّ للتخلص من القمامة، المبادراتُ الفردية لا تكفي. اليوم بيت فلان، وغدًا بيت علّان. شيءٌ منظم ويمكن محاسبة المقصّر على أساسه، هذه الرائحة ستقتلني. يبتسمُ نواف شاردًا لأن شقيقه، هذا المعارض العتيد،

يبرعُ في بناءِ الأنظمة بقدر ما يبرع في نقدِها. في غضونِ شهرين تحوّل الحيّ السكنيّ إلى ما يشبه العشوائيات؛ بيوت مهجورة وقطط سائبة وتلالٌ مليئة بالحفاظات ورماد الأوراق الثبوتية وأكياس الطَّحين. فاحت في الأحياء النتانة، وكفّت شاحنات التنظيف عن المجيء وانتهى الأمر بعمّال النظافة الآسيويين إلى مخيمٍ للنازحين. لو لم أكن مشغولًا بهذه التفاصيل لفقدتُ عقلي. كأننا نحلم. ويفكّر نواف بأن شقيقه يبدو مغمورًا بعواطفه، وهذا ما يحدث عندما ينجح في مراوغة أمه ودخول غرفة النفاس. اللعنة على النّساء. أما بالنسبة إليه، فهو يعرفُ حدود استطاعته، بل ويعرفُ الأشياء التي تعنيهِ ولا تعنيه. وهذه الحربُ لا تعنيهِ حتى لو أمضى الأيام كلها يصنع أقنان الدجاج ويصلح أجهزة الراديو. يريد أن يبقى على سطحِ العمليّ، وأن يراهن على أمرٍ واحد؛ لا الدولة ولا الحكومة ولا الشرعية ولا ما يسمونه الوطن، بل على غريزة النجاةِ وحدها.

يقاطع طلال أفكاره؛ لقد بدأوا في تفتيش المنازل. ليس لدينا ما نخشاه. نعم، كل شيء على ما يرام. هل سمعت نشرة أمس؟ «جورج بوش» يتحدث عن صنع نظام عالمي بلا إرهاب. ينخرُ طلال متذكّرًا كيف كانوا قبل شهرين فقط لا يرون في «بوش» هذا إلا امتدادًا بائسًا لـ «ريغانية» متوحشة، استهدفت كل من بقي ممن يشابهونهم من رفاق افتراضيين على امتداد الكوكب، في أمريكا الوسطى وأفريقيا وآسيا.

يجيلُ نوّاف عينيه في المكان؛ البلاط المخلوع، أكياس الرّمل والسَّماد العضوي. رائحة الروث. شتلات وبُذور. سوف يصبح

عندهم جُنينة خضراوات. لكن من أين يستطيع شراء زوجٍ من الماعز؟ وربّما نصف دزينة من طيور السمّان، ذكرٌ وخمس إناث.

يهزُّ طلال رأسه ويهمهم:

- ليلحين مقهور إني لما رحت المخفر أطلب سلاح ردّوني.

ينظرُ إليه نواف، رافعًا حاجبًا واحدًا. مسمارين مثبّتين بشفتيه، يبصقهما:

- ليش تحتاج سلاح؟ ناوي تصير بطَل؟

- نحتاج سلاح، لا قدّر الله صار شي. البيت فيه عيال وحريم، لازم معاك سلاح.

يعقد نواف حاجبيه قليلًا، ثم يعود لالتقاط المسامير من الأرض ويطرقها في اللوحِ الخشبي.

- وإذا فتشوا البيت؟

- مو مشكلة، ندفنه.. ندفنه عند الذَّهب.

- وإذا نبشوا الحوض؟

- نتشهّد.

يضحك نواف. يطرق قليلًا ثم يتكلم. هل تذكر البيت الذي آواني صبيحة خروجي من السجن؟ ثلاثة أشقاء، كلهم في الجيش، أحدهم استشهد. الله يرحمه. متأكد بأنهم يستطيعون تزويدنا بسلاح. وما الذي يجعلك متأكدًا من مساعدتهم لك؟ يبتسم نواف:

- أولًا أنا كويتي، ثانيًا أنا صلحت الرّادو...

يطرق طلال ثم يسأل:

- ونقاط السيطرة؟

- أنا أتصرّف.

ألقى نواف بالمطرقةِ من يدهِ وشعورٌ بالنشوة يصّاعد في دمه. دلف البيتَ لدقائق ثم خرج منه حاملًا الهريرة من عنقها. مناير تخبُّ خلفهُ والذُّعرُ في عينيها. «ساعة ونرجع»، قال بلا شروحات. تتعلق الطفلة بساعده فيدفعها بعيدًا. «لا تحنّين! قلت لك ساعة ونرجع». لكن مناير لا تصدّق كلمة يقولها.

يستوقفه طلال: «أنا جاي معاك». «لأ». إذا ألقوا القبض على واحدٍ يجب أن ينجو الآخر، عندنا نساء وأطفال.

يضعُ الهريرة في المقعد الأمامي، يشغّل السيارة وينطلق. يستحضر شوارع ومناطق يألفها، لكن بُدلت أسماؤها. «الجابرية» استحالت «حي الأحرار»، «السالمية» صارت «حي النصر»، «شارع فهد السالم» سُمّي «شارع الفاو»، ومنطقة «الشويخ» أصبحت «حي الشهداء»، و«سلوى».. هي «حيّ الخنساء». صبغة زيتية قاتمة، لها رائحة الكبريت، تظلل كل شيء.

يلمحُ في أقصى الشارع نقطة سيطرة. ينتظر دوره، يصل وينزلُ زجاج النافذة. بسأمٍ يأمره الجندي: «هويتك؟»، يناوله بطاقته ثم يحدث ما تمناه نواف؛ تبدأ الهريرة -على المقعد الأمامي- بالمواءِ، يرتفع

حاجبا الجندي ويطلُّ داخل السيارة مبحلقًا. يبشُّ وجهه. «يابه هاي شنو؟». لا يحدث كثيرًا أن يرى المرء هريرة جالسة في المقعد الأمامي لسيارة والبلاد في حرب. يراقص نواف حاجبيه، يجيبه باللهجة العراقية: «بزّونة». يضحك الجندي ويتجمّع حوله جنود آخرون. يمطرونه بالأسئلة: «شسمها للبزونة؟»، لا يتذكر نواف إلا الاسم اخترعته أمه: «بنت إبليس». يقهقهُ الرجال، يسألونه: ووين مودّيها للبزونة؟ البيطري. ليش خطية.. مريضة؟ عندها موعد تطعيم. ينفجر الجنود بالضحك، ينادون الآخرين. يطلقون على نواف لقبًا سيصبح جواز مرورهِ في المستقبل: «أبو هريرة»، وللحظة لم تعد هناك حرب، لا عراق ولا كويت. مجرد رجالٍ تعجبهم المفارقة.

لم يفتّش أحد صندوق السَّيارة. وعرفَ نواف بأنه يمكنُ لقطةٍ عمياء أن تنجز أصعب المهام؛ تهرّب متفجرات ومنشورات من جريدة «الصمود الشعبي» وأشرطة مفخَّخة بالأغاني الوطنية وأموالًا. لكنه لا يحملُ شيئًا من ذلك، ليس بعد على الأقل.

يتوجّه أولًا -بدافع الفضول فقط- إلى «الديرة» ليرى كم تغيرت.

شمّ هناك رائحة الدخان، رأى مباني نصف محترقة. متاجر مغلقة وخالية. صورٌ كبيرة للرئيس معلقة على مباني الدولة، وأخرى على واجهات المحال. الإضافة الوحيدة هي نصبٌ من ثلاثة أقواس لرسمٍ عن صورة صدام حسين. ينقبض قلبه ويعود أدراجه، كلما أوقفته نقطة سيطرة تمارسُ «بنت إبليس» سحرها الشيطانيّ على الجنود.

ثمَّ وصل إلى البيت المطلوب. ترجّل وقرع الباب.

- خالة تذكريني؟

تبتسمُ العجوز من خلف برقعها. أنّى لها أن تنساه؟ لقد جاءها في اليوم الذي فقدت فيه ابنًا.

- حيّاك وليدي، حيّاك..

(٤)

كان فواز عائدًا من العملِ عندما رأى أباه وعمّه يحفران حفرةً جديدةً في حوض النخلة. جحظت عيناهُ لرؤية ذلك الشيء الرَّصاصيّ الصَّقيل بين يدي أبيه. يضعُ والده سبابته على فمِه. يدسُّ المسدّس في الحفرة ملفوفًا بكيس بلاستيكيّ ثمّ يكيلُ عليه الرّمل. «احتياط، مجرَّد احتياط». يغمغم طلال، ينثر أوراقًا جافّة ويسوّي الأرض بيديه. ثم يلتفت إلى ولدهِ الذي ما زال مُسمّرًا مكانه، في عينهِ أسئلة تلمع. «يبه حق شنو المسدّس؟ يبه إنت مقاومة؟».

يصرفهُ أبوهُ زاجرًا:

«انقلع شوف شغلك!».

في السّرداب سمعَ مواءً مفجوعًا آتيًا من الحمَّام. كانت مناير تنقعُ القُطيطة في الحوض والأخرى تعاركُها، مخالبها تتشبّث بحافة الحوض، امتلأ ساعداها بالخدوش. مناير ترتجفُ. إذا عرفت العجوز أنَّ «بنت إبليس» تسرح وتمرح مضمَّخة ببولها لن تسمح ببقائها لحظة

أخرى. يهتفُ فواز: «مناير شتسوين؟»، تجهشُ لرؤيته، أنفها يسيلُ وعيناها تغرورقان.

كانت قد أمضت السَّاعة الماضية تنتظرُ على عتبةِ الباب، مثل متسوّلةٍ صغيرة ترسمُ بعودٍ هزيلٍ على سطح الرمل نجومًا وأقمارًا. عيناها محتقنتان وأنفها متورم، تتخيل الهريرة مرميةً في الشوارع تموءُ من كل قلبها. لم تصدّق أنَّ والدها سيعيدُها، مثلما لم تفهم لماذا أخذها.

لكنها أعادها فعلًا.. مبتلة ببولِها تصطكُّ وتخمشُ وتموء. أعادها إليها في نهاية الأمر. يغلق فواز باب الحمام ويهمس: «خلاص مناير». يخلع شماغه ويلف به الهريرة البردانة، يحسُّ بها ترتعشُ، يقترحُ أن يخرجا إلى الحوش ليضعاها في الشمس حتى تجف. تومئ مناير موافقة. تمسح أنفها بكمّها.

يضعُ فواز يدهُ على رأسِ مناير. لوهلةٍ فقط، مدفوعًا بأسبابٍ غامضة. ولا يدري، حتى اللحظة، بأن هذا سيكون قدرهُ.

يجلسان على العتبة بين أكياس السَّماد وأُصص الشتلات. يسمعانِ لعلعة رصاصٍ من بعيد، ما عاد الصَّوتُ يخيف كما كان. تكفُّ الهريرة عن المواء وتبدأ في الخرخرة. فواز يحدّقُ في حوض النخلة. لقد غطى أبوه المكان بورقِ شجرٍ ميت. من يعرفُ بشأن المسدس أيضًا؟ وماذا سيفعلون به؟ هل يستطيع أن يقتل به جنديًا عراقيًا ويصير بطلًا؟

نظر إلى الصَّغيرةِ تخرجُ من جيبها القواقع، تضعها على الرَّمل،

ثم على أذنها، ثم على الرمل. لم يذهب أيّهم إلى الشاليه منذ تلك الليلة.

وتذكّر تلك الليلة.

عندما نامت مناير في حضنِه، سال سائلُ أنفها على بنطلونِه وهو يبحلقُ في التلفزيون. قلبُه منقبض دون أن يفهم، يرى الأضواء الزرقاء والحمراء لسيارات الشُّرطة والإسعاف تتوهّج في الخارج، ثم تعود أمّه بوجهٍ متورّم شديد الشّحوب. يسألها «وين أبوي؟»، تقول «مع عمّك». يسألها «وين عمّي؟»، تقول «راح المخفر». يسألها «وين خالتي نادية؟»، ويرى كتفيّ أمه يهتزّان. فمُها يتقوّس، عيناها تسحّان، ثمَّ تحوقلُ وتحوقِل. تسندُ يديها على طاولة الطَّعام بالكادِ تلتقط أنفاسها، ثم تلتفتُ إليه بعينين محتقنتين وتطلبُ منه أن يبدأ في توضيبِ الأغراض. سيعودون إلى البيت. الإجازة انتهت. سألها: «وأبوي؟» قالت: «يلحقنا تالي». سألها: «وعمّي؟»، نكّست عينيها واحتقن وجهها. سألها: «خالتي نادية ماتت؟»، طأطأتْ وهي ترمق مناير الغافيةِ في حجره. «حادِث». قالت؛ خرجت تمشي وتعثرت بحجر، ربما طابوقة، سقطت.. شُجَّ رأسها، غرقت. بدأ جسده يرتعدُ فهمست: «لا تصحّي البنيّة». رفع رأس الطفلة وأسنده بوسادة، ثم نهض إلى أمّه وضمّها إليه.

وفكَّر في تلك اللحظة، لو ماتت هدى، لن يكون هكذا، مثل مناير، قادرًا على اللعب بالقواقع والتَّأسّي بقطة عمياء.

أحسَّ ببرودةٍ في عينيهِ وعرفَ بأنه يوشكُ على البكاء لمجرد

النظر إلى الصغيرة التي تضعُ القوقعة على أذن هريرة. وفي تلك اللحظة اتخذ قرارًا مصيريًا بشأن مستقبله، وعرفَ أي نوعٍ من الرجال سيكون.

إذا تحرَّرت الكويت، وصار رجلًا بشاربٍ أسود حقيقي، سوف يتزوّج من ابنة عمّه، هذه الحشرة العصوية، هذه الدُّودة الشَّريطية التي تحتاج إلى حمايته.. سوف يتزوجها نعم.

(٥)

انتظرت هدى أن تستغرق العجوز في قيلولتها حتى تتسلّل خارجةً من البيت، على أطراف أصابعها، مثل لصّة.

نصفُ ساعة وتعود. لن يعرف أحد.

لا داعي لأن يعرفَ أحد.

لم تتمّ نورة الأسبوعينِ بعد، كانت ملفوفة بقماطٍ زهري باهت، تحملُها هدى بين ساعديها يتبعها فواز ومناير. يجلسُ فواز في المقعد الأمامي والرَّضيعة بين ذراعيه. مناير في المقعد الخلفيّ والهريرة في حضنِها. تثبّتُ هدى عباءتها فوق رأسِها وتشغل محرك السيارة. تهمس: «وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا». يسألُ الفتى: «يمه وين رايحين؟»، لا تُجيب.

ليلة أمس، عندما حدَّثها طلال، ضاحكًا من كلّ قلبه، عمَّا فعله نواف بالهريرة، وكيف أنه تجاوز جميع نقاط السيطرة وأخذ جولة في «الدِّيرة» دون أن يعترضه أحد، عرفتْ بأنها عثرت على الحل.

لكنها نفساء، لم تتمّ الأربعين يومًا بعد، لن تسمح العجوز بخروجها، فما بالك لو علمت بالسبب؟

لن تعرف.

توقفت عند نقطة السيطرة الأولى. مركبة بلون الرّمل، ثلاثة مجنّدين من الجيش الشعبي؛ فلاحون وحرفيون انتزعوا من الحقول والقرى وزُجَّ بهم في حربٍ بلا معنى. اتصالات الأمس تشيع بأنهم على وشك فرض حظر تجولٍ شامل لمدة ثلاثة أيام لإحصاء من بقي في الكويت. وهدى تريدُ أن تتم مشوارها قبل الحظر. ما الضمان أنها ثلاثة أيام؟ سمعت بأن الخبر نُشر في جريدة «النداء»، الجريدة الوحيدة التي تصدر مزيَّنة بصورة «الرئيس القائد» وبالألوان من مطابع جريدة «القبس» الكويتية. لا يمكنك إحصاء جميع الموجودين في ثلاثةِ أيام. تفكّر هدى. إنهم يمنحوننا إشاعاتٍ للتسلية.

لكنها لا تريد أن تغامِر.

تتوقفُ عند نقطة السيطرة. يطلُّ الجندي ويرى امرأة وطفلين ورضيعة وقطة عمياء. «الله يساعدك خيْتي». يقول ويعيد إليها بطاقتها. تحسُّ في أعماقها بتلك القوة الناعمة التي تجعل الدبابات تهتزّ؛ أم، أطفال، هريرة. لا أحد يستطيع هزيمة جيش بهذه الهشاشة. تصل إلى ما صار يسمى الآن بحيّ الخنساء. أرقامُ البيوت منتزعة، يافطات الشوارع مصبوغة بالرّش الأسود. حربٌ كلامية على جدران المدارس والحضانات ومحوّلات الكهرباء.

تتذكر هدى ذلك الصباح، عندما التقت فاطمة بين سحّارات القرنبيط الباذنجان. تتذكر لحظة استوقفتها:

«أم فواز، أبيج بكلمة راس».

منذ تلك اللحظة وهي تحملُ السّر.

يومَها سألتها:

- تعرفين تستخدمين الآلة الكاتبة؟

- إي أعرف.

لقد اجتازت دورة تدريبية في استخدام الآلة الكاتبة، ويمكنها ضغط تلك الأزرار بالسهولة نفسها التي تخيط فيها فتقًا في ثوب فواز. جذبتها فاطمة بعيدًا عن الأكشاك وهمست:

- تساعدينا؟

لم تفكر هدى مرّتين. كانت حُبلى في نهايةِ شهرها التاسع، بطنها متدلّيّة بين فخذيها، كل ما فيها يؤلمها ولكنَّ الأمر بدا لها منتهيًا قبل أن يبدأ. كانت ممتنة لأن المرأة أمامها تنظرُ في عينيها رغم الألم الذي يستجلبه مرآها، بعد أن صارت تذكارًا لحكاية عامر ونادية، والخزي، أمور تبدو بعيدة الآن، ليس لأنها بعيدة بالضرورة، بل لأنَّ الحربَ تعبث بمقاييس الأشياء.

ثمَّ ستتذكر هدى أيام الجامعة، عندما كانت تلمحُ عامِر ونادية واقفين في الممر، خارجين من مقرّر «مكتبة لغوية» أو «صرف» يتبادلان الأوراق والملاحظات و(هي متأكّدة) الملامسات التي تبدو

غير مقصودة لكنها مقصودة طبعًا. كان واضحًا منذ البداية أنهما عاشقان. كيف لم ينتبه نوّاف إلى وجهِ صاحبه، إلى ابتسامته التي تعوجُّ عندما يُفتن؟ لم تكن تعرفُ نادية في تلك الأيام. كانت زوجة لطلال، وبمثابة أخت كبرى لنوّاف، وكانت أيضًا صديقة لعامِر، وزميلة العمل الطلّابي في قائمة «الوسط الديموقراطي»، وكانت الوحيدة التي يسمح لها بدخول ديوانيتهم بعد أن يغادر الغرباء لتأكل معهم فطاير اللحم بالشطّة، ويتناحرون بشأن سيطرة الإخوان المسلمين على اتحاد الطلبة.

عندما سمعت من طلال أنَّ شقيقه قد تقدم لخطبة فتاة؛ تعرفينها هدى؟ زميلته في الجامعة، اسمُها نادية. في ذلك اليوم لم تفهم هدى، ثم قرّرت أنَّ فهمها أو عدم فهمها غير ضروري. ربما أساءت التأويل، ربما بالغت، ربما تعاني من ترسّبات وانحيازاتٍ قادرة على تخيّل الحبّ في أقل إيماءة. ربما لا يمكنها تخيل رجل وامرأة إلا وثالثهما الشيطان.

ها قد مرّت سنة، والدنيا ليست هي الدنيا، ولا الناسُ هم الناس.

أرادت هدى أن تلتقي بفاطمة في اليوم التالي لتأخذ منها الآلة الكاتبة، لولا أنَّ الطلقَ داهمها وهي صاعدة إلى السَّطح.

لقد تأخرت أسبوعين، ولكن ها هيَ.

أمام البيتِ إيّاه.

لا داعي لأن يعرف أحد.

(٦)

«هُدى!».

شرقَ باسمِها، غير قادرٍ على التَّصديق.

أحسَّ بذاكرته تمدُّ له آلاف الأذرع، مثل كائنٍ أخطبوطيّ أتى ليعيده إلى أكثر مكانٍ يكرهه في نفسه. ورغم أنها كانت ثوانٍ، ثلاث أو أقل، إلا أنه استطاع أن يرى إلى أيّ حدٍ تكرهه، مع أنّه ما زال يسبقها بأشواط في هذا المضمار، لأن أحدًا لن يكرهه أكثر منه، أبدًا.

ولا حتى نوّاف، ولا حتى نادية.

هكذا قرّر خلال السَّنة الماضية، وقبل أن تكون هذه لعنتُه؛ صخرته التي تتدحرجُ من رأس الجبلِ وحتى سفحه. هذه هي خلاصة تأمّلات عامِر منذ تلك الليلة؛ أنَّ كلًّا منا هو صخرة أخيه، وأنَّ هذا هو جوهرُ العلاقاتِ النَّاصع، وأنَّ كل شيءٍ ملوّث. استنتاجاتٌ حديّة، متطرّفة وطافية في المطلق، ما زال يحلمُ بنقضِها. لكنه في تلك اللحظة كان ينظرُ إلى الوجهِ البارد لصديقته القديمة،

ينظرُ إلى هدى ويتذكّر كيف لطمت وجهه وصاحت فيه: «روح لا يذبحك». يتذكّر البحّة المرّة في صوتِها وهي تركله وتلعنه: «روح راحت روحِك».

كانت تكرهه وتنقذُ حياته معًا.

ينكّسُ عامِر عينيه إذ يراها تدير له ظهرها لتعودَ إلى السيارة. عباءتها السَّوداء ترفرفُ وتصدر أصوات طقطقة. لم تحسب هدى حسابَ رؤيته. واضح أنها غير مستعدة للاعترافِ بوجوده على ذات الكوكب، وفي ذات البلد المحتلّ البائس. ولعلها لن تقدر على ذلك أبدًا، وفكّر أن يستمهلها لينادي أخته وأن يختفي من ناظريْها. أن يتحوّل إلى فصّ الملح الذي ذاب، إلى اللا شيء عينه. لكنه سمع صوتًا يشبه البطبطة يناديه: «عمّو عامِر!»، صوتٌ يكاد يتكسّر من فرط زجاجيّته.

رفع عامِر عينيه والولهُ يكويه.

«مناير؟».

أراد عامِر أن يعتصر الصَّغيرة بين أضلاعِه، لأنها الطفلة الوحيدة التي تخصّه، لأنه استنبتها في قلبِه منذ بشَّره نواف بأن نادية حامل، وحملها بين ذراعيه رضيعة، وعلى كتفيه عندما بلغت الثانية، واشترى لها الدببة المحشوّة والملصقات، وعلّمها أسماء القواقع، وكيف تصطاد القباقِب، وتفاصيل أخرى.

بدأت ذاكرته تقصفهُ بالصُّور. عندما خرجا إلى البحر يحملُ عنها

السَّطل البلاستيكي الأحمر ويملؤه لها بالزبابيط والقنافذ السوداء، عندما روى لها قصص السندبادِ وجلنار بنت البحرِ، وفي إحدى المرّات حفّظها مطلع من مقامات الهمذاني؛ «اشتهيتُ الأزاذَ وأنا ببغداذَ..». ثم أراد مرة أن يأخذ التحدي إلى مستوى أعلى فعلمها أن تقول: «مكرٍ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا». يتذكر مرة، عندما كانت في الثالثة فقط، عزف على عوده يغنّي لها: «غادة أنتِ كالنجم ساطع»، وأنَّ الصَّغيرة راقصت زنديها (الهزيلين الممصوصين المضحكين) من أجله. إن كلّ ما فيها يخصّه.

ولكن متى أصبحت تشبه نادية هكذا؟

«هلا منّورة.. هلا بابا».

يتحشرج صوته وتلمحُ هدى التماعة عينيه، دموعه. تتغضّن ملامحها وتُطأطئ. تدفعُ الصَّغيرة باب السيارة، تأتيه ركضًا. كأن ضلعًا مخلوعًا من صدره قد عاد إلى مكانِه. ملعونٌ هو الشوق.

قبّلها وتشمّم شعرها، اعتصرها كثيرًا، وأحسَّ بنحولها وجفاف بشرتها.

الاحتلالُ أم اليُتم؟

العراقُ أم هُو؟

انزلقت من بين يديه مثل سمكة، ثم هرعت عائدة إلى السيارة وجلبت له هريرة: «شوف عمّو شوف!»، فهي متأكدة بأنه، مثل الجميع، يعرفُ كم تمنت الحصول على قطة. أخبرته بأنها عمياء،

ما زالت بلا اسم، وأن جدتها لن تلقي بها إلى الشارع طالما أنها لا تتبوّل على الأثاث، وأنها تتبعها حيثما ذهبت، وتعرفُ صوتها، وتحبُّ التونة أكثر من بسكويت القطط، وأنَّ فواز ما عاد قادرًا على الإتيان ببسكويتِ القطط ولا التونة، وثرثرة أخرى.

داعب أذنيّ القطة موشكًا على الاختناق. أرادَ أن يرحلوا. أن يأخذوا خطيئته التي لا تغتفر، ويرحلوا.. رفع عينيه إلى هدى. هل توهّم الأمر أم أنَّها.. لهذه اللحظة على الأقل، تشفقُ عليه؟ تزفرُ طويلًا ثم تقول: «مناير رجعي السيارة». وتعود لتسأله بصوتٍ فظ: «وين فاطمة؟».

يستجمعُ نفسه. فاطمة في البيت. تفضّلي. تقول لا داعي، أتيتُ لآخذ الآلة الكاتبة وقوائم الأسماء. يهزُّ رأسه رغم أنّ أخته لم تشِر إلى الأمر قط. أنا آتيكِ بها. يغمغم. تنتظره في السيارة. عندما يعود يسمعُ صياح الرّضيعة التي جاعت. هدى تسندُ ذراعيها إلى المقودِ ذاهلة. مناير تراقص قائمتي القطة. الهريرة تلهث. فواز أيضًا. نبت له زغبٌ أعلى شفتيه وكبُر أنفه قليلًا، ينظر إليه كمن يحاولُ حلّ أحجية.

«شلونك يا صبي؟».

يجبر نفسه على الابتسام. يهمهمُ الفتى: «هلا عمي».

تفتحُ هدى الباب إذ تلحظ عودته. تأخذ الآلة الكاتبة والأوراق، تخفيها تحت عباءتها مكان البطن. تغلق الباب. تمضي السيارة بعيدًا.

قبل أن تنعطف في نهاية الشارع، كانت مناير ما زالت تلوّح..

(٧)

كان فوّاز منهمكًا في رصِّ علبِ جبنة شيدر الزرقاء على الرّف عندما طلب منه أحمد المصري مرافقته إلى المخازن. سأله فواز، فقط ليبدو ملمًا بعمله: «عندنا أمر شراء؟» فضحكَ الرَّجل مزهوًا بالموظف الجديد الملم بالتفاصيل، أخرجَ الورقة من جيبه وفركَ بها رأس الفتى.

غادرا بشاحنة السوق المركزي، وأخذا معهما بطيخة تحسبًا لوقوعِ تعقيدات، رغم أنه ليس من عادة الجنود التعرّض للعرب من غير الكويتيين. في الطريق إلى المخزن، ورغم أنَّ أم كلثوم كانت تصدحُ في المسجّل، وهو ما يعني أن تمتلئ عينيّ أحمد بزغللةٍ بيضاء، وأنّه غير مستعد للكلامِ في أمورٍ دنيوية فارغة، مثل الاحتلال وموقف جامعة الدول العربية، إلا أنّ فواز سمعه يغمغمُ فجأة:

«وبعدين مع الكلاب دول؟».

التفتَ فواز وراءه. رأى وانيت (مركبة نصف نقل يابانية) يحمل ثلاثة مجنّدين من الجيش الشعبي. العسكري خلف المقود يزمّر

ويأمرهم بالوقوف. دقات قلبهِ تتسارع على نحوٍ مجنون، لأول مرة يفكّر فواز بأنه قابلٌ للموت. «وقّف لهم». يخرج صوته مشروخًا.

يردُّ أحمد:

- مش هيحصل.

يصيح فواز:

- أقولّك وقّف!

يفرقع الرجل لسانه:

- أنا راجِل صعيدي ودماغي جزمة قديمة.

يصيح به فواز:

- خبل إنت؟ يذبحونّا ترى!

يهزُّ أحمد رأسه:

- واللهِ ماني واقف.

وعلى نحوٍ غير مفهوم، يبدو أحمد رائقًا وهو يحوّل الأمر برمّته إلى لعبة مطاردة. وأنه في الوقت نفسه ما زال قادرًا على الغناء مع «السّت» على نحوٍ مروّع. ثم يلتفت إلى فواز، يتطاير الرَّذاذُ من فمِه وهو يذكّره بأنَّ الرّجال في الوانيت مجرد صعاليك، أنهم فلاحون -مثلما كان هو في الصّعيد- وجياع، تحولوا إلى قطّاع طرق بزيّ عسكري، وليس من حقهم إيقافه ما دام عبر نقاط السيطرة، الأمر الذي يفاقمُ رعبَ الفتى. فهذا الصعيديّ يتصرّف كما لو أنَّ هناك

منطقًا في العالم الخارجيّ، كما لو أن هناك قانونًا، رغمَ أنَّ الناس تختفي وتقتل وتعتقل. وفكر فواز بأنَّ نهايته ستكون على يد هذا المخبول الذي جاءَ من الصَّعيد ليدرّس اللغة العربية في الكويت. كان قد وصل إلى الكويت قبل الغزو بيومين. ثم انقلبَ العالم على قفاهُ وتمّ ابتلاع البلاد بأسرها لكنه قرّر أن يبقى، فهو لم يحصل على تأشيرة الدخول بسهولة. اشتغل في فرع السوق المركزي، يرصُّ أكياس العدسِ والأرزّ مردّدًا: «المنحوس منحوس لو علقوا على راسه فانوس»، وأحيانًا كان ينشدُ الشعر، ويعبثُ بالأبياتِ دون أن يشير إلى أصولها، ويسدد إبهامه إلى بطنه ويردّد: «إنَّ للنّحس كيمياء إذا ما/ مسَّ إنسانًا أصارهُ كلبًا»، ثم يغرق في الضَّحك، كما لو أن كل شيء على ما يُرام. كان الصَّعيدي، لدهشة فواز، قد فقدَ غريزة الخوف، وصار يقطع الشوارع ويتغلغلُ في الأحياء كأنه عاش في الكويتِ طوال عُمره، والأهم أنه، في عالمٍ مقلوبٍ على قفاه، يبدو مثل سمكةِ شبّوط عادت إلى بحرِها أخيرًا. كان لهُ شاربا شبّوط.

انعطفَ مرارًا إلى اليمين واليسار، ثم ركن الشاحنة أمام مبنى المخزن. تجمّد فواز في مقعدهِ ينتظرُ وصول الجنود، خيطُ عرقٍ يسيلُ على ظهره. في خيال فواز، كانت تلك هي الدقائق الأخيرة من حياته، سوف يتوقف الوانيت بمحاذاة الرصيف ويترجل منه ثلاثة جنود ليصوبوا رشاشًا إلى صدره.

لكنه قبل أن يذهب أبعد في خياله رأى الوانيت يتجاوز الشاحنة ويتوقف أمام المخزن القريب، كأنَّ المطاردة لم تقع، كأنهم فقدوا اهتمامهم باللعبة فجأة. ترجّل أحمد، بهيئته المصرية التي لا تخطئها

العين، ممسكًا بورقة أمر الشراء، كأنه يوجه إلى الجنود رسالة بأنَّه ما زال في حمايةِ القانون؛ شكلٌ بدائي من أشكال القانون. قانون السوق على الأقل؛ بيع وشراء. أفواه وأرانب. وخلال دقيقة ظهر سامي الفلسطيني لاستقبالهما. وجهٌ آخر يلتقي به فواز بين فترةٍ وأخرى مع كل مشوار تزويد، يرحّب بالفتى ويسمّيهِ: «أبو عص الأزعر»، يعطيه لوحي مثلجات بنكهة الفراولة في نهاية اليوم. ينصتُ سامي إلى أحمد الذي قصَّ عليه حكاية المطاردة، كما لو كان بطل فيلمٍ بوليسي، فيمَ انهمك الأول بفتح قفل الباب الجرّار للمخزن. هواءٌ صقيعي اندفع من الداخل.

يسبقه الشابّان إلى صدر المخزن؛ ثلاجة عملاقة تكبر بيته ثلاث مرّات، مليئة بأعمدة ورفوف معدنية، والكراتين المرصوصة فوق بعضها. يبدأ الثلاثة في تجهيز الطلب، يردّد أحمد أغنيات «السِّت»، سامي يحفظها كلّها. يتسمّر فواز مكانه، البردُ يعضُّ على قلبه.

يناديه سامي: «أبو عص! عصير البرتقان هناك».

يطلب أحمد من فواز أن يتسلّق ليأتيه بالكراتين. أسنانه تصطك، أصابعه ترتجف سرعان ما تزرقّ، يجد نفسه متجمدًا أعلى الثلاجة. لو كان يعرفُ أنه ذاهب للتزويد لارتدى ملابس أثقل، لكنه جاء بالشورت الكردي، بلوزة بكمٍ قصير، ونعلٍ نجدية. أخذ ينفخُ على أصابعه ويثبُ مكانه ليتدفّأ، ثم حمل علبةً ونزل يناولها أحمد. يسأله الصعيدي: «بردت يا واد؟». يرى بوابة المخزن مشرعة أمامه ويستأذن للوقوف خارجًا ريثما يزول البردُ عن عظامِه.

خارجَ بوابة المخزن، على الرّصيف، جلسَ فواز على طرفِ سورٍ واطئ. ينفخُ في يديه ويمتصُّ أشعة الشمس. ثم اختلس نظرة إلى الوانيت عند المخزن المجاور. ماذا تراهم يفعلون؟

ترجّل الثلاثة أخيرًا بعد مشاوراتٍ على ما يبدو. اثنان بفانيلة بيضاء وبنطلون عسكري وبسطار، والآخر بسترة عسكرية وبنطلون أسود. اقتربوا من بوابة المخزن المجاور، كسروا القفلَ ودخلوا.

دقيقة، أقل من دقيقة، ثم خرجوا حاملين كراتين عصير (صَن توب) برتقالية، يعرفها فواز من صورة الدُّب الضاحكِ على الغلاف. مناير تحبُّها.

شرعوا في رصّ الكراتين في الوانيت ثم عادوا لجلبِ المزيد. لُصوص! فكّر وهو يرمقهم بطرف عينه. خرجَ أحمد من المخزن. شفتاه مزرقّتان، ينتفضُ ويتقافزُ في مكانه: «بردِ قوي!»، يرى فواز سرحانًا في الجنود الذين يحملون كراتين العصير ويلقونها في مؤخرة الوانيت. «دُول حراميّة». يهمهمُ، ثم ينظر إلى الفتى ويهمس: «خلينا نرجع جُوّا».

كانا على وشكِ العودةِ عندما مرّت أمامهما مركبة تابعة للشرطة العسكرية، تحملُ رجلين باللّباس العسكري الكابي والبريهة الحمراء. تتوقف المدرّعة خلف الوانيت. يترجّل منها ضابطان ويرى فواز أحد رجال الجيش الشعبي يلقي بالكرتونة من يدهِ ويؤدي التَّحية العسكرية. يرفسهُ الضابط ويأمره بالوقوف حذو الجدار. ثم يدلفُ إلى المخزن ويعودُ قابضًا على الآخرَيْن، ممسكًا بكلٍ من كتفه.

يحسُّ فواز بقلبهِ يرتجّ. كأنّه يحدسُ بما سيراه.

يخرج الضابط مسدّسه من جرابِه ويصوّبه إلى الجنود. واحد، اثنان، ثلاثة؛ ثلاث طلقات، في منتصفِ الرّأس، في ثلاثٍ ثوانٍ أو أقل.

سقطوا فوق بعضهم، قبل أن يعي أيّهم أنه ميّت، قبل أن يشرعوا في البكاء والتوسّل أو الاعتذار حتى.

ماتوا.

يتجمّد الدَّم في عروقِه، يحسُّ بقدميه تتخشَّبان والخدرُ يتملّك أطرافه.

يسمع أحمد يهمس:

«ما تبصّش على الميّتين يا واد».

لكنه لا يقدِر.

ينظر إلى الضَّابط الذي يحملُ الجثامين واحدًا بعد الآخر ويلقي بها في خلفية المركبة.

الضَّابط الآخر ينتزع من الكرتون علبة عصير، يشربه في رشفةٍ واحدة ثم يلقي بالعلبةِ المنبعجة على الرّصيف، على نقعةِ الدّم التي راحت تتسع.

قبل أن تنصرف المركبة، حمل الضابطان بضعة كراتين من العصير، ألقيا بها في المقاعد الخلفية..

(٨)

لم تكن هدى متيقنة مما إذا كانت الرّضيعة قادرة على رؤية وجهها، لكنها كانت تبتسمُ لها تحسبًا.

ستعرفها في كل الأحوال، بينهما خيطُ حليب وبشرة دافئة ورائحة تشبهُ المشمش. تضع يدًا أسفل مؤخرتها والأخرى خلفَ ظهرها، تراقصها في الهواء وتغنّي «يا قميرة الدّودو، الليلة زورينا». عندما تعرّيها من ثيابها، وتبدأ الرَّضيعة في التلويح بذراعيْها، بحركاتٍ تبدو لا إرادية، تبتسمُ هدى ثم تدغدغُ قدميها. بسرورٍ ترى وجهها يستدير ويمتلئ باللحم، لغدٌ صغير ينبتُ أسفل ذقنها. تتنشّق حموضة الحليب في رقبتها وتدهنُ بطنها بزيتِ الزيتون الدافئ، تدلّكُ أطرافها حتى تأخذ الصَّغيرة في البكاء. تعرفُ هدى بأنها جاعت. لكنها تجبرها على الانتظار دقيقة أخرى ريثما تبدّل بيجامتها، وترشُّ الكثير من بودرة التّلك على رقبتها، ثم تتناول عودًا قطنيًا لتنظيف الآذان، تغمسه بماءٍ فاتر وتنظّف به لسان الوليدة. تفقدُ الوليدة صبرها، تصرخُ أكثر فتصبح جاهزة للرضاعة. تدندنُ

هدى بصوتٍ خافت: «نويرة راحت البر، تجيب العيش الأحمر» فيما هي تفك زرّيها العلويين لتلقمها ثديها. قطراتٌ بيضاء تنبتُ على سطحِ حلمتها، لطخ حليبٍ على حمالة صدرها. تدخلُ هدى في الصَّمت بمجرد أن تبدأ الوليدة في الرضاعة، وكأنها ترتحلُ في واقعٍ مفارق. تجربة حسيّة وهي مع ذلك، صوفيّة في الصَّميم.

وفيما الوليدة ترضع، تواصل هدى دغدغة باطنِ قدميها حتى لا تنعس وتغفو قبل أن تنال رضعةً مشبعة. يحدثُ ذلك كله تحت عينيّ الجدة، وبتوجيهاتٍ منها. وبمجرد أن تطمئن بأن كنَّتها تجيد التعامل مع المولودة تعودُ إلى مشاغلها في الجُنينة، تقفُ متكئة على عصاها تشرفُ على ولديها وحفيديها وهم يزرعون البذور، يطعمونَ ديكًا وأربع دجاجات ونصف دزينة من طيور السمّان.

بمجرّد أن تنتهي هدى من الرضاعة، وتشعر بفكّ الصغيرة وقد ارتخى، تريحها على كتفها وتمسح على ظهرها مليًّا حتى تتجشأ، يخرج الهواء من جوفِ الطفلة فتشعر هدى بأنها أُعتِقت. هكذا تصير قادرة على مباشرة عملها الآخر.

تديرُ هدى المفتاح في القفل مرّتين.

تخرجُ الآلة الكاتبة من أسفل سريرها؛ آلة يابانية بأزرارٍ سوداء وغطاء أبيض. تخرج أيضًا كشوفَ أسماء العسكريين، وبطاقاتٍ فارغة من «وزارة الشؤون الاجتماعية». تثبّتُ البطاقة الفارغة بالضاغطِ، ثم تعيّن مستوى السَّطر ونقطة انتهاء الصَّفحة، وتبدأ في طباعة الأسماء واحدًا بعد الآخر. لاحقًا بعد أن ينام البقية، ستخرج

إلى الحوش وتدفن البطاقات في الرمل ليومين حتى تشحب وتبهت وتتجعّد وتبدو أصلية. ثم ستعيدها إلى فاطمة وتأخذ بطاقات وقوائم أسماء جديدة. ستنهمكُ هدى في الأمر لأيام، وسيبدو لها مثل طقسٍ غامض، ما فتئ يعيدها إلى تلك الليلة.

تتذكر عامِر.

لقد رأتهُ قبل أيّام، رأتهُ كله؛ رأت الذنب الذي لا يغتفر، لطخة الظلام في البؤبؤين الجريحين. وصمة الخزي القاني، الندم الفاقع. ورأته من بعيد؛ مواطنًا في بلدٍ محتل، مثلها. بحّارًا شريدًا تحطمت سفينته في اللُج وعلقَ بلوحِ خشب، مثلها أيضًا. سندبادًا يسبحُ نحو جزيرة سيكتشف لاحقًا أنها حُوت. عالمٌ أبديٌ من المفارقات.

ثم تتذكّر نادية، كأنها توشكُ على الاختناق.

لم تجرؤ هدى قبل اليوم على افتقادها، افتقادِ أختٍ على الأقل. عندما أقيم العزاء ونشرت الصُّحف خبر النعي، ذهبت خُفية، متسللة من قبضة زوجها وأمّه، مغطاة ببوشيّة سوداء، وجلست في طرفِ المجلسِ لكيلا يعرفها أحد. لم تقل لها واحدة من المعزيّات: «عظم الله أجرك». وشعرت بأنها دخيلة على الأمر برمته، كأن الألم لا يخصُّها أيضًا. لكنه يخصّها. كانتا تتشاركان النمائم ووصفات الطبخ والأحذية، لهما نفس مقاس القدم، وكانتا تذهبان إلى «سوق الجمعة» مع فواز ومناير بين حين وآخر، وتعرجان على «سوقِ الطيور» ليتسنى لمناير أن تداعب الكتاكيت المصبوغة. لكنَّ خسارتها لا تعني أحدًا، إنها مجرد مزحة بالمقارنة مع ما خسره الآخرون. مناير

ونواف على وجهِ الخصوص، وعلى نحوٍ ما أصبح وجه عامِر أرشيفًا للا نهائية الخسائر. كلما رسمت حدًا لقائمة المفقودات عثرت على جديدٍ منها، غير مرئية وغير منطوقة. لا، لن تسامحه أبدًا. لكنَّها لا تستطيع أن تكرهه، ولا تفهم لماذا.

إنهم يرتكبون الفظائع، دون أن يكونوا سيئين تمامًا. تفكّر هدى، وترى هذه المرة وجه نواف. هل تلومه؟ فقط لو أنَّ الأمر كان بهذه البساطة. لو كان بوسعها أن تشير إلى أي واحد منهم وتقول هو المخطئ. عامر، نادية.. وحتى نواف. لقد حوّله الألم إلى مسخ. تمضي هدى السَّاعات متسائلة أيهم يستحق اللوم فعلًا، دون أن تعثر على جواب، ثم تقرر بأن اللومَ امتياز الآلهة، وهي لا تقدرُ عليه.

(٩)

تغمسُ العجوز منشفة في الماء البارد المخلوط بخلّ التفاح، تضعها مطوية على جبين فوّاز الذي يرتعدُ تحت الأغطية.

صارَ يتمدَّدُ على ظهره طوال اليوم، يحدّق في السَّقف ويرى ثلاثة جنود يسقطون ونُقعة دم تتسع على الرّصيف. لم يتخيّل الفتى أن يكون الموتُ سهلًا إلى هذه الدرجة، أن الوجود هشٌّ والحياة كذبة. لم يعد للعمل في السوق المركزي، ولا يكاد يصدّق أنه حيّ. لكن لماذا ماتوا؟ قال أبوه بأنها أوامر صدام، لأنَّ «عقوبة السرقة هي الإعدام»، وفواز لم يفهم. ألم يسرقوا بلدًا بأكملها؟ لماذا، إذن، مات هؤلاء تحديدًا بسبب علبِ عصير؟

منذ تلك الحادثة قرّر فواز أن الجنود العراقيين ينقسمون إلى صنفين؛ قاتلٌ أو قتيل. وبعد عشر سنواتٍ، عندما سيقصُّ على منابر الأسباب التي جعلته يتحوّل إلى ناشطٍ حقوقيّ، سيحدثها عن إعدام ثلاثة من الجيش الشعبي بسبب كراتين (صن توب)، وقائمة طويلة من الشهداء والأسرى والمفقودين الكويتيين والمقيمين، وأنه

عرف منذها أن أحدًا لا يسلم من الطغاة، وأن بُسطار العالم يدوسُ بكلّ ثقله على العزّل.

بعد التحرير، سيتطوع فواز في «الجمعية الكويتية للدِّفاع عن ضحايا الحرب»، وفي ١٩٩٨ سيتطوّع في «جمعية أهالي الشهداء والأسرى والمفقودين»، في ٢٠٠٣، سنجدهُ ضمن الوفود التي تدلفُ بغداد بمساعدات طبية إثر حربٍ أطلق البعض عليها اسمَ غزو، وأطلق الآخرون عليها اسم تحرير. الذين امتلكوا امتياز التفكير المركّب، قالوا بأنها الاثنان معًا.

سيبدو العالمُ لفواز، دائمًا، مثل حوض أسماكٍ عملاق، حيث الأسماك الكبيرة تأكل الأصغر. ثم سيبذل جهده لمنع ذلك. سيبدو ساذجًا وطيبًا، وجذابًا للنّساء، وسيمتلئ بقصصٍ عجيبة مليئة بالمفارقات، مع تعفّفٍ مزمنٍ عن اللغة الحدّية وكل ما هو خارج الرّماديّ.

ولكن في ذلك اليوم، حيث فواز ما زال ملفوفًا بالأغطية مثل حلزون، يعاني من حمّى انقلابه الوجودي، كان يتحوّل ببطء إلى الرَّجل الذي سيكونه؛ خليط من هدى وطلال، وثلاثة جنود قتلى، وشابٌ صعيدي يهمسُ: «ما تبصش على الميّتين يا واد». لكنه كانُ يبصبصُ على الميّتين طوال الوقت، حتى عندما يسدلُ جفنيه، كأنه يخاف أن ينسى. كانت تلك هي كفّارة وجوده حيًا، أن يصيرَ قلبَ الهجوم في فريقٍ كله أموات.

في ٢٠١٢، سيذهب فواز إلى أمّه يرجوها أن تتدخل لإنقاذ

زواجه، سيجلس الاثنان (الأم وولدها) في الحوشِ أمام «دوّة» الفحم يشويان الكستناء ويسرحان في الجمر، وستفصح له هدى، لأول مرة، عن حقيقة أفكارها، بأنّ نشاطه الحقوقيّ ينطوي على شعورٍ عارمٍ بالذنب، مازوخية يستطيع إخفاءها عن الجميع لكن ليس عن أمّه. ستسأله لماذا يشعرُ بأنَّ حياته غلطة، وأنّ عليهِ أن يموت، وسيطرقُ فواز طويلًا، بوجهٍ مخضوضر من فرطِ التدخين والكرَب، وبدلًا من أن ينسبَ إحساسه بالذنب إلى كتيبة أشباح تعشّش في مسامِه، سيهمسُ بالسَّبب الآخر، السبب الذي فطنَ له لتوّه:

«يمكن السّبب نادية».

وسيسألها سؤالًا راوده لثلاثة وعشرين عامًا؛ هل خطرَ لكِ حقًا، يمّه، بأن ما حدث لنادية يمكن أن يمرّ دون ثمن؟ دون أن ندفع ثمنه كلّنا؟ ليس نواف ومناير فقط.. بل أنا، وأنتِ، وحتى ابنتي التي لم تتم السنة. أي سذاجة يا يمه؟

وأدرك فواز في تلك اللحظة بأن زواجه قد انتهى حقًا.

سيدورُ هذا الحوار بين الأم وولدها بعد ثلاثة وعشرين عامًا، لكنه حتى تلك اللحظة ما زال ملفوفًا بالأغطية، يكابدُ حقيقة العالم.

(١٠)

في ذلك اليوم، تمددت مناير على بطنِها ترسمُ الحوريات والقواقع والجنود الخُضر، بألوانِها الشمعية أو ما بقي منها، وقد تآكل معظمها إلى نصفهِ أو ثلثه. كانت قد نسيت، لسوء حظها، حقيبتها نصف مفتوحة، فلحظت الجدّة -الجالسة على الأريكة ومصحفها في يدها- حافة صورة فوتوغرافية من فتحة السحّاب.

لن تنسى مناير، ما عاشت، تفاصيل ذلك اليوم.

حَبَتْ العجوزُ على أربعٍ، رغم آلام ركبتيها ووهن ساعديها. وعندما وصلت إلى الحقيبة كانت أنفاسها قد صارت أثقل، وبدأ العرقُ يرشحُ من مسامِ أنفها. لكنها تمكنت في نهاية المطاف من فتح الحقيبة، وأخرجت منها الصورة -صورة نادية والحمام ولندن- وتيبّس وجهها.

طوت الصورة وكانت على وشكِ أن تدسّها في حمالة صدرها عندما التفتت مناير.

لحظة فطنت مناير إلى ما حدث، في رمشة عين أو أقل، ألقت الطفلة بالأقلام من يدها، انقضّت على العجوز، وأخذت تضربها بقبضتيها. ستتذكّر مناير طوال حياتِها اليوم الذي ضربت فيهِ جدتها، دونما ندم. حتى إنها عضَّت يدها.

أخذت العجوزُ تردد: «بس يا بنيّة، وخري عني غربلتيني».

ومناير تهذي.

تشابكتا بالأيدي؛ الجدة والحفيدة، «عطيني أمّي»، الجدة ترد «أنا أمك»، تنهال مناير بالضرب على صدرِ العجوز: «إنتي مو أمّي!».

قصَّ فواز ما حدث لأمّه بعد أن انتزع مناير بعيدًا عن الجدة، مدَّدها على ظهرها وجلس على بطنها يثبّت يديها إلى الأرض ويزجرها «عيب مناير! عيب!». فيما صعدت العجوز إلى الطابق العلويّ، وثمة خدوش على وجهها، وآثار أسنان على يدها اليُمنى.

أمضت مناير الساعتين التاليتين ممددة على ظهرها، تضربُ الأرض بيديها وقدميها، تصرخُ من كل قلبها.

أما هدى، فقد صعدت إلى الجدة حاملة نورة بين ذراعيها. وجدتها تلهث على طرف السرير، تثبتُ يمناها على قلبها كأنه سينخلع من مكانه. تسعل وبالكاد تلتقطُ أنفاسها.

بمجرد أن لمحت منيرة كنّتها اغرورقت عيناها.

«حسبي الله عليها، غربلتني هالبنيّة.. أكو بنت تطق أمها؟».

وجهها محتقنٌ، عروقها ناتئة، عيناها حمراوان.

«شفتيها طقّتني؟ والله أبوها لو يدري يذبحها. هذي آخر تربية بنت الحرام. حسبي الله ونعم الوكيل».

ثمَّ سرعان ما تبدأ في ضرب الأمثال؛ «كل حَب يطلع على بذره»، و«العِرق دسّاس». ومزيد من الحوقلةِ المالحة.

تضع هدى الرّضيعة على السرير وتخبُّ إلى المطبخ، تعود بكأس ماء، تجلسُ عند ركبتي العجوز تناولها الكأس: «ذكري الله خالتي». تهمهمُ الجدة: «ألف من ذِكره». يدها ترتعش، ترتشف رشفة وتعيد الكأس إلى كنّتها. يتقوّس فمُها ويختلج خدّاها. تمسح دموعها بطرفِ شيلتها السوداء وتتحشرج: «البنت طالعة على أمها».

تضع هدى يمناها على ركبة العجوز تدلّكها برفق. تخرج العجوز الصورة من جيبها تلوّحُ بها أمام هدى:

«هالصورة منين؟ إحنا مو نظفنا المكان خلاص؟».

اتسعت عينا هدى. لقد فرّغت بنفسها الألبومات والبراويز والأدراج من كل صور نادية. لكن يبدو أنَّ لكلّ مجزرة ناجين.

- علمي علمچ يا خالتي والله..

تختنق العجوز بغصتها:

- ألحين جاوبيني إنتي..

أنفاسها ثقيلة وصوتها يرتعش:

- شنهو اللي أحسن للبنت؟

ثمَّ تلوّح بسبابتها وتردف:

- تكبر وتدري إنَّ هذي أمها؟ تصير بنت بنت الحرام؟ ولا تصير بنتنا.. بنتي أنا؟

تردف هدى:

- أكيد أحسن لها تصير بنتك خالتي!

- أقولها أنا أمّك تقول إنتي مو أمّي.

- هذي جاهِل خالتي ما عليك منها..

تهشُّ الجدة بيدِها. تدفع كنّتها بعيدًا. ترشفُ رشفة ثانية ثم تتمدد على جنبها وتطلب من هدى أن تغطّيها. قلبها ما زال يركض.

تدثر هدى العجوز باللحاف، تطفئ الأبجورة، وقبل أن تنسلّ خارجة تسأل هامسة:

- والصُّورة شلون عليها خالتي؟

تقطّب العجوز؛ أليس الأمر واضحًا؟ الصورة ينبغي أن تُحرق، مثلها مثل كل شيء آخر.

تهزُّ هدى رأسها.

«حاضر، عطيني الصورة أحرِقها».

(١١)

«خلاص.. ألغوا الدينار الكويتي وساووه بالدينار العراقي».

يقولُ طلال على الغداء، وهو يكوّر خليط الأرزِّ بالعدسِ بيده. تتوقف اللُّقمة في طريقها إلى فمِه. «يعني كملت».

السَّابع والعشرون من سبتمبر ٩٠. ستٌ وخمسون يومًا من الاحتلال وما زالت الحكاية في أوّلها. يواصل طلال؛ يفترض أن كل مئة دينار عراقي تساوي ١٥ دينار كويتي، لقد اختزلت الأموالُ إلى خُمس قوّتها الشرائية. كأنَّ الأمر ليس سيئًا بما يكفي. صندوق البطاط بخمسين دينار عراقي. كرتونة البيض بعشرة دنانير.

«يعني فلّسنا». همهمَ نوّاف، وقد خرج صوته مرحًا على نحوٍ شاذ، لأنَّ الواقع عاجزٌ عن اختراق دروعه.

تنهّد طلال، أردفَ؛ أزيدك من الشعر بيت.. أصدروا اليوم قرارين. الأول هو استبدال لوحات السيارات ورخص القيادة الكويتية بأخرى عراقية، والثاني استبدال البطاقة المدنية الكويتية

بأخرى عراقية. عاد ينظرُ إلى أخيه، ينتظر أن يقول شيئًا. ثم اختلسَ نظرة إلى زوجِه. تبدو نائية على نحوٍ غريب، وهي تقلّب الملعقة في فوحِ الدَّجاجةِ المسلوقة. نورة تتمُّ الأربعين يومًا قريبًا، صارت هدى قادرة على الجلوس معهم على الغداء، تتربع على الأرض كالسّابق.

يسأل طلال شقيقه:

- والحل؟

- ما في حل..

- إي شنسوي يعني؟

- سواة الله أبركـ.

- إي شنهي سواة الله؟!

مثل بحارٍ أفلت دفّة المركب، كل الأمور في عينيه سواء.

يسود صمت. ينظر طلال إلى هدى:

- إنتي شرايك هدى؟

تطرقُ وتسأله؛ ماذا سيحدث إذا لم نبدّل لوحات السيارات؟ يهزُّ كتفيه؛ كل شيءٍ جائز.. الاعتقال، مصادرة المركبات، من يدري؟ ربما الإعدام. في كل الأحوال لن نستطيع ملء الخزان بالبنزين في المحطات إذا لم نبدل لوحة السيارة. تسأله كم المهلة؟ يفترض بنا تنفيذ ذلك خلال شهر. تطرقُ قليلًا. لماذا تنظر إلى وجهِ نواف وترى فيه وجه عامِرٍ؟ اللحية ذاتها، والغضون حول العينين، وطريقتهما المضحكة

في المضغ. لكنَّ عامِر ما زال قادرًا على احتضان الطفلة. هل أخطأت عندما اصطحبتها للمرة الثانية في مشوار الأمس؟ تلعنُ نفسها طوال الطريق ثم يتنزّلُ البَرَدُ على قلبها بمجرد أن ترى الصغيرة تركض إليه ليعتصرها بين ذراعيه، ويتناقشان في اختيار اسم مناسب لهريرة عمياء، تسأله الصغيرة ما هو أجمل اسم في العالم؟ يقول مناير. تقول له ما هو أجمل اسم في العالم غير مناير عمّو! «ما يصير أنا والقطوة نفس الاسم!» وتكعكعُ مزهوّة. لا يفكر عامر كثيرًا. يقول «هند». ولا تفكّر الطفلة طويلاً. إذا كان هذا هو أجمل اسم في العالم، بعد اسمها طبعًا، فالهريرة ستحظى به. وإذا لم تستبدل لوحة السيارة كيف ستواصل هدى الذهاب إلى بيت فاطمة؟

«شتفكرين فيه؟».

يسألها طلال، نافدَ الصبر هذه المرّة. لن يعجبك رأيي. قولي. ينبغي أن تبدّل مجموعة صغيرة لوحات سياراتها لخدمة الأغلبية، نبقي على سيارات قليلة للخروج الاضطراري من المنطقة، وتعمل هذه السيارات على تعبئة خزانات البنزين للبقية. نستبدل لوحة السيارة أضمن.

لو لم تكن متورّطة في العمل مع فاطمة لما وافقت على ذلك، لكن الخيانة وجه آخر للمقاومة أحيانًا. لقد فقد العالم نقاءه إلى الأبد.

يوافقها نوّاف، يسود صمت لحظات ثم يفتحُ طلال موضوعًا آخر؛ أمس جاء الجيران بشاحنة قمامة.. موظفون في البلدية على ما

يبدو، ركنوها في الساحة الترابية وطلبوا متطوّعين. أظنّها فكرة مناسبة لفواز، حتى يخرج رأسه قليلًا من الحادث، ثم يردف منفعلًا:

- وبعدين ولدك ليش شايل الدنيا على راسه؟ كل يوم عيالنا يتذبّحون، ما ضاق خلقه إلا على هالچلاب؟!

تردُّ متبرّمة:

- مو ضايق خلقه عليهم، الولد أول مرة يشوف دَم..

- وخير يا طير؟

- فواز صغير..

- فواز ريّال.

ترفع عينين خائفتين إلى طلال:

- موضوع الشاحنة هذا، أمان؟

يفترُّ فم طلال عن ابتسامة ساخرة.

- إي يا بنت الحلال أمان، إذا ليلحين في أمان..

تتخيل هدى فتاها، معلّقًا بشاحنة قمامة تتوقّف كل بضعة أمتار، يلتقط الأكياس السوداء ملثمًا بشماغهِ. ابتسمت بشرود؛ نعم، «لكلٍ حسب حاجته ومن كلٍ حسب مقدرته». لقد حلموا جميعًا بعالمٍ مثل هذا في زمنٍ ما، يا للسخرية. ينقلبُ الواقع من جحيمٍ إلى جنّةٍ في لحظاتٍ بعينها. ويبدو الأمر متسقًا مع أفكارها الأخيرة؛ لقد فقد العالم نقاءه فعلًا.

(١٢)

لو لم تتعطل وحدة التكييف في ذلك اليوم، لكان يمكن للحكاية أن تنحو مسلكًا آخر، ولأمكن تلافي المآلات التي أصبحت، بفضل وحدة التكييف العاطلة، حتمية تقريبًا.

لكن وحدة التكييف تعطّلت، وتحوّل السّردابُ إلى قبرٍ تشهق فيه دون أن تكتفي، وأضحى الهواءُ ثخينًا وخانقًا. فصعد أكثرهم إلى الطابق الأرضيّ ريثما يقوم نوّاف بعمل اللازم. آثَرَ فواز البقاء مع عمّه، لأنه وعد بأن يشرح له طريقة عمل المكيّفات. مناير أيضًا بقيت، فهي لا ترى والدها بمزاجٍ طيب إلا وهو يصلحُ الأشياء، وأحيانًا يسمح لها أن تناوله مطرقةً أو مسمارًا، فتعود مرئية لبعض الوقت.

ورغم أن المكان امتلأ برائحة كامدة لأخياش الأرزّ وفضلات القطط والنفثالين، إلا أنَّ نواف كان في مزاجٍ معقول. وكان يدندنُ نهمةً ما وهو يزيل غطاء وحدة التكييف، ثم نظر إلى ابن أخيه؛ وحدة التكييف تسحب الهواء بمضخة. هذه هي، هل تراها؟ يمرُّ

الهواء بمصفاةٍ ترطّب بالماء برشاش. هذا هو، هل تراه؟ ثم يلتفتُ وراءه ويرى ابنتهُ تبحلق فيه، آملة أن يلفظ اسمها أيضًا، ويتذكّر زوجة أخيه عندما جاءتهُ بالأمس وقالت بأنها تريد الكلام.

طوال نصف ساعة تعرّض نوّاف إلى ما يشبه التقريع من هدى. صعدا إلى المطبخ وجلسا إلى طاولة الطعام. كانت تحملُ الرضيعة بين ذراعيها وتنظرُ إليه بعينين نضّاحتين. «أنا مثل إختك». قالت تؤكّد «أمون عليك، ومناير مثل بنتي». وتضيف. «انتبه لبنتك شوي، البنت تعبانة».. يطأطئ، ينظر إلى بلاطات الأرضية والشقوق التي سوّدها السخام. يتساءل بأي شيءٍ تراه يشعر؟ وكيف سيقولُ للعالم بأنه منخور، وأن قدرته على الإحساس بالأشياء انكمشت إلى شعورين اثنين تقريبًا؛ الكراهية والعار، بتنويعاتٍ طفيفة بين الاثنين. لكن أنّى له، بعد كلّ ما حدث، أن يحبَّ ابنة نادية؟ نعم هي تشبهه كأنها من صلبه، ولكن عامِر يشبهه أيضًا.

نظر ثانية إلى فواز. عاد يشرح؛ يعمل تيار الهواء على تبخير الماء هنا، هذه نسميها المصفاة. بعض الأجهزة تستخدم القش. عندما يبردُ القش يبرد الهواء ويندفع من الجهاز إلى الخارج. كل شيءٍ يبدو بسيطًا ومنطقيًا عندما يتعلق الأمرُ بالآلات. إنها مجموعة علاقات بسيطة حيث «س» تؤدي إلى «ص». سبب ونتيجة، لا أكثر ولا أقل. وإذا كانت الطفلة تعاني فعلًا فهذه نتيجة، لكن من كان السّبب؟

«الحجية ما فيها شي، چنها البخَت».

يقول ممتدحًا عافية وحدة التكييف. يضربُها على جانبها كمن يضربُ مؤخرة فرَس، أو امرأة.

يتطاير غبارٌ فيعطسُ مرّتين. تضحك الصَّغيرة، ينظر إليها للحظة. يبتسمُ فتبالغ في الكركرة.

الآن سنملأ الخزان ببعض الماء ونغسل الفلاتر. ينتزع المصفاة من وحدة التكييف، ويناولها لفواز، يحمرُّ وجه الطفلة. لم ينتبه بأنها مدّت يديها. يهرع فواز لغسلِ المصفاة، ويقفُ الأب مقابل ابنته ينظر إليها بعينين ميّتتين. تقفز الهريرة، في تلك اللحظة، خارج بيتها الكرتوني وتموءُ في طريقها إلى مناير. مصادفة صغيرة أخرى قادرة على التسبب بقيامةٍ جديدة.

«هذي بنت إبليس؟».

سألها نواف، في محاولة غير متوقعة لتبديد الصمت. للتظاهر بأنه أب. شيءٌ قشريٌ لا يزيد سُمكه عن مليمترٍ.

ولم تفهم مناير لماذا يطيبُ لأبيها أن يسمي قطتها «بنت إبليس»، وهل يفعل ذلك لإسعاد خاطر العجوز؟

«لا».

أجابت مناير.

إن لقطتها اسمًا جميلًا، أجمل اسمٍ في العالم.

– اسمها هند.

في البداية مطَّ نواف شفتيه معجبًا بالاسم.

لكنه في اللحظة التالية قطّب فجأة، وشَخَصَ في وجه ابنته، كأنه يراها لأول مرة. بدأ رأسه يقصفه بصورٍ ونغمات. عامر جالسٌ على مساند السدو يحتضن عوده ويدندن؛ *«إنَّ هندٌ يرق منها المحيا. هند اسم منصوب، لكنها في الأغنية مرفوعة، الحبيبة تُرفع والنحو ينحني. لازم يتفلسف خرّيج اللغة العربية. يا عمّي طير، شفهّمك إنت وّياه؟»*.

جفَّ ريقه.

هل يمكن؟

حدجَ الصغيرة بعينين متوثبتين:

- منّورة..

ولم تصدّق مناير أنه يصغّر اسمها، لوهلة امتلأت بالحبِّ ثانية، لوهلةٍ فقط.

- منو إللي سمّى القطوة هند؟

- عمّو..

قالت بحماسة، لكنها ما لبثت أن شعرت، غريزيًا، بأن عليها أن تصمت. بأنَّ من الحكمة أن تصمت. بصعوبةٍ بلعت ريقها وأشاحت بعينيها تتظاهر بأنها غير مرئية.

- عامِر؟

(١٣)

لم تنسَ مناير ما حدث تلك الليلة، لأنها لم تفهمه.

بدت لها ذاكرتها، وهي تنظر إلى الوراء، مثل لج تطفو فيه جزرٌ من كلام، وكان كلامًا جارحًا، مدبّبًا في نهاياتهِ، أجشًا في أصواته.

كانت تلك أول مرة ترى فيها عمّها وخالتها يتشاجران، وخيّل إلى مناير، وفواز أيضًا، أن السَّماء ستسقط، لأن العالم كما تعرفه، كان مثبتًا على أكتاف طلال وهدى. فقد خرج والداها عن المشهد منذ فترة.

التصقت بالجدار بعينين مشرّعتين على الخوف، تسمع عمّها يوبخ زوجه بسبب آلة كاتبة. تتذكر مناير ما قاله: «مو من حقّك تخاطرين بحياتك، بحياتنا كلنا، ما فكّرتي في عيالك؟»، كما تتذكر أن الرَّضيعة بدأت في الصُّراخ، حملها فواز وحاول تقليد أمه فصار يهزها، لكنّ الرضيعة بكت أكثر. وتتذكر أن الجدة انتزعت «نونو» من يدي أخيها، وسألت فجأة: وين نوّاف؟ ولم يجبها أحد.

في تلك اللحظة كان نواف قد اختفى.

بكت هدى تعتذر:

- خالتي والله العظيم ما كنت أدري إن عامِر موجود في بيت نادية.

قالت نادية في زلة لسانٍ، ثم كررت؛ «فاطمة. أقصد فاطمة!»، وتحول وجه العجوز إلى اللون القرمزي، وكان على وشكِ أن يزرقّ.

لم تفهم مناير لماذا ضجَّ البيت بالصياح والمواء والزئير، ولا لماذا ركض نواف صاعدًا الدرجات، أربعًا فأَربع بعد أن عرف اسم القطة. تبعت مناير أباها وسمعته يصرخ: هدى! يا هدى! كانوا في غرفة الضيوف ينتظرون أن يصلح وحدة التكييف. زأر نواف في وجه امرأة أخيه:

«وين عامر؟ متى شفتيه؟!».

تلعثمت هدى دون أن تتمكن من قول شيء. خرج صوته غليظًا وهو يوجه كلماته إلى أخيه: «طلال! قول لمرتك تدلّيني مكانه..».

سأل طلال: «شالسالفة؟» وعرفت هدى بأنَّ عليها أن تكشف أوراقها. نزلت إلى غرفة النفاس وعادت بآلة كاتبة. وعندما سألها طلال: شنو هذا هدى؟ منين الآلة؟

قالت:

- من فاطمة.

في تلك اللحظة اختفى نوّاف.

بدأ طلال في الصراخ: «ليش ما قلتي لي؟ ومن متى تروحين

لهم؟ من متى لنا كلام مع هالأشكال!» وهدى ترد: «فاطمة ما لها ذَنب». في تلك اللحظة فحّت العجوز: «مرتك زَرّ عقلها». وتساءلت مناير إن كانت خالتها مجنونة كما يقولون. بدا لها أن كل ما سمعته من لعلعة رصاص ودويّ قنابل في الشهرين الماضيين، أهون من مشادّة كلامية بين عمّها وزوجته.

بكت هدى وقالت البلد راحت، مو وقته عداوات، وقالت العجوز بأن «ولد السّو يظل طول عمره عدو، ما يفرق عن عيال إبليس اللي ترس الشارع»، وفكرت مناير بأن جدتها تجعل من كل شخص أو قط لا تحبه ابنًا للشيطان. ثم تفاقم بكاء الرضيعة فانتزعتها الجدة من يدي أخيها وذهبت بها إلى غرفتها وأغلقت الباب.

طلال يوجه أصبعه إلى امرأته:

«عاجبك اللي سويتيه؟».

ثمَّ توالت الأسئلة:

ليش ما قلتي لي؟ ومن متى تكلمين فاطمة؟ وشلون تخاطرين بنفسك وبالعيال؟ ولو مفتشين السيارة ولاقين معاك بطاقات عسكريين، شسوي أنا وقتها؟

تلعثمت هدى:

- كنت حريصة، والله كنت حريصة..

- أصلاً شلون يطاوعك قلبك تطلّين بوجهه؟

ولم تدرِ كيف تردّ.

- وشلون تاخذين معاك منايِر؟

انتفخت أوداج طلال، جحظت عيناه. يشير إلى الطفلة التي التصقت بالجدار كسحلية، تعرفُ على نحوٍ ما بأنَّ ما حدث هو غلطتها.

- مناير تحديدًا، شلون تسمحين له..

- طلال!

اعتصر وجهه وحوْقل. ثمَّ جلس على طرفِ الأريكة يغلبه الإنهاك، وقد استوعبَ للتوّ اختفاء أخيه. انقبض قلبه فجأة، في حين راحت هدى تمعنُ في التبرير والشرحِ، لكنه أولاها ظهره وهرعَ ناحية الحوش يبحث عما يؤكد شكوكه.

وعند حوض النخلة، عثر على حفرة فارغة.

(١٤)

كان يطرقُ الباب كمن يرومُ كسره.

عندما فتحت فاطمة الباب، رأت الموتَ في عينيه. «وينه؟»، كان محتقن الوجه، وقد نتأت عروق جبينه وتوهّجت عيناه على نحوٍ مجنون. «خليه يطلع لي ألحين!». أرادت فاطمة أن تغلق الباب لكنّه صدّها بذراعه، دفع الباب حتى ارتطم بكتفِها ودخل. صعد الدرجات وشرّع باب المنزل وهي تتشبّث بذراعِهِ متوسلة: «الله يرضى عليك نوّاف، خلنا فحالنا». دفعها عنه وسار إلى الصالون الداخلي وصاح «وينك؟! اطلع لي ألحين!» تدفقت الشتائم من فمِه رغم أن الصالون فارغ، وعرفَ بأنهُ في السرداب.

نزل الدرجات يردفُ خطاه حتى وجد نفسه أمامه.

لم يكن نواف يرى شيئًا آخر في تلك اللحظات؛ يحيى المنبطح على بطنه، آلة التصوير والبطاقات المزوّرة ورزم الدنانير المرصوصة على الطاولة. أماني التي تلعب بسلحفاة بلاستيكية. لم يسمع فاطمة تنادي أخيها وزوجها. لم يرَ رواق الخيمة ولا أكياس الأرز تحاذي

الجدار. كانت عيناه مسمّرتان على ذلك الوجه؛ الوجه الذي يشبه وجهه.

هرعَ حسين إلى الغرفة المجاورة وعادَ بـ «رشيش»؛ الرّشاش الألماني MP5 الذي تستخدمه الداخلية الكويتية، ما زال يحتفظ به.

عندما أخرج نواف المسدس من جيبهِ كانت الأمور بسيطة داخل رأسه، أفكاره نقية متلألئة، كأنه على وشكِ معالجة اعتوار العالم.

- تشهّد.

قال لعامر، وسمعَ حسين الواقف على يمينه يهدده بصوتٍ غليظ:

- ارجع بيتكم نواف. اقصِر الشر.

لكنه لن يرجع. ولو اقتضى الأمرُ أن يموتا معًا فهو لا يتخيّل نهاية أفضل. لقد أمضى سنة كاملة يتحرّى هذه اللحظة؛ لحظة القصاصَ التامّ، لا الجريمة المخنّثة. فاطمة تتوسّل، حسين يهدّد. ولكنَّ عامِر، كما لو أنه تخيّل المشهد طوال حياته، كان يحفظ دوره جيدًا. ومثل عثّة مجذوبة إلى فانوس، اقترب من نواف وهمس لنفسهِ: «أشهدُ أن لا إله إلا الله». رأى سبطانة المسدّس تقتربُ من صدره، اختلاجات خدّي نواف وجنون عينيه والظلال البنفسجية حولهما. وتساءل إن كان صاحبه قادرًا على قتله فعلًا.

جالت عينا نوّاف في المكان، رأى أموالًا وأوراقًا وآلة تصوير. نخر والقرف يملؤه؛ هل يظنُّ نفسه بطلًا؟

ثم بادرهُ عامر:

- عندك أسئلة أدري.. اسأل وراح أجاوبك.

كأنه يقرأ دخيلته. يحسُّ بسبطانة المسدس تطعنه.

- شالفايدة؟

- اسأل..

تتحجر الكلمات في فمِ نواف:

- كم مرة؟

- ولا مرّة.

- كانت أول مرة؟

- ولا حتى أول مرة.. كانت لحظة ضعف.

يبتلعُ ريقه ثم يضيف:

- أنا اللي غلطت.

- وهي؟

- هي لأ.

يرفع عامر عينيه. يرى ارتعاشة البؤبؤين، يسمعُ عواء الألم الوحشيّ. جرحٌ خام هذا الذي أحدثه في صاحبه، لكن هل يقدر على قتله؟ في حين تسمّرت عينا نوّاف على يحيى الذي بالَ على نفسهِ، ثم أخذ في الصراخ سادًّا أذنيه، وطفقَ يركضُ ناحية الدّرج، يريد الهربَ من البيت..

(١٥)

عاد نوّاف إلى بيتِه ليجد شقيقه في انتظاره.

كان جالسًا على العتباتِ أمام الباب. يضيّق عينيه ليرى، في العتمةِ الوشيكة، إن كان ثوب نواف ملطّخًا بالدّم.

لكنه كان ناصعًا، دونما قطرة واحدة.

وثبَ فورَ رؤيته لأخيه، خرج همسه الليليُّ مثل فحيح. «شصار؟!» يشيرُ إلى الحفرةِ في حوضِ النخلة.

يمط نواف شفتيه ويهز كتفيه. يخرجُ المسدّس من جيبِه يلفه بالكيس ويعيده إلى الحفرة، يكيلُ الرّمل .. خمس رصاصات، لم تنقص واحدة.

تجاسر أخوه وسأله:

- شفته؟

يومئ. يسوّي الترابَ فوق المسدّس ويضع أعوادًا جافة، حصى ..

- شصار عاد!

ما زال شقيقهُ يحدقُ في وجهه.

- ما قدرتْ.

قال.

وكان يرشح بالخزي.

لم يستطع قتله، خاصَّة بعد أن تبوّل يحيى على نفسه وأطلق تلك الصرخات المجنونة وركض هاربًا.

يتنفّس طلال الصعداء.

- ما فتّشوك؟

يصعّر نواف خدّه.

- خلاص الجماعة حفظوني.. صاروا يسموني «أبو هريرة»، يسئلوني وين البزونة؟

ينخرُ ويهزُّ رأسه. يتهدج صوت طلال فجأة:

- لو صايدينك مع المسدّس..

يشيح نواف عن أخيه. القرف يملأه. لا يكاد يصدّق أنه وقف أمامه عاجزًا. اكتفى بأن بصقَ في وجهه وغادَر. وقبل أن ينصرف سمع حسين يقول: «اقصِر الشر». كيف أصبحَ نواف هو الشخص الشرير بعد كل ما حدث؟

يهمسُ:

- كان يدافع عنها.

- عامِر؟

- يقول هو اللي ضعف، هي لأ.

ثم ينظر إلى وجه أخيه. في عينيه فراغٌ ميّت.

- عامِر كذّاب.

قال أخيرًا. ارتسمت على وجهه ابتسامة فاترة.

- أنا شفت كل شي..

الفصل الرابع

في بطنِ الحوت

(١)

في ذلك اليوم، قرّر عامِر أن يسكر.

كان قد غادرَ قبل مغيبِ الشَّمس. آخذًا معه علبتي سجائر «سومَر»، وشماغه ملتفٌ حول عنقِه. هواءُ يناير يقرصُ جلده، وخواءٌ يعضُّ على قلبِه. يمكن القول بأنَّ عامر قد قرّر، في ذلك اليوم، أن يسقط في الأسى وأن يكفَّ عن التأسّي، تحت ذريعة أنَّ الرَّجل لا يستطيع أن يكون رجلًا طوال الوقت، وقد استيقظ في ذلك الصباح وثمة عدنية عتيقة تدوِّمُ في رأسِهِ، أصابعه صدئة بلا أوتار، لكنَّه ما زال يدندنُ، بأنَّه «مضنى وليس به حراك».

وهكذا قرّر الذهاب إلى «دوّار العظام»، إذ سبق أن وجد فيه «عَرقًا» وربما لو حالفه بعض الحظ؛ زجاجة «ويسكي». لو أنَّ فاطمة تسمحُ بأن يجلبَ عوده من البيت القديم ليعزفَ في الليل، لما تعِب إلى هذا الحد. لكنَّ الغناء هو «صوت الشيطان»، وهذا الاحتلال هو محصّلة معاصينا، وهي لن تسمح بالحرام في بيتِها. لو أنها تعرف كم مرة تمدَّد على السَّطح وسكر؟ مسكينة فاطمة. هي

من «أهل الله» كما يقولون، مجبولة على حسنِ الظن، حتى بأخيها الكلب.

يعرفُ بأنه متعب، يشتاق عودَه، رغم أن لكل زمنٍ أغنياته، وليس هذا زمن العدنيات.

وصلتهُ مرَّة أشرطة لتسجيلات أغنياتٍ وطنيّة؛ «قل للرفاقِ الغارسين رماحهم بظهورنا». أغانٍ تغصُّ بالعويل وإن لم تجهر به. أغانٍ دامية ورمادية. شمَّ فيها رائحة البارودِ لا البحر. الخيانة لا الحبّ. وبدأ قلبه يفيضُ بالاشمئزاز؛ ليس من الاحتلالِ فحسب، بل من نفسه أيضًا.

في الأيام الماضية، صار يتذكّر مناكفاتهِ مع طلال وهدى. ولسببٍ بديهيّ، أبقى نواف خارج المشهد. إذ ينبغي إخراجه من القصّة حتى يصبح التذكّر ممكنًا. كان يتذكّر كم سخِر، بتلذذٍ، طوال سنواتِ الحرب العراقية الإيرانيّة من الولاءِ العروبيّ لرفاقِه. «يا عمّي روح زين!»، كان يقول لطلال، وقد وجد القومية العربية مسطّحة على نحوٍ لا يغتفر. تعال جاوبني يا لوح.. ارتفع صراخه؛ ما الذي يجعل العربي المغربيّ أو الجزائري أقربَ إليّ في الكويت من الإيراني والهندي والبلوشي؟ يمكنك التظاهر إلى الأبد بأنَّ الجغرافيا خارج الحسبة، لكنك تعرفُ بأن هذا محض تدليس. تجادله هدى؛ أيهما أفضل سياسيًا، أن تكون جزءًا من أمّة تمتدّ من المحيط إلى الخليج، أم أن.. يهزُّ رأسه؛ والله هدى أنا غلطان، عبالي تفهمين، طلعتي حمارة مثل زوجك. يضحكُ نواف (لكنه

يستبدل وجه نواف بوجه طلال) ويجعل طلال هو من يقذفُ عليه الوسادة، رغم أنه في ذلك الحين كان يتحرك في دوائر حول الطاولة، لأنه لا يستطيع مناقشة أفكاره دون أن يصدّع رؤوس العالمين. ثم نظر إلى هدى وقال؛ انتماؤكم العروبي هذا يشبه حمل سلة تسوّق مليئة بالتفاح المدوّد، فأنا لا أستطيع أن أضع مجنونًا مثل صدام حسين في سلة واحدة مع جمال عبدالـ.. قاطعه طلال؛ ردّينا على صدام؟

كانَ زمنًا آخر، وليس الأمر أنه يشعر بالانتصار لأنَّه كان على حق، بل يشعر، على العكس، بأنه مهزوم لأنه كان على حق، ويتذكر كيف أمضى أول شهرين يتأسّى بمنشورات المقاومة؛ اتفاق المقاومة الكويتية والمعارضة العراقية، تحذير من تخوين المواطنين واتهامهم بالتعاون مع العدو. تابع لاحقًا أحداث مؤتمر جدة وأحسَّ بسعادة غير مفهومة وهو يسمعُ بأنَّ «العروبة هي القدر الذي لا نريد ولا نستطيع الفكاك منه». وعرف بأنَّ جزءًا منه ما زال ساذجًا، يريد أن يكون ساذجًا، يريدُ أن يتجرع المخدّر السامّ ويحلم بما لن يحدث. لكنه يعرفُ أيضًا بأن الشِّعارات هي محضُ تزوير لحقائق ملتبسة، فجارهم عبدالمحسن العظيمي، ومنذ أن حدَّدت أمريكا موعدًا لانسحاب العراق، لا يتحدث إلا عن الخونة والخيانات، كأنَّ هذا ما ينقصه.

عندما وصل إلى نقطة السَّيطرة، كانت عناصر الحرس الجمهوري هذه المرَّة هي التي تقومُ بالتفتيش. كان رتل السياراتِ طويلًا. أشعل

سيجارة يترقّب دورهُ سئِمًا، يهمهم لحنًا هجينًا. لم يفهم لماذا كانوا يفتّشون جميع السيّارات في ذلك اليوم. دققوا في بطاقات الهوية، ونبشوا صناديق السيارات، واحدة بعد الأخرى.

عامر لم يشعر بالقلق، ليس بعد.

على مبعدة ثلاث سياراتٍ إلى الأمام، فوجئ بأبواب إحدى السيارات تُفتح. ثلاث سيّداتٍ ترجّلن من المقاعد الخلفية ورحن، فيما بعد له، يفتّشن عن شيء ضاع. كان الهلعُ باديًا على الأوجه وبدأ عامر يحوقِل. ما لبث أن ترجّل فتى يبدو في الخامسة عشرة، وصاروا يفتشون تحت المقاعد. تسارع وجيبُ قلبه وهو يرى الضابط ينتبه إليهم. يشمُّ رائحة الخوف على مبعدة أمتار. يرتاب. الرجل خلف المقود نزل أيضًا وصار يبحثُ تحت المكابح، ثم يعاود نبش جيوبه، ويصرخ في إحداهن أن تبحث في حقيبة يدها مرة أخرى.

لحظهم جنود نقطة السيطرة. بدأت يدُ أحدهم تتحرّك سامحة بمرورِ جميع السَّيارات وعينه مثبتة على العائلة المذعورة. شيءٌ ما في قلبِه انتفض. «والله العظيم ما يصير! مو چذي عاد!». عندما أمر الضابط العائلة بالوقوف على الرّصيف، وبدأ الجنود في تفتيش المركبة، وأُمر الرجل وولده برفع أياديهم فوق رؤوسهم، وبدأت النساء في التوسّل، ترجّل عامِر من سيارته. صوتٌ في داخله أخبره بأنها حماقة، لكن إحساسه بالقرف غلبه.

«عسى ما شرّ أخوي؟».

ربّما ظنَّ للحظة أنه يستطيع اجتراح معجزة.

لكنَّ معجزة لم تقع. والضابط صاحَ في وجهه: «وِلك إنت بيا صِفة تحچي ويّايَ؟» وأمره بالعودة إلى سيارته، ولولا أنَّ عامِر تظاهر بالغباء وأخذ يبسبسُ: «بس حرام» و«بس ما يصير» و«بس كل مشكلة لها حل» وبدا للضابط دبِقًا وثقيل ظلٍ وفضوليًا على نحوٍ لا يحتمل، فصاحَ به «إنت ما إلك علاقة، تفهم لولا؟ امشي!»، ولما واصل عامِر الإلحاح مثل طفلٍ بليد فاض الأمر بالضابط وزجر في وجهه:

«وقّف بصفّ الحايط، إيدك فوق!».

(٢)

في ظهيرة ذلك اليوم، اكتشفت العجوزُ كتلة من براز القطط على سجّادة صلاتِها. كانت قد تركتها مفرودة، وثبتت المصحفَ على الحامِل الخشبيّ، وغابت في المطبخ لتعدّ هريس الجزر للرضيعة. عندما عادت التقط أنفها تلك الرائحة التي لا يخطئ المرءُ بشأنها.

كانت لطخة البراز تعني نهاية الهدنة وبداية الحرب، أو تعني نهاية حقبةٍ وابتداء أخرى. أو تعني ببساطة أن قلب مناير سينكسر. فاضطرت أن تحبسَ نفسها في الحَمَّام مع الهريرة، لأنها تفضّل الموت على الفراق، ولأنها كانت وفق تقديرات الطفلة؛ الكائن الوحيد الذي يراها حقًا.

خلال دقائق تكدّست العائلة خلف الباب، يريدون طرد الهريرة وتطييب خاطر الجدة التي راحت تحوقلُ وتشتمُ بقدر ما تسمحُ به أخلاقها. نواف وطلال تحديدًا، كانا يشعران (مثل صبيين مذعورين) بأنَّ عليهما إنقاذ الكوكبِ من الانتهاء، فهذا دون مبالغة، هو ما يعنيه غضبُ الأمّهات؛ ابتداءً بالحرمان من التوفيق الإلهي وانتهاءً بالعذاب

المقيمِ في جهنم. الأمر الذي يفسّر كمّ القبلات الدَّبقة التي انهالت على رأس العجوز وهي تضربُ باب الحمام المقفل بعصاها وتردّد: «يا أنا يا بنت إبليس بهالبيت».

وسمعت هدى تتوسّل إلى العجوز.

- يا خالتي طولي بالِك، البنت مسكينة وما عندها أحد.

في ذلك اليوم، عرفت مناير كل شيء، دون أن تفهم منه شيئًا.

لكنها تتذكر كل ما قيل.

تعالى صوتُ العجوز:

- مالها أحد ليش؟ قاطّينها بالشارع؟ إحنا كلنا مو مكفّينها؟

يتدخل طلال:

- يمه هدى ما تقصد.

- إلا تقصد.. ليش أنا اللي قلت لأمها روحي سوّي الحرام؟

يزمجر نواف: «خلاص!». تتخيّل مناير أباها يحرّك سبابته في وجهِ هدى: «هالطّاري ما ينفتح مرّة ثانية!».

ثم يسود صمتٌ لثوانٍ، ويبدأ الباب في الارتجاج خلف ظهرها. «منابر فتحي الباب!»، أحست بوهنٍ في ذراعيها وهي تضمُّ القطة التي تحاول التملُّص وتخمشُ ظاهر يدها. عمياء جاهلة، لا تعرفُ بأنهم سيلقون بها في الشارع، ولا تعرف بأن في الشارع جنودًا ورشاشاتٍ ودبابات. يتخشَّبُ جسدها على بلاط الحمام، تحسُّ بأصواتهم تخفتُ

لحظة ثم تسمع والدها يسأل: «وين صندوق العدّة؟»، وتعرفُ بأنّه سيفتح الباب رغم كل شيء. فالأشياء لا تستعصي عليه إذا حصل على مفكٍّ ومنشار.

تسند ظهرها إلى الجدار وتُثبت الباب بقدميها.

دقائق وتسمعُ خشخشة المفكّ يخلخلُ مقبض الباب، تحسُّ بالباب يُفتح، تدفع بقدميها ضدّهم جميعًا؛ لا صوت، ولا حتى دمعة. يطلُّ نواف ويراها قاعدةً على الأرض تمدُّ ساقيها عكس اتجاه الباب، ويرى ما لا تراه؛ وجهها الأرجواني، شفتيها المتدليتين إلى أسفل، الكراهية في عينيها.

تهمس هدى: «بالعدال عليها نوّاف».

وترى يده تمتدُّ داخلًا لتدفع ساقيها -الهزيلتين على نحوٍ مضحك- بعيدًا عن الباب، يعثر على القطة مخبّأة خلف ظهرها، يحملُها مثل منديلٍ قذر ويخرج.

مواءٌ يخفت تدريجيًا ثم يختفي.

(٣)

فاطمة جالسة على العتبة تتحرّى أوبةَ حسين. أطرافها ترتعشُ وعيناها تغوران. بين الفينة والأخرى تشرّع باب الحوش وتلقي نظرة أخرى على الشارع. تتذكر ما قالهُ شقيقها قبل أن يذهب. «مشوار ساعة وراجع»، قال بلا شروحاتٍ ولا تفاصيل. ترتجفُ شفتاها تردّد ابتهالاتٍ ناقصة. «اللهم يا جامعَ النّاس ليومٍ لا ريبَ فيه».. كانت تدعو، كأنها تحدسُ بضياعِه، وتفكّر بأمّها وأبيها، بولولةِ أمّها وصمت أبيها. كأنّها أضاعت ابنًا، كأنَّ الأمر برمّتهِ غلطتها. «يا رب! يا رب!» تعتصرُ رأسها بيديها تهزُّه يمنةً ويُسرة. تحاولُ أن تتذكر؛ لأي شيء خرج؟ هل تنقصه السَّجائر؟ هل ذهب لزيارة خالٍ أو عم؟ تسترجعُ شجارهما قبل أيام عندما استأذنها بالعودة إلى البيت القديم ليجلبَ عوده. يومها قال: «مخنوق! زهقان! لايعة چبدي!». تراهُ ذهب إلى هناك؟ ولماذا لم يعد؟ مرّت ستُّ ساعات، الشمسُ توشك أن تغيب، وفاطمة متدثّرة بشالها الصوفيّ جالسة على عتبةِ الباب تقلّبُ في السماء عينين جاحظتين.

السماءِ البنفسجية الكامِدة. البردُ الرَّماديّ. صياح ديكة الجيران. لو حدثَ له شيء، ماذا عساها تفعل؟ «يا ربّي يا حبيبي». كانت تبتهل، عاجزة عن المضيّ في دعواتِها حتى أطرافِ اللغة.

خرج حسين مع جارهم عبدالمحسن للبحث عنه منذ ساعات، وفاطمة تنتظر. أتت جارتها أم برّاك لمجالستها ساعة ثم انصرفت، محرجة ومضطرّة، بعد أن بدأ ولدها جاسم في البكاء. اصطحبت معها يحيى وأماني. لأن فاطمة لا تستطيع أن تباشر الطفلين، لأن فاطمة تحتاج أن تبكي.

توقفت سيارة أمام البيت، سمعت فاطمة صوتَ عبدالمحسن يودّع زوجها ويقول «الله كريم»، وقبل أن تثب من مكانها فُتحت البوابة. نظرة واحدة إلى وجه حسين كانت كافية لكي تفهمَ سوءَ الموقف. انتصبت واقفة تتملى في عينيه؛ يباسٌ في عينيه.

- بشّر حسين.. في أخبار؟

رغم أنها تعرفُ بأن الأخبار التي يحملها هي من الصنف الذي يكسر الظَّهر. جلسَ على العتبة بجانبها وأشار إليها كي تجلس. «قِعدي» قال، كأنها على وشكِ تلقّي خبر موتِه. ثمَّ أردف حسين «رحنا البيت القديم. ما له أثر، سألنا عنه في المخفر، قالوا لنا ما يعرفون شي». وانقبض قلبها. هل سينتهي شقيقها في إحدى تلك القصص التي يختفي فيها المرءُ إلى الأبد؟

- ترجّيناهم..

قال، ثم ضغط جفنيهِ بإبهامه وسبّابته، وزفر.

- تالي في مقدّم بالمخفر تعاطف معانا، عنده علاقات مع الاستخبارات، سوى كمّ اتّصال..

يصمت هنيهة. يبتلعُ ريقه. تحسُّ فاطمة بقلبِها يهوي، تمتلئ عيناها بالدمع.

- وبعدين؟

يزمُّ حسين شفتيه. كأنه لا يريد أن يقول:

- يقولون معتقل في «المشاتِل».

كلاهما، حسين وفاطمة، يعرفُ معنى أن ينتهي الأمر بالمرء في «المشاتل»، فالمكان الذي خصّص في زمنٍ سابق لبيع النخيل وشتلات الريحانِ والياسمين، صار اليوم معتقلًا للاستخبارات العراقية. قصصٌ مروّعة تخرج من ذلك المكان؛ الحرق بالأسيد والقطع بالمناشير وفقء الأعين وقلع الأظافر. لكنه على الأقل ما زال حيًّا، وهي على الأقل تعرفُ مكانه. تبكي من قلبِها، لكنها بعد قليلٍ تكفكفُ دموعها بطرف شالها، تسأل:

- العمل؟

- نكلّم الناس.. نشوف منو يقدر يسوّي شي.

خلال دقائق كانت تدير بسبابتها حلقة الأرقام في الهاتف، تتصل بكل الأسماء التي سجّلتها في دفترها الأسود. الأقارب، الأصدقاء، والأعداء حتى. لا وقتَ للاستغراق في التفاصيل، إذا كان بوسع الشيطان أن ينقذ أخاها، فستتصل به..

(٤)

القمرُ أحدب ونصف شفّاف.

صقيعُ يناير يلفحُ وجه نواف فليفُّ رأسه بالشماغ ويدسُّ يديه في جيبي دشداشته. بخار يتصاعد من فيهِ. ينظرُ إلى هدى بطرفِ عينه، يتساءل عن أي شيءٍ تريد الحديث، ولماذا أصرّت أن يبقى الأمر بينهما، ولماذا ترتجفُ هكذا وكأنها أتت على مصيبةٍ أخرى. كان جالسًا كعادته يلصق أذنه بالراديو ينتظر أخبارًا عن الرَّد العراقي على المبادرة الأمريكية التي تصدرت الأخبار لثلاثة أيام. محاولات منع حدوث حرب. بصيصٌ هزيل. اقتربت هدى وهمست: «نواف، أبيك بكلمة راس»، ثم خرجت إلى الحوش متوارية مثل جنيّة. لحقَ بها، متسائلًا أيُّ نوعٍ من الأسرار هذا الذي تخفيه هدى عن طلال. وخطر له أنها على وشك إلقاء محاضرة ثانية بشأن مناير، الطفلة التي تحوّلت إلى كائنٍ مجوّف ومنطفئ منذ تخلّص من قطّتها. ولا يفهم ما الذي يفترض به أن يفعله؟ وفكّر بأمّه المسكينة التي تعايشت مع القطة على مضض طوال أشهر. لقد قام بالتصرف الصحيح، ولن

يحتمل تدخلًا آخر بشأن علاقته بابنته، حتى لو لم تكن هناك أي علاقة من هذا القبيل. سألها: «خير هدى؟» مهيئًا نفسه لزجرها، وفكّر لحظتها بأنه يكرهُ ثلاثة أشياء في حياته: النساء، والمستشرفين، والنساء. «خير هدى؟».

أطرقت هدى، واستطاع أن يرى إلى أي درجة كانت خائفة. الأمر الذي جعل صدرهُ ينتفخ، ويحسُّ بخدرٍ غريب على جانبيّ وجهه.

«أدري إنك رحت له..».

فوجئ نواف بما سمع. أحسَّ بغضبهِ ينتفشُ ويمتلئ. ألا تفهم هذه الحمارة شيئًا؟ أنّى لها، مرة بعد مرّة، أن تذكره أمامه؟ هل تستمع هذه المرأة بإذلاله طوال الوقت، أم أنها غبية وحسب؟

- أدري إنك رحت له، وأخذت المسدس، وأدري إنك ما..

ثم ترفع عينيها بوجلٍ إلى وجهه.

- المراد؟

- عامِر معتقل.

تشخصُ عيناه. يفغرُ فاه.

- صادوه؟

- أمس الظهر..

- وإنتي شدرّاچ؟

- فاطمة اتصلت..

- معتقل وين؟

- في المشاتِل..

يجلسُ نواف على طرفِ الدكة ويبحلقُ في الظلام. يسمع مواءً بعيدًا ونقيق دجاج. يسرح في ارتعاشات الضوء في اسطوانةِ النيون. ولا فكرة واحدة -صافية ومفهومة- تنبتُ في رأسه.

أسئلة آلية تتتابع؛ هل وجدوا في حوزته أسلحة؟ لا. منشورات، أشرطة، آلة كاتبة، آلة تسجيل، كاميرا، أي شيء من ذلك؟ تقول لا. يطرقُ برأسه. يسودُ الصمت دقيقة، ثم يلتفت إلى امرأة أخيه يسألها بصوتٍ بارد:

- وليش تقولين لي؟ خاين وأخذ جزاه.

تهمسُ هدى:

- مو من قلبِك.

- شتعرفين عني إنتي؟

- أدري إنَّ قلبك طيّب.

ينخر.. إن امرأة أخيه، السَّاذجة على نحو لا يغتفر، تطرق الباب الخطأ. ليست المسألة أنه «طيّب»، بل العكس تمامًا، فما يزعجه هو أن تكون نهاية عامِر بأيدي هؤلاء، أن يموتَ بطلًا، ويتحول إلى شهيد، وأن ينسى الجميعُ حقيقته.

- هالحيوان لازم يطلع..

يتهلّل وجه هدى.

- كنت أدري قلبك طيّب.

يثبُ من مكانِه ويدلف البيت. تتبعه هدى، تراهُ يطرق باب غرفةِ أمه، يتحقق من استغراقها في سباتها فيتسلل على أطرافِ أصابعه. يقفُ على كرسيّ منضدة الزينة ويدير الغطاء الطرفي لأسطوانة الستائر، يدسُّ أصبعيه داخل الأسطوانة ويستخرج رُزم الدنانير المخبأة في أعماقها، يدفع الأسطوانة من منتصفها فتميل ناحيته وتتساقط الأموال بين يديهِ. هدى تنتظره خارج غرفةِ الجدة، تبحلق فيه بعينين واسعتين. يدسُّ الأموال في جيبيه ويعيد كل شيء آخر في مكانه؛ كرسي الزينة، الستائر، حتى ثنية السجادة تحت قدميه.

يعيد إغلاق الباب على غرفةِ أمه. يلوّح بسبابته في وجه هدى:

«لا تقولين لأحد عن اللي شفتيه».

ثمَّ يعودُ إلى السرداب. سينامُ الآن وغدًا يخرج للعثور على شخصٍ مناسب، يقدم له رشوة مناسبة، ويستخرج هذا السافل الحقير من المعتقل. فاللعنة على هذا العالم إذا ذهب أمثالُ هذا الخائن.. شهداء.

(٥)

عند نقطة السَّيطرة، ابتسم له الجنديُّ مهلّلًا: «أبو هريرة!» وكالعادة سأله: «وين البزونة؟»، ولم يقل بأنه أعادها إلى الشارع لأنها تبرزت على سجادة الصَّلاة، بل افتعل ابتسامة وطلب منه، بتأدّبٍ جم، أن يستدعي الضابط ليحدثه في أمرٍ خاص، وعندما خرج الضابطُ من الكُشك، واقتربَ من النافذة وسأله متبسّمًا «أبو هريرة شلونَك؟ خير أكو شِي؟» أحسَّ نواف بلسانه مطواعًا: «خويا تجي وياي فد دقيقة؟ البارحة أكو حرامية كسروا باب البيت وأريد أقدم بلاغ».

كلاهما يعرفُ بأن الآخر يعرف. فهذا مشهد تمثيلي آخر في المسرحية الهزلية الممتدة منذ ستة أشهر. الضابط يعرفُ بأن البلاغات تقدم في المخفر، وأن عليهِ أن يبقى مغروسًا في مكانه مثل وتدٍ ليسأل الرائح والغادي: «لويش مو مغيرين لوحات السيارات؟»، وأن يتحقَّق من الأسماء في بطاقات الهوية وإذا ما اشتبه باسمٍ متورط في الجيش أو الشرطة أو المقاومة يقوم باعتقاله. إن مهامه واضحة،

لكنَّ نواف يدسُّ يده في جيبهِ ويبرز رزمة دنانير ويهمهمُ «ماقدر أسولف ويّاك هني». يطلُّ الآخر عبر النافذة ثم يطلبُ من نواف أن ينتظره في مواقف السيارات أمام الخبّاز.

بعد نصف ساعة يصل الضابط، يطرقُ النافذة مرّتين ثم يجلس في المقعد الأمامي. قبل أن يقول نواف كلمة واحدة، يخرج رزم دنانير من جيوبه، ما يعادل خمسة آلاف دولار، يضعها في حِجر الضابط، ويعرفُ بأن في وسعِ الآخر أن يطلق رصاصة واحدة إلى رأسه الآن، وأن يأخذ النقود ويهرب بها دون أن يعده بشيء في المقابل. يعرفُ بأن الطرف الأقوى دائمًا هو الطرف الذي يملك المسدس، وليس النقود بالضرورة، لكن هذه مجرد أفكار. كان يحسُّ بأنه في مأمن، ربما بفضل قطة عمياء. فقد تحوّل نواف، في أعين العساكر في نقطة السيطرة، إلى شخصية كرتونية. شيءٌ يشبه جحا وحماره، مادة للتندّر، يستحضرها الجنود لكسرِ الملل والوحدة والشوق إلى الأمّهات. وما زالت هناك القوة الناعمة للعُرف، وبقية باقية من الذَّوق.

تكلّم نواف وارتجف صوته قليلًا:

- طالبك خدمة صغيرونة.

يبتسم الضابطُ الشاب وهو يقلب الأوراق النقدية بيديه:

- متأكد صغيرونة؟

ثم يمازحه:

- تعرف لو غيري يلاقي عندك هالفلوس شيصير؟

- إعدام؟

- عليك نورْ.

- بس إنت فيك الخير.

يضحك الرجل. يسأله نواف إمعانًا في التودّد:

- شِسمك بالخير؟

- جوادْ.

يتحشرج صوته عندما يبدأ في التوسّل:

- عليك الله نقيب جوادْ اطّلعلي ولد خالتي من المشاتل، رايدها منك لتخزيني لخاطر الله..

وقبل أن يقاطعه النقيب، يسترسل نواف؛ ما عليهِ شي، لا هو مقاومة ولا شي. واحد طالع من بيته في أمان الله.. «كظُّوه» ربعكم، ما يصير ياخوي. هذا عنده ست أولاد «خطية»، واحد منهم فيه تخلف عقلي، منين زوجته المسكينة تصرف على أولاده؟ وأمّه قلبها محروگ والله. وأنا أعرف إنك ولد عشيرة وتعرف النَّخوة..

يطرقُ جواد لثوانٍ. لم يكن نواف مضطرًا لاختراع قصة تراجيدية لإقناعه. الدنانير تكفي لإخراجِ أسير تافه واستبداله بأيّ آخر من الشارع إن استوجب الأمر. لا بأس، لا مشكلة. لكنه يتظاهر بأنه يقلب الأمر في رأسه، فقط ليوحي بصعوبة الموقف. يخرجُ نواف

رزمة أخرى من جيبه الخلفي ويلقيها في حجر جواد. يقول هذه لإقناع الضباط في المعتقل، ووعده بما يعادل هذا المبلغ إذا خرج ابن خالته «بالسَّلامة».

يسأله النقيب أخيرًا:

- ولد خالتك هايَ.. شِسمه؟

(٦)

أسند عامر رأسه إلى الجدار، كتفه لصيقٌ بكتفِ الرَّجل إلى جانبه. يشمُّ رائحة الإسمنتِ والعرق والجواربِ والدَّم المتجلط أحيانًا. تدوّم فوقهم شائعاتٌ بشأن نقلهم إلى بغداد.

كل يوم يزداد عددهم بالعشرات. يغمضُ ويرى أخته بعينِ قلبه، تروح وتجيء في الحوش، تشرِّعُ الباب المرّة تلو الأخرى وتطلُّ على الشارع. يكادُ يسمعها تبسبسُ بالبسملاتِ والأدعية، يحسُّ بالبلل في عينيها. الرجل عن يمينهِ يرتّلُ بصوتٍ رخيم آياتٍ من القرآن، يرجوهُ أن يرفع صوته قليلًا وينصت: «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ». يغمضُ ويرى نفسه في بطنِ حوت، أحماض معدته الكاوية تذيبهُ على مهل، وفكّر بأنَّ كل شيءٍ يوشك أن ينتهي، وصار مُرغمًا يتذكّر نادية. ليس المرأة التي ماتت بسبب حماقته، بل المرأة الأخرى، التي تجيد الطبخ وتحبُّ السامري وتحلمُ بكتابةِ رواية. كانت تلك هي نادية التي تخصّه، وفوجئ بنفسه قادرًا على استخلاصها لنفسهِ وهو يستند إلى جدارٍ

إسمنتيّ، يداه في جيبيه وعلبة سجائره فارغة. ولأول مرّة لم يراودهُ الشعور بأنه خائن، بل محض رجلٍ يشبه نفسه.

إنها ثلاثة أيام، يذكّر نفسه، ثلاثة أيام فقط. بعض رفاق الزنزانة أمضوا في هذه الزريبةِ شهورًا، أكثرهم يبدو أكثر تماسكًا منه. ركبهم لا ترتجفُ، ويقدرون على الابتسام. رغم أنَّ أجسادهم تمتلئ بالكدماتِ أحيانًا ورغم حروق السجائر على المعاصمِ ورغم الصُّراخ في الليل. حتى الآن لم يكن من الأهمية بحيثُ يقومون بتعذيبه. لكنه في تلك الحفرةِ تحت الأرض، في بطنِ الحوت الذي غيّبه تمامًا، رأى رجالًا من نوعٍ آخر، يُمضون الليالي في حلّ الأحجيات، يقيمون المسابقات؛ من الصَّحابي الذي أسره مسيلمة الكذاب في اليمامة، وقطع أعضاءه عضوًا عضوًا. كم يومًا لبث أهل الكهفِ نيامًا؟ ما اسم أبو جهل قبل الإسلام؟ ماذا يُسمّى صغير الضفدع؟ كان مبتهجًا مثل طفل وهو يقول: شرغوف. ثمَّ تميلُ اللعبة قليلًا إلى جهة الأغنيات، وكان قادرًا على تخمين الأغنية كلما دندن أحدهم لحنًا. حتى الذين تحسّسوا من الغناءِ في هذا الظرف تمايلت رؤوسهم ولمعت أعينهم عندما دندنَ: «بربك قل لي لماذا الجفا، ومن ذا على صدّنا علّمك؟».

ورغمَ أنهم كانوا يسمعون في الليل جؤارًا مروّعًا، صوت قرعٍ وضربٍ وأحيانًا لعلعة رصاص، وأنه سمعَ في إحدى الليالي بكاء نساء. ورغم أنَّ الحرس كانوا يستدعون بعض رفاقه ثمَّ لا يعودون، ولا يدري إن كانوا قد رجعوا إلى بيوتهم أحياءً أم جثامين، إلا أنَّه

عرف سريعًا بأنَّ عليه أن يعرفَ الأقل، أن يطفو فوق التفاصيل، ألا يفكّر إلى أي حدٍ ستعشش هذه الأيام في مسامِه. اتسمت تلك الأيامُ على قصرِها، وعلى طولها أيضًا، بالتقلُّب. وتوصَّل إلى فكرةٍ بدائية ومفاجئة، وهي أنه، رغم كل شيء ومهما ادعى العكس، يريد أن يعيش. وفي تلك اللحظات كان وجهُ نادية ينبثقُ من أعماقه مثل عزاء.

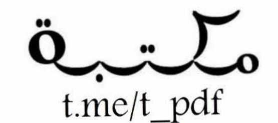
في ظهيرة اليوم الثالث سمعَ اسمه. وتساءل إن كان ذلك يعني أن يزجَّ به في باصٍ ذاهب إلى بغداد، أم أنها جلسة تحقيق سمجة سيعتذر فيها عن تدخّله فيما لا يعنيه آملا في إطلاق سراحه، أم أن هذا يعني (وما المانع؟) أن يُعدم بطلقة في الرأس أمام عيني أخته. أحسَّ بأوصاله ترتعد وهو يُقاد إلى غرفةِ المقدَّم، متسائلًا إن كانوا عرفوا بأنه يقوم بتوزيع الأموال الواردة من الحكومة الكويتية في الخارج على الناس. ردّدَ الشهادتين، تحسبًا ألا يستطيع ترديدهما قبل موتِه بالضبط. وهناك جلسَ مطأطئًا، وفوجئ بالمقدّم يبتسمُ من وراء شاربِهِ الكثّ، يقول له «أمّك داعية لك»، ورزوحًا تحت النظرة البليدة لملامحِهِ قال المقدّم بأنه قد أطلَق سراحه. تلعثم عامر: «يعني أروح؟» كأنه لا يصدّق، قهقهَ المقدّم وقال له «سلِّم على ابن خالتك»، وأحسَّ عامِر بالغرابة. لديه أبناء أخوال وليس أبناء خالات، وخالة وحيدة عانس خارج الكويت، لكن عليهِ أن يداري ارتيابه بالأمر.

قبل أن يطلق سراحه ابتسم المقدّم نصف ابتسامة: «مو كل مرة تسلم الجرّة». قال، ثم بدأ في تقريعه، ملوحًا بسبابته، يردّدُ عليه بألا

يتدخل فيما لا يعنيه، حتى لا يضطرهم إلى أخذ إجراء ضدّه، وأنه سيسمح له الآن بالعودة إلى «زوجته وأولاده» (!)، لكن عليه ألا ينسى أمرًا واحدًا، وهو أنه ليس «رامبو».

يخرج عامِر من البوابة الشرقية للمشاتل، غير مصدِّق. أمامه منطقة «العُمرية»؛ منطقة يعرفها جيدًا. هُنا بيت «جمعة الطراروة» أحد أساطير الغناء العدني في الكويت قبل ثلاثين عامًا، هنا يغنّي «جمال الراشد» وهنا «ديوانية الماص» معقل الغناء العدني واليماني.

كان غير مصدّق، كأنه ولد ثانية.



الفصل الخامس

أسرابُ طائر الرُّخ

(١)

في اليوم الذي عادوا فيه إلى البيتِ القديم، كانت السّماء مظلمة والشمس قرصٌ رماديٌ كامد، والسُّخام يدثّر السطوح. كان يومًا ملائمًا لكي ينتهي العالم؛ زخّات المطر الأسحم تركت خيوطًا داكنة على البيوت والسَّيارات. نُقع الماء تحملُ آثار الزيت. دويٌّ القنابل يأتي من جهةِ البحر. هدير مضادات الطائرات، وانفجارات لم تكفّ.

يترجّل عامِر من السيارة. يرفع عينيهِ إلى عشرات النّوارس الجاثمة على أسوار البيوت وإنارات الشَّوارع، أكثرها يتكدّس عند أكداسِ القمامةِ نصفِ المحروقة. يتردد في السَّماوات الظليمة نعيق قميء. ينقبضُ قلبه، يتحاشى رفع عينيه ناحية ذلك البيت. لكنه يعاينُ الطيور التي هجرت الشواطئ، حيثُ بحيرة الزيت الطافية على سطحِ البحر، ويفكر بأنَّ البحر، هذا المستحيلُ العظيم، قابل للتدميرِ مثلهم أيضًا.

بالأمسِ اتصل عبدالمحسن العظيمي، وقال بأنه سيغيّر عنوان

سكنه ويَنصحُ حسين بأن يفعل مثله، قال بأنَّ هناك إشاعات عن تسريب قائمة جديدة بأسماء العسكريين الذين لم يغادروا البلاد، وأخبار عن اعتقالات عشوائية تجري في المنطقة، وأنَّ العراق في حاجة إلى أسرى، وقال الحرص واجب. ارتعبت فاطمة، لا تريد أن تفجع بزوجها بعد أن ذاقت اختفاء أخيها. ما زالت تردِّدُ بأنه خرج من المعتقل بمعجزة. عندما اتصلت بهدى تبلغها خبر اعتقال عامر لم تكن تتوقع شيئًا في المقابل، لكنَّها لم تشأ ألا تحاوِل، على الأقل حتى لا تتهم نفسها بالتقصير. بعد ساعة اتصلت هدى تخبرها «نوّاف راح يتصرّف» وفي اليوم التالي «نوّاف تصرَّف»، وشعرت فاطمة بأن الأمر أعجب من أشد خيالاتها شططًا. استشعرت ما أسمته «اللطف الإلهي» ونذرت أن تتصدّق بكل ما تملكه من حليّ لقاء حريّة عامِر. قضت العائلة أيّامًا تقلب الأمر من جميع وجوهه دون أن تكفَّ عن التعجّب، وترددت كلمات ذات رنين؛ عن الوحدةِ الوطنيّة «مهما صار» والحرب التي تكشفُ معدن الإنسان الحقيقي، الكلام الذي أعادته مليًا على مسمع هدى في متتالية اتصالاتٍ تعبر فيها عن امتنانِها العميم.

جرّب عامر، لدواعي الفضول، أن يضرب جرس البيت لكن الكهرباء ما زالت مقطوعة. جلبوا معهم شموعًا ومصابيح كيروسين، أغذية تكفي لشهرين ومولّد كهرباء لتشغيل الثلاجة. المياهُ شبه منقطعة، يفتح الصنبور الخارجيّ لتسيل منه قطراتٌ واهنة فيحكم إغلاقه. يطمئن نفسه بأن الخزان يضمُّ ماءً كافيًا لكنَّ المضخة لا تعمل، ماذا لو استمرَّت الحرب شهرًا آخر؟ منذ بداية

فبراير شُنَّت عشرات الآلاف من الغارات على بغداد. أعلن العراقُ قبل أيام إيقاف بيع مستخرجات النفط. إنه يلفظ أنفاسهُ في الوقت الذي يطبق بكفّيهِ على أعناقهم جميعًا، لا أحد يعرف من سيموتُ أولًا.

يتسمّر عامر على الرّصيف، مخفورًا بالسُّخام والظلمة وقيامة الأشياء. ماذا سيفعل إذا تحرَّرت البلاد؟ صرّحت الحكومة قبل أيام بأن الكويت ستغلق أبوابها بعد التحرير ولن يدخلها أحد إلا بعد توفير الضَّروريات وسُبل الحياة. إصلاح محطات تحلية وتكرير المياه، توليد الكهرباء. ضخّ الأغذية وإعادة بناء الشوارع، عشرات -ربما مئات؟- المنشآت المحروقة والمحطمة.

ثم دخل البيت، متنشقًا الرائحة القديمة؛ رائحة طفولته وصباه، وحياته كلها حتى حماقته الأخيرة. غبارٌ راكِد ورائحة قماشية أليفة ونفثالين. البواليع تنثُّ عطانة في الهواء تنتشرُ بطول الممر. فاطمة وحسين منهمكان في لصق زجاجِ النوافذ بالأشرطة اللاصِقة. أحس ببرودة المكان بعد أن تمَّ تفريغه من أثاثه صبيحة خروج عائلته من المنطقة. في البدءِ فكّر باللجوءِ إلى منزل أبيه الجديد، لكنَّ فاطمة تحسَّست من أكداس الأقاربِ الذين اجتمعوا في سردابه واستثقلت مزاحمتهم. حسين أيضًا تلكّأ. فكّروا بشحّ الماء، بطوابير انتظار الحمّام، بالتفاصيل الثقيلة، وما حسمَ النقاش كان يحيى الذي سيخلع لا بدَّ سرواله كاشفًا عورته أمام العمّات وبناتهن، تبوّله على نفسه، ونوبات ذعرهِ التي تدفعه أحيانًا إلى الرّكض في الشوارع. لا،

لا تريد فاطمة أن تثقل على أحد. وفكّر عامر؛ ما زال لديهم هذا البيتُ؛ هرمٌ وصدئٌ ومتجذّر، نعم. لكنه بيتهم. لقد تغيّرت الحسبة تمامًا مذ أخرجه نوّاف من المعتقل.

على مهلٍ صعد إلى غرفتهِ، مثل متسلّل يعود إلى حياتِه خلسة. يعبُّ صدره من ضوع الخشبِ والغبار والكتب. يتذكّر اتصالات أمّه به قبيل نزوحهم تسأله عن كتبه: «أقطها؟»، يبتسمُ الآن وهو يتذكّر المكالمات التي لا تكف، سذاجة أمه التي لم تفهمه قط. لكنه يومها صاحَ بها غاضبًا. لا تلمسوا أي شيء، لا تلمسوا كتبي، اتركوا غرفتي وشأنها! كان سكرانًا على الأرجح. ذاكرته يلفُّها الغبش. اكتفت والدته بجمعِ ملابسهِ، واشترت له أثاثًا جديدًا لغرفته في البيت الذي استأجروه. بقي البيتُ القديم معروضًا للبيع طوال سنة، إلا أنَّ والده تحجّج دائمًا بأنه يساوي أكثر. ليس هذا هو الوقت المناسب لبيع عقار. عامِر غير متأكد من الأمر، لكن ربما لم يهن على أبيه بيع بيت عمره. ربما لم يشأ أن يبيعه مضطرًا، منكسًّا رأسه في الخراء.

تسمَّر أمام مكتبته، يتحسّس أضلاع الكتب بأصابعه كما لو أنه يداعبُ خدينة قديمة. القصفُ يهدرُ في الخارج وعامر يتصفّح أعداد «الطليعة» و«الأهالي» و«عالم المعرفة». قصاصات المقالات التي نشرها. قصص نادية أيضًا. روايات ودواوين. فهد العسكر وغرامشي وتولستوي وموباسان. يفتح الدولاب ويخرج عوده. ليس العود الأثير الذي تركه في الشاليه، بل عودًا آخر، أقل حظوة بالطبع، لكنه يفي بالغرض.

على طرف سريره جلس، يحسُّ باهتزازات الأرض تحت قدميه، يسمع هدير الطائرات، ويقضي أكثر من ساعة يحاول دوزنة عودِه المرتخية أوتاره المشبّع بالرُّطوبة، قبل أن يبدأ في العزف..

(٢)

أنهت هدى ذلك الصباح خياطة سبع بذلٍ من النايلون الأسود الذي كان، في زمنٍ سابق، أكياسَ قمامة، ثم طوتها وخبأتها في الدولاب تحسُّبًا للأسوأ. يُفترض بهذه البذل أن تحميهم في حال حدوث هجوم كيمياوي. كانت ذاكرتها ما تزال تنضح بمشاهد لمذبحة «حلبـچـة»؛ أطفالٌ وعجائز يسقطون في السُّفوح والروابي وعلى عتباتِ بيوتهم. كان عليها أن تؤمن بأن تلك الأكياس، وأقنعة الوجه القماشية، تتمتع بقدرات خارقة فعلًا.

ورغمَ أنَّ السَّاعة لم تتجاوز الواحدة ظهرًا، إلا أن الظلام بهيمٌ في الخارج.غمامة تظلل كل شيء. حملت الرضيعة تهدهدها، منايِر تمسكُ بطرفِ ثوبها تتبعها مثل ذيل، كلما غابت دقائق، في دورة المياه، تجد الصَّغيرة تطرق الباب تسألها متى ستنتهي. العجوزُ أيضًا نزلت إلى السِّرداب، تتربع على السَّرير وتدعو الله أن يسخّر جنوده -جيشٌ جرارٌ من الملائكة المجنحة- لتحرير البلاد. الجنود الذين عرضتهم الشّاشات كانوا بلا أجنحة، لكنهم في الغالب شُقرٌ

وبأعين ملوّنة، وفهمت هدى الأمر كما هو؛ ما عاد ثمة معنى في أن يكونوا عربًا، ولن يعود العالم أبدًا كما كان.

دخان حرائق النفط يصنعُ غمامة عملاقة تغلّف البلاد وتعزلها عن بقية العالم. بحيرةٌ من النفط تطفو فوق مياه الخليج. تذكرُ المصادر الإذاعية لدول التَّحالف بأنَّ التَّسريب جاء من فتحِ صمّامات النفط في خزانات «الأحمدي»، وأن البحيرة الزيتية تتحرك باتجاه الجنوب الشرقي وتلوث شواطئ السعودية وإيران. النوارس تجثُم كالكوابيس على أسوارِ البيوت وإنارات الشوارع. لم تعد ترى الحمام والفواخت والزرازير، ولا تذكر آخر مرة رأت فيها يعسوبًا أو حتى دعسوقة.

قبل أسبوع، أصابت غارات جيش التحالف ملجأً في بغداد. قُتل ما يزيد على أربعمئة من الشيوخ والأطفال والنساء، تقول وكالات الأخبار بأن الملجأ يسع أكثر من ألف شخص. كانت متربعة على الفراش الأرضي إلى جانب مناير وفواز، حتى طلال.. رغم الصَّدعِ بينهما صار يأتي ليجلس إلى جانِبها. الخوفُ صمغ، إنه يشدُّ الأجزاء المتنافرة إلى بعضها ويصنع منها جسدًا هجينًا. أمسك طلال بيدِها ذلك المساء وهم يسمعون نشرة الأخبار. وهي أمسكت بيدِه أيضًا.

الكهرباء متوقفة منذ ساعات، والمولّد -الذي عثر عليهِ نواف في أحد البيوت المهجورة- معطّل، لكنه عاكفٌ على إصلاحه. وضع مضخّة في خزان البيت ليزيد قوة اندفاع الماء. أشعلوا شموعًا وثبتوها على المناضد. تتذكر بداية الأزمة، عندما ملؤوا الطسوت والجرادل

والقدور بالماء تحسبًا للحظات العطش. هكذا جاءت التعليمات، لكنَّ شهورًا مرّت دون أن يعطشوا. الصنبور اليوم جاف والمطر أسحم.

حملة اعتقالات عشوائية تقتنصُ الذاهبين إلى المساجِد، والعابرين من نقاط السَّيطرة حتى لو كانت سياراتهم بلوحاتٍ عراقية. مئاتٌ من الأسرى المدنيين تنقلهم الباصات إلى العراق تحت سماءٍ مليئة بالطائرات. أكثر من ستين ألف غارة جوية منذ بداية فبراير. خطوط الهاتفِ معطّلة. آلاف الألغام مزروعة على طول الحدود الكويتية السعودية، هدير يأتي من جهة البحر، وبين فينة وأخرى تسألها مناير إن كان الدويّ المتصاعد في الخارج رعدًا أم قصفًا، لقد جُنَّ العالم.

«هدوء!»، يقول طلال، يرفع صوت الراديو. يسمعون كلمات ثقيلة. الجهود الدبلوماسية، المبادرة السوفييتية. «بريماكوف»، «طارق عزيز». تهمهمُ هدى: «يا ليت يوافق، ما نبي حرب». يقاطعها طلال: «لا طبعًا! نبي حرْب، اللي ماتوا راحوا هدَر؟!».

يعيد طلال خلف مذيع الأخبار:

- الرئيس الأمريكي يؤكد أنَّ على العراق الانسحاب فورًا وفقًا للشروط التي ذكرها السوفييت، وإلا فالحربُ البريّة..

نواف جالسٌ عن يمينه، بركبة مثنية، يهمهم: «ما راح يوافق ع الانسحاب، راح يماطِل بس». ثلاثة انفجاراتٍ مدويّة تتوالى. يتبادلون النظرات. بعد صمتٍ قصير يضيفُ نواف:

«لو عنده عقل ينسحب، بس هو ما عنده عقِل، لازم يدمّر كل شي قبل لا يشوف خسارته».

وفكّرت هدى بأن نواف يتحدث كما لو كان مطّلعًا على أفكار صدام حسين شخصيًا، كما لو أنه يفهمه. دار نقاش بينهم عن موقف مجلس الأمن من مبادرة السوفييت، التعديلات التي طلبها العراق، خطاب صدام حسين الأخير عن التآمر ضد العراق. انقبض قلبُ هدى. لو أنه ينسحب فحسب، لو أن الحكاية تتوقّف هنا، لو أنَّه يكتفي بما تكبده من خسائر..

ثم جاءَ فواز راكضًا، ينزل الدرجات على عجل، وجهه يتفجّر من فرط الإثارة. صاح بهم:

- الجيران رجعوا!

- أي جيران؟

ينظر إلى أمّه بطرفِ عينه، مسترجعًا شجار والديه الأخير. شيءٌ ما في داخله كان يفيضُ بالزهو لأنها خبأت تحت سريرها آلة كاتبة مخصصة لتزوير البطاقات. شيء يشبه زهوهُ بوجود مسدّس مدفون، ثم خطر له أن حماستهُ في غير محلّها، فأخفض صوته قليلًا.

- بيت عمي عامِر..

قال، حريصًا ألا تفوته لمحة مما يطرأ على الوجوه بمجرد تلفظه بذاك الاسم؛ تتخشَّب قسماتُ نواف. تنقبض ملامح العجوز، ينكّس طلال رأسه. يصفرُّ وجه أمه. وحدها مناير تبتهج.

يسأله أبوه:

- شفتهم؟

- شفت يحيى يركض بالشارع، شوي ولا عمي عامِر يركض وراه..

تنهره جدته:

- لا تقول عمّي عمَت عينك!

تتسع حدقتا فواز. تحوقِل هدى. تلتفتُ إلى الجدة:

- تذكرين يحيى خالتي؟ ولد فاطمة مو صاحي..

تغمغم الجدة:

- الحمدُ لله الذي عافانا..

تلتفتُ مناير إلى هدى:

- عادي نزورهم؟

تزجرها العجوز:

- أكسّر رجولك كسِر..

تنكمشُ مناير في مكانها. تزمُّ فمها وتعقد حاجبيها، ثم ترفع قوقعتين إلى أذنيها وتتظاهر بأنها صمّاء.

(٣)

في اليوم التالي، نقلت إذاعة صوت أمريكا بيان الرئيس الأمريكي بشأن المشروع السوفييتي لوقف الحرب؛ «على الرئيس العراقي أن يعلن استعداده لسحب قواته بدون شروط بعد أربع وعشرين ساعة من الآن، وأن يُخلي العاصمة الكويت خلال ثمان وأربعين ساعة». يهتف طلال: «صارت!»، ويغيب نوّاف في أفكاره. الحرب البرية تبدأ خلال يومين. الجنود العراقيون يستسلمون في الخفجي وأم المرادم وبقية المناطق المحرَّرة. إنها مسألة أيام أو أسابيع، وينتهي هذا العبث.

يحسُّ بثقلِ الهواء ورائحة الفتائل المشتعلةِ والشَّمع المذاب. ماذا سيحلُّ به بعد أن ينتهي هذا الفصل السياسي السّمج؟ هل يعيدونه إلى السّجن، أم يصدر عفو أميري بشأن السُّجناء؟ هل تملكُ الدولة، بعد، ترفَ التفكير ببرغوثٍ عديم الأهمية مثله، الدَّولة التي ضاعت وهي على وشكِ أن تعود، لكنها لمّا تعد بعد. إنه يعيش في زمنِ ما بين الدَّولتين؛ ليس مُحتلًا تمامًا ولا محرّرًا تمامًا. إنهم يسقطون جميعًا

في هاوية اللا دولة؛ تحت حكم الغوغاء. لا قضاء، لا شرطة، لا أحد سيعرِف بأي شيء.

نادية تظهر داخل رأسه تصوّب إليه كاميرا الفيديو تسأله «شتفكّر فيه نوّاف؟». إنها تلحُّ في الظهور مؤخرًا وليس عندها سؤال غير هذا.

منذ الأمس وهو يخرجُ بين وقت وآخر ويجلس لساعات على الدكة، مرسلًا عينيه إلى بيتِ الجيران العائدين. هدى تذهب بأفكارها السوداوية حتى آخرها؛ ماذا لو تغلغل جيش الاحتلال في الضواحي واقتحم البيوت؟ ماذا لو تحوّلت الأحياء إلى مناطق اشتباك؟ لكن نواف لا يكترث. لا يستطيع النوم، ولا الجلوس، ولا حتى متابعة الأخبار.

كل ما يريده هو أن يرى عامِر.

كان مستندًا إلى السور، يحسُّ بفورة الدّم في عروقِهِ ونبضات قلبه في صدغيه. لوّث المطر الأسودُ دشداشته لكنه لا يأبه. «اطلع لي يا كلب، صير رجّال واطلع». عندما استفحل الظلام أكثر أشعل مصباح كيروسين. لن يتزحزح حتى يراه. نادية تهمسُ في رأسه «لازم تدمّر كل شي قبل لا تشوف خسارتك؟»، يطلق أنفه نخرة ويشتمها. سمع قرع نعل طلال، خطواته تقتربُ، يسأله «شتسوي؟». ولا يعرفُ بماذا يجيب. «ولا شي». ثم يضيف، «مخنوق، خلوني بروحي». يريد طلال أن يقول؛ الكل مخنوق، لكنه لا يفعل. يعرفُ بأن لشقيقه سياقاتٍ تخصّه. يحاول أن يجلس إلى جانبه لكن نوّاف يزجره: «ما تفهم

إنت؟ أقولك خلني بروحي!»، يرى في عينيهِ احمرار الجُرح القديم. يغمغم: «تعوّذ من الشيطان». لكنه لا يفعل، يشيح وحسب. نادية تهمس «اسمع كلام أخوك» فتنقبض ملامحه. يسأله طلال إن كان يريدُ شايًا أو شيئًا يؤكل، لكنَّ شفتيه مزمومتان وحاجبيهِ معقودان. «سلامتك». بالكادِ قالها، كأنه يبصق كل حرف. شتمه طلال شتيمة نابية وأضاف «والله إنك مو كفو، الشرهة عليّ قاعد أسأل»، صفق البابَ وراءه وأحسَّ نواف بأنه قد أعتِق، على الأقل من أخيه.

لا يدري نواف كم انتظر حتى سمع ذلك الصوت؛ صرير الباب المعدنيّ من البيت الثالث على اليمين. ضرب نعلٍ تضربُ إسفلت الشَّارع. كان يحيى، للمرة الثانية، يحاولُ الهربَ من البيت، قابضًا على أذنيه ومطلقًا صرخاته. عامِر يركض وراءه. يقبضُ على ذراعيهِ ويقسم بأن يشتري له لعبة جديدة إذا عاد معه. القصفُ يرعب الطفل الذي لا يعرفُ بأنه خائف، والمكان غريب، وسيحاول الهرب حتى النهاية.

في منتصفِ الشارع، قابضًا على الصبيِّ من ذراعيهِ، تسمَّر عامر في مكانهِ والتقت أعين الاثنين. وعرفَ نواف بأن هذا هو ما كان يريده منذ البداية، أن ينظر إليه هكذا، في الظلام البهيم، وكأنه أحد ملائكة العذاب. انتصب نوّاف واقفًا، وتلعثم عامِر بكلمات غير مفهومة. شبه تحيّة مجهضة. مرتبكًا أمام الرجل الذي يكرهه لكنه في نهاية الأمر أنقذ حياته. نكّس رأسه، وقد خشع الصبيُّ تمامًا بين يديه وقال فجأة «اللعبة». طبطبَ عامِر على كتفيّ يحيى هامسًا في أذنه، حاوطه بذراعه وهمّا بالعودة إلى بيتهما، لكن نوّاف أوقفه.

(٤)

- وقّف شوي.

قال وكأنه ضابط شرطة. أو ديّانٌ أمام مدين. وكأنّه يملك الحق.

وقفَ عامِر مرتبكًا، تلكأ.

- خير نوّاف؟

- أبيك بموضوع.

ثم أشار بذقنه إلى الصبيّ وقال:

- رجعه لأمّه وتعال.

كان يتحدث بلسانٍ إلهيّ، سلطويّ متعالٍ، ومع ذلك خرج صوته مخشوشبًا مكدودًا، واستطاع عامِر أن يتبيّن في ذلك الصوت فلول الهزيمةِ، وآثار القلبِ المكسور. سار مع يحيى حتى باب الحوش وتأكد من دخوله. فاطمة تطلُّ برأسها تناديه: «عامِر شتسوي؟»، يشير لها بالعودة إلى الداخل. يقول «دقيقة بس». تراهُ فاطمة يخرج علبة سجائره من جيبِه فتتركه.

يغيبُ صوت فاطمة. يسمع نواف قرع نعلٍ تقترب. إنارة شحيحة تنبعث من مصباح الكيروسين بجانبه. كلاهما صار قادرًا على رؤية الآخر؛ في الظلمة، تحت القصفِ المتقطّع، يمخران عباب العطن البحريّ الذي جلبته النوارسُ. كأنَّ البحر عاد لينتقم.

زفر عامِر وسأل:

- خير نوّاف؟

«قلت لك أبيك بموضوع»، خرج صوته نزقًا، مثل طفلٍ لا يحظى بالاهتمام الكافي، وفكر عامر بكل ما يمكن أن يعتري اللغة من شُذوذ. ردّد وراءه؛ «موضوع؟ أي موضوع؟» زمَّ نواف شفتيه وهمهمَ: «الموضوع»، احتقنت عيناه وتحشرج صوته وهو يشرح الواضح: «لما تمّثل دور واحد حمار ومو فاهم.. شنو المطلوب أسوّي؟» ولم يتخيّل عامِر أن صاحبه سيظهر أمامه هكذا؛ شفافًا ومخصيًا بالكامل. لمح في خدّه اختلاجة فاضحة، ورأى في عينيهِ كل ما يمكن أن تنوء به الرجولة من اعتوار. وعرف بأن قتلها لا يكفي لإلغاء حقيقة واحدة؛ أنها ذهبت إلى حضنِ صديق عمره، على مبعدة أمتار قليلة منه، وأنَّ الأمر بهذه البساطة. رأى عامر تلك التفاصيل البليغة لكنه رأى أيضًا.. الليل والقصف والأضواء البرتقالية التي تخترقُ السَّماء. قلبه يضربُ بشدّة لتصدّيه الأعزل لكل الأشياء؛ الحرب ونوّاف معًا. سأله كأنه لا يصدق: «تبي نتكلم ألحين؟» وصاحَ به يذكّرُه بما بدا مثل حقيقة نائية وميتافيزيقية تقريبًا: «نوّاف الدنيا حرْب!»، فأطلق نواف متتالية شتائم وقال «آخر همّي».

زفرَ عامر.

- أنا ما جاوبت أسئلتك؟

صعّر نواف خدّه، نخرَ ساخرًا:

- أي أجوبة؟ تضحك على منو إنت؟

ثم أردف:

- أنا خليتك تتكلم، كنت أبي أشوف لأي حد مستعد تدافع عنها.

تكشيرة موجوعة ارتسمت على ملامحِ نواف، ولم يسبق لعامِر أن رأى في عينيّ صاحبه (ما زال على نحوٍ شاذ وغير مبرر يسمّيه صاحبه) هذا الكمَّ من الألم. وتساءل لو أنَّ الحكاية جرت بالعكس، هل سيقدر؟ هل سيقف على قدميه هكذا؟ هل سيطالبه بأن يرصف له الحقائق، كما فعلت نادية (نادية المجنونة!) في ذلك اليوم؟ إلى أيّ حدٍ ستعطبنا الحقيقة؟

وأمام الارتباك الذي اعتلى ملامحه نهرهُ نواف:

- شفيك ما ترد؟

تلعثمَ عامر:

- أنا ما دافعـ..

لكن الآخر ابتسم ابتسامة رجلٍ مهزوم، مضمّخ في العار حتى آخر سنتمترٍ منه.

- ترى أنا كنت موجود، وشفت كل شي.

أحسَّ عامر بالعرَقِ ينضح من مسامه، رغم الهواء الصَّقيعي. هل رأى كل شيء؟ رآهُ يقبضُ على عنقها، يتحسس بشرتها، يتخلل شعرها. رأى يده تتحسس خدّيها، سمعها تقول له: لا، وتعني نعم؟ منذ متى كان واقفًا هناك، في نهايةِ الليل يبحلق فيهما غير مصدّق؟

- نوّاف أنا..

ولكنَّ اللغة أجهضت تمامًا، وصار عامر يعرف بأن لصاحبه أسئلة مشروعة؛ منذ متى تحبها؟ ومنذ متى وأنتما تتظاهران أمامي بأنكما أخوان؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم تتزوجها؟ ولماذا، يا ابن كلب، تركتني أتزوّجها؟ انقبض قلبه، رازحًا تحت وطأةِ الذنب الغليظ. وحاول أن يتملّص:

- هذا وقت ومكان الواحد يتكلّم فيه؟

انتفخت أوداج نواف واضطربت أنفاسه، لا يفترض أن يكون هو الطرف الذي يقدم التنازلات، لا يمكن للحياة أن تكون أقل عدالة معه! وأحسَّ عامر بأنه، رغم كل خزيه، لا يخلو من بلادة. خرج صوت نواف أجشًّا؛ ما الذي يفترض بي أن أفعله أكثر مما فعلت لكي تكفَّ عن التبوّل في سروالك كلما رأيتني؟ للتذكير فقط: «أنا لو أبي أذبحك، چان ذبحتك من زمان». وذكّره بأنه كان قادرًا على قتلهِ في لقائهما الأول، وكان بوسعه أن يتركه يتعفّن في «المشاتل»، أو ينقل إلى معتقل «أبو غريب»، أو الله يعلم أين. لكنه لم يفعل، وأنَّ ما حدث في ذلك اليوم، يوم ماتت نادية، قد حدث رغما

عنه، لأنّ ما من رجلٍ يستطيع أن يتصرّف بطريقة أخرى، وأنهما لو عكسا الأدوار، سيتصرف عامر كما فعل هو تمامًا، وأنه «الله يلوم من يلومه»، وقال بأنَّ كل ما يريده هو بعض الإجابات، وأنَّ أي رجل يستطيع أن يتخيّل كمّ وطبيعة الأسئلة التي تنخز خاصرته. ثم أضافَ، واضعًا حبة الكرز على قمة حججه، بأنه لا يستطيع أن ينام، لم ينم منذ سنتين، فيما بدا أنه تلخيصٌ معقول للمأساةِ من جميع وجوهها.

أحسَّ عامِر لحظتها، ويا للمفارقة، بأنه أكثر شخصٍ يفهم نواف، لأنه الشخص الذي آذاه، وأنَّ درجة غير مسبوقة من الحميمية قد أتيحت للرجلين بفضل نادية، أكثر مما يمكن أن يحدث بين زوجين في مضاجعة، وتذكّر نفسه. هاربًا معطوبًا ثملًا وعاجزًا عن النوم، مثل صاحِبه بالضبط.

- نوّاف أنا لو بيدي أكفّر عن اللي صار..

- مابيك تكفّر عن شي.

تنهّد عامر.

- شاللي تامِر فيه؟

تلفّت نواف حوله.

- وين سيارتك؟

- باقوها.

مطّ شفتيهِ على نحوٍ يشي بطرافة الأمر. نواف لم يبتسم.

أطرق قليلا، ثم قال:

- الوعد في ديوانية «بو ناصر».

كانت الديوانية على مبعدة خمسٍ دقائق سيرًا على الأقدام. أشار نوّاف إلى البيت كأن عامِر، بعد غياب سنتين عن «الفريج»، قد نسيَ هذه البديهيات. وأضاف شارحًا: «الرجّال أخذ أهله وراح السعودية وعطاني المفتاح». كلاهما يعرفُ تلك الديوانية، شهدت صولات وجولات من المناوشات السياسية ودوري «كوت بوستة» والهتاف أمام التلفزيون على مباريات العربي والقادسية. كانت أرضًا محايدة، لا تخصُّ واحدهما أكثر من الآخر. شيء أفضل من الوقوف في الشارع. وفكّر عامر؛ لو أنه أراد قتلي، لما أخرجني من المعتقل. ردّد هذه الجملة في رأسه مرة بعد مرة، مع كل خطوة خطاها باتجاهِ الديوانية، كأنه لا يصدّق ما يقول..

(٥)

فاطمة تهرعُ للشارع، قابضة على عباءتها تحت ذقنها. أضواء برتقالية تتوهّجُ في السَّماء، القصفُ زمجرة. فاطمة بالكادِ تسمعُ صوتها، بالكادِ ترى، قابضة على المصباح اليدويّ بيدٍ مرتجفة.

أخذت الشارع إلى آخره وانعطف بها إلى حيٍّ آخر، وتساءلت كيف يمكن أن يكون قد ابتعد إلى هذه الدرجة، في ليلةٍ مثل هذه، والحربُ البريّة يمكن أن تندلع في أية لحظة. قلبُها يقرعُ على نحو بئيسٍ، تريدُ العودة إلى بيتها. عندما خرج حسين بسيارته للبحث عن عامِر أمرها بملازمة البيت وألا تترك الطفلين، لكنها لم تقدر. «ما راح أتأخر، ماما بتروح شوية وترجع»، قالت للطفلين اللاهيين بالحيوانات البلاستيكية، وسُعدت لأن أيهما لم ينتبه. قفلت الباب عليهما وخبّت إلى الخارجِ تنادي. لا يجَدرُ بمن خرج لتدخين سيجارة أن يغيب ساعة. وإن كان قد عزم الذهاب إلى مكانٍ فلماذا لم يخبرها؟ وأين عساهُ يذهب وليس معه سيّارة؟

اشتدَّ القصف فأخذها الرَّوع، هرولت راجعة إلى البيت، عباءتها

ترفرفُ. لحظة عادت كانت أماني تصيح، مخاط أنفها يسيل حتى فمها وعيناها جاحظتان، قابضة على يدِ يحيى الذي تبوّل على نفسه وقد تقلقلَ رأسه مع كل انفجار. «لا يمّه لأ»، بحَّ صوتها وقد اختنقت بما يشبه البكاء. «لا حبايبي لأ»، قالت وهي تشرّع لهما ذراعيها، ترى ما فعلهُ غيابُ سبع دقائق في الطفلين. التصق بها الصغيران. امتزج صياح أماني بصرخاتٍ متقطعة ليحيى الذي سدَّ أذنيه بيديه. تفحصت فاطمة سرواله المبتلّ، قبضت على يديّ الطفلين تأخذهما إلى الحمام.

المياه منقطعة بفعل غياب الكهرباء، لكنَّها خزنت شيئًا في طسوت الغسيل. غمست منشفة في الماء -وكان باردًا وعكِرًا- ومسحت بها فخذي يحيى وعورته. «بس يا حبيبي»، وإن كانت هي نفسها لا تدري عن أيّ شيءٍ تراها تقول؛ «بس؟». مرّت ساعة على اختفاء عامِر، ونصف ساعة على خروج حسين. قلبُها يتقلّصُ في صدرها، يتحوّل إلى قشرةٍ متكلّسة، إلى فتيتٍ هش.

خرجَ ليعيد يحيى. ثمَّ قرّر تدخين سيجارة. كان وحده. كيف يمكن أن تحدث الأشياء هكذا؟ أم تراه دلف إحدى الدواوين يتابع أخبار الحرب من الراديو مع ثلة من الرفاق؟ أجهدت نفسها لكي تتخيل صورته على هذا النَّحو، سيجارته في فمه وشماغه ملفوفٌ حول رأسه، يصفّق لمتوالية انتصارات جيش التحالف. «يا رب». اغرورقت عيناها، وأحسَّت بارتعاش أطرافِ يحيى. غمست منشفة أخرى في الماء ثانية ومسحت بها وجه أماني، ثم أخرجت من الحقائب

بيجامة نظيفة؛ منكمشة ومكدودة من فرطِ ما غُسلت، لكنها كل ما لديها.

جلست فاطمة على المساند التي رصفتها في منتصفِ الصالة، بعيدًا عن النوافذ. ضمّت إليها ولديْها وأملت أن يناما وحسب، دون أن تضطر إلى الهدهدة أو قراءة آيات. دون أن تضطر لأن تكون أمًا أكثر مما هي عليه، وكان كل ما تريده وقتها هو أمُّها هي، طفولتها هي. جلست تضمُّ الصغيرين إلى صدرها تبحلقُ في البابِ، على ضوء مصباح كيروسين، بعينين متحجّرتين. صوتٌ آتٍ من أعماقها، يخبرها بأن لا جدوى من البحث عنه، وبأن الطفلين لن ينسيا ما عاشا سبع دقائق من الخوف الصّرف، ليس من القصف ولعلعة الرّصاص، بل من غيابِها. وبقدرِ ما أحسَّت بأنها عالقة، في أمومتِها تحديدًا، شعرت أيضًا بأنها في المكان الذي يفترض بها أن تكون فيه، أنها لا تستطيع أن تكون أمًّا لأخيها أيضًا، ولا أن تتحمّل، إلى الأبد، تبعاتِ حماقاتِه. فأيًا كان الداعي إلى اختفائه في ليلةٍ مثل هذه، فلا شيء يفسره إلا الحماقة. تقلقلَ كتفاها وهي تنفجرُ باكية، لأنها على نحوٍ ما، غريزيّ تقريبًا، تعرفُ بأنها تخون أخاها. عضّت على كفّها مليًا لكيلا يسمع الصغيران انتحابها المكتوم، الصغيران النائمان الآن في حضنِها، ثم غشيَها نعاسٌ شفّاف، ثقل جفناها وانزلقت في غفوةٍ ملساء، بعد أن منحها حدسها كل الإجابات. سيعود حسين خلال دقائق ليخبرها بما تعرفه أصلًا؛ لقد بحث عن عامِر في الفرجانِ والشوارع المحيطة وطرقَ أبواب الجيران، بابًا بابًا، ويبدو أن عامِر مفقود..

(٦)

كانوا يغطّون في النوم جميعًا، ابتداءً بالرضيعة نونو وانتهاءً بالجدّة منيرة، لأنَّ تتبع الأخبار أصابهم بالإنهاك. تساءلوا إلى أيّ حد سيطول الأمر. وأملوا ألا يزيد عن بضعة أسابيع، ولم يخطُر لأيهم أن إعلان التحرير سيجيءُ بهذه السُّرعة.

كان فوّاز أرِقًا. أبقى الراديو قريبًا من رأسه وأرخى شماغه على عينيه وحاوَل أن يغفو. ما زالَ صوتُ القصفِ يأتي هادرًا من الخارج، لكنّه على نحوٍ ما قد اعتادَه، إن جاز للمرءِ أن يعتاد ألما في العنق. كانت السّاعة قد تجاوزت الواحدة فجرًا، وكان شخيرُ أبيه وعمّه يتصاعدُ ويهدرُ؛ مضمضة وغرغرة، يليها نخيرٌ مديد. بالذّات عمّه، لقد نامَ يومَ أمس بطولِه. نهَض لمامًا، تحت إلحاج الجدّة، ليأكل لهُ لقمة؛ «عيش معدَّس»، ليتفحّص خزان الماء، ليشغل مولّد الكهرباء، لكنه كان يعودُ للتمدّد على فرشته التي تفوح برائحة الجوارب المبتلّة، وقد غمغمَ في نومِه مرّتين، وصرخ مرّة واحدة.

الطيران الحربي يزداد كثافة، المدفعية الأمريكية تطلق قذائف

فتهتزُّ الأرض من تحتِه. إذاعة العراق تؤكد أن القوات العراقية دمّرت الغزاة وكبّدتهم خسائر في الأرواح والآليات. القنوات الأخرى تقولُ العكس. منذ مساءِ اليوم بدأ صوتُ الرّصاص يقتربُ. لكنه، مثل الآخرين، قد سئمَ المجهول، والانتظارَ، وما يسمّيه الكبار «عنق الزجاجة» والذي تبدّى له في الأشهر السبعة الماضية مثل خازوقٍ طويل. فأغمضَ عينيه، طافيًا على سطحِ التاريخ والكلماتِ الكبيرةِ والليلُ الأكثر ليليّة من أيّ ليل. أغمض وغطَّ في النوم، ولم يكن هدير القصفِ هو الذي أيقظهُ فجرًا. كان صوتًا بشريًا عديدًا بألف وجه، آتيًا من كل مكان. اعتدلَ جالسًا ودعك عينيه، شنّف سمعهُ وحاول أن يتبيّن ما يسمع. ما لبثَ أن نهض من فراشِه وصعد الدّرجات سريعًا إلى الحوش، وهناك تأكّد مما سمعه، وتهلّل وجهه.

عادَ سريعًا إلى السرداب، أيقظ الجميع. هزّهم من أكتافهم وصدورهم وجذب أياديهم أحيانًا، كلهم إلا العجوز. فحتى لو قامت القيامة، لن يجسر أحد على إيقاظِها. وقبل أن يسأله أحد عن سببِ الإزعاج وضعَ سبابته على فمِه وهمس: «ششش.. سمعوا!».

هرعوا إلى الخارج، ليتأكدوا مما سمعوا.

«الله أكبر».

متوالية تكبيرات أتتْ مثل موجاتٍ، زرقاء عاتية وباهرة تخترقُ ظُلمة الفجر. نوافذ الجيران مشرّعة، الرؤوس تطلُّ على الشوارعِ، الأفواه تكبّر.

لم يعُد أحدُ إلى النّوم، بطبيعة الحال. كما لم يرغب أيهم بالنزول ثانية إلى السرداب. جلسوا على عتباتِ المدخل، وتنقلوا بين موجات الراديو جميعها لكي يسمعوا الخبر بكلّ صياغةٍ ممكنة، كمن يقلّب لؤلؤة بديعة بين أصابعِه. تعالى صوتُ زغاريد من البيوت القريبة، ما لبثت هدى أن رفعت كفها إلى فمِها وزغردت إلى درجةٍ جعلت طلال يقهقه، وعندما نظر إليها، كمن يراها لأوّل مرة بعد سبعة أشهر من العمى، وجدَ أنها نحلت كثيرًا، وأنَّ خطوطًا حزينة تحاصرُ شفتيها كلّما ابتسمت، وأنَّ الشيب يتخلّلُ شعرها كله. طلال أيضًا، عندما نظر إلى صورتِه منعكسة على زجاج باب المدخل، كمن يرى نفسه لأول مرة، قرّر أن يحلق لحيتَه، وعرفَ بأنه هرِم. الوحيد الذي لم يكبر، فكّر طلال، هو نوّاف، فقد عبرت هذه الحرب من فوقِ رأسه على نحوٍ ما.سرحَ في وجهِ أخيه الذي راح يقلّب القنوات ملصقًا رأسه بالراديو، تلمعُ عيناهُ وهو يردّد أسماء المناطق المحرّرة، عدد الأسرى العراقيين، كل التفاصيل. وأحسَّ طلال بأنَّ نواف يبدو حرًّا هو الآخر، كأنّ أمرًا ما قد انفكّ تمامًا، وأعادهُ إلى السياق.

ثمّ سمعوا صوتًا يألفونه يخرج من الراديو: «هنا الكويت من الكويت». اختنق الصَّوت الإذاعيُّ بدموعه، وهو يعلنُ من إذاعة «حركة المقاومة الكويتية» أنَّ البلاد قد تحرّرت. وبدا وكأن البلاد قد استعادت صوتها من الشتات. تلقوا تعليمات عن وجوب عدم مغادرة البيوت، التزام الهدوء، وعدم الاقتراب من أية أسلحة أو ذخائر من مخلفات الجيش العراقي. تحذيرات عن وجود جيوب عراقية في العاصمة، وتفاصيل أخرى.

عندما أشرقت الشمس لم يرَها أحد. كانت السُّحب الدخانية قد غلفت السَّماء بالكامِل، والليلُ يمتدُّ كأنه الأبد. لكنَّ الساعة أشارت إلى الثامنة صباحًا، وكانت منايرَ قد استيقظت أخيرًا، وخرجت إلى الحوش تبحث عن هدى، وشرحَ لها فوّاز وهو ينطُّ في مكانه مستثارًا بأنَّ الكويت قد تحررت. حتى إنه جذبها من يديها ودارَ بها في الحوش، صنعَ منها دائرة كاملة، ورقصت قدماها الحافيتان في الهواء.

كما حدثَ في صبيحة الاحتلال الأولى، لم تفهم منايرَ أي شيء. وسألته: «والعراقيين؟»، ففرقع لسانَه وقال «ذلفوا»، كما لو أنّ الفضل في طردهم يعود إليه شخصيًا. العجوز، بمجرد أن وصلتها أنباء التحرير، وعرفت بأن الرَّب القدير قد استجاب لدعواتها التي لم تنفكّ طوال سبعة أشهر، ذهبت إلى المطبخ وأخرجت ما تبقى لديها من أكياس الطحين لتصنع بسكويتًا لجنود التحرير؛ ملائكة الرَّب.

في ظهيرة اليوم ذاته، لمحت هدى ظلًّا أسود يعبرُ أمام الباب. نهضت من مكانِها لتتبيّن في النهار الرَّصاصيّ الداكن لطخة سواد تشبه فاطمة، قابضة على يحيى بيد وأماني باليدِ الأخرى، تقطع الشارع مثل طيف. ولوهلة فكّرت هدى؛ لن يمانعوا لو تبادلنا التهاني، اليوم عيد! ونظرت خلفها لتتأكد بأن الجدة غير موجودة، وأن نواف مستغرقٌ في الضَّحك إلى درجة أنَّ لا شيء يمكن أن يزعجه. طلال طيّب، طلال سوف يفهم. منايرَ تقتربُ من البوابة الخارجية، تلتصقُ بفخذيّ هدى.

- فاطمة!

هتفت هدى. فالتفتت فاطمة وراءها، دون أن تغادر عيناها تلك النظرة الهلامية لشخصٍ ضائع. اقتربت من صديقتها القديمة، وتكلّفت هدى شيئًا من الابتسام «الحمد لله على السلامة، مبروك ردّة الكويت!»، لكن الأخرى همهمت، وبدا صوتها كأنه يأتي من مكانٍ ما من ورائِها: «الله.. يبارك فيك». ولم يبدُ عليها أنها قادرة على ملامسة الفرح العميم الذي غشي كل شيء. تناهى إلى هدى صوتُ محرّك يشتغل. ولما التفتت وجدت أن حسين قد وضع آخر الحقائب في صندوق السيّارة وشغلها وهتفَ ينادي امرأته. «يالله يا فاطمة!». نظرتْ إليه فاطمة بعينين واهنتين. ودون أن تنبس بكلمةٍ واحدة التفتت إلى هدى وسألتها: «ما شفتي عامِر؟».

تلعثمت هدى:

- عامِر؟ لا والله، ما شفنا أحد. ليش وينه؟

اغرورقت عينا فاطمة، وخرج صوتها مشروخًا، كمن بكى طوال عُمره.

- مادري وينه.

قالت.

- صار لنا يومين ما ندري وينه..

حوقلت هدى، غطّت فمَها براحتِها وبحلقت في المرأة الطّيف، التي سارت مبتعدة كأنها تطير فوق الإسفلت بأطراف عباءتها المرفرفة، دون أن تتكبّد شرح شيء.

(٧)

في صبيحة ثالث أيام التحرير، قامت هدى بغلي الماء في قدر معدنية عملاقة، وغمست فيها بعض المناشف النظيفة، ومسحت بها رقبة مناير وساعديها وفخذيها. كركرتْ مناير وهي ترى المنشفة البيضاء تتحوَّل إلى الأسود. قالت هدى بأنَّها ملطّخة بالنفط.

صعد أفراد العائلة إلى الغُرف المهجورة في الطوابق العلوية. وهناك ارتدت مناير بذلة عيد الأضحى الماضي، التي صغرت عليها قليلًا لكنها لم تمانع. فستان أبيض منفوش بحواشي من الدانتيل، ألبستها هدى فوقه غلالة سوداء شفافة ذات خرزات ذهبية أسمتها «ثوب التور»، حملوا الأعلام وصور الأمير وولي العهد -يعلم الله أين أخفتها هدى طوال سبعة أشهر- وصينية مليئة بالبسكويت، وابتساماتٍ كبيرة وأمل أخضر معشوشب طليق، وخرجوا للترحيب بجيوش التحالف.

صارت مناير لأول مرة منذ سبعة أشهر قادرة على الرّكض في العراء، وعندما سمعت فواز يتكلم كالكبار عن عودة الحقّ إلى

أصحابه، وتأييد الله للحق الكويتي، وكلمات أخرى معقدة فككها لها لتفهمها، أخذت تكعكعُ بغبطة، فهي من الزمرة المؤَيَّدَةِ إلهيًا وهذا لا يحدث كثيرًا، وقد لا يحدث لأكثر البشر. أحسَّت مناير بأنها أكثر الناس حظًا على الكوكبِ. خاصة بعد أن رأت رجالًا بيضًا شُقرًا بأعين زرقاء وخضراء، فارعي الطول كالأبراج وإنارات الشوارع والغيلان، يعطونها تفاحًا وقطعتي «كيت كات». في تلك اللحظة سمعت جدتها تبسبس: «سُبحان الله، وما يعلم جنود ربّكَ إلا هو»، وارتجف قلبُ مناير لأنها تمكنت من التفرج على جنود الرّب. حملها فواز على كتفيه لتهتف بصوتٍ أعلى، وتعلمت أن تصنع بأصبعيها علامة النصر مثل أطفال الحجارة.

في الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس ٢٨ فبراير ١٩٩١، بعد مئة ساعة من انطلاقة الحرب البرية، توقّف إطلاق النّار رسميًا. ثلاثة أرباع القُوة العسكرية العراقية كانت قد دُمّرت، والعاصمة بغداد آلت إلى حطام. بعد سنواتٍ كثيرة، ستفكر مناير في ذلك الدَّمار على أنه شيءٌ يخصها أيضًا، لكنها حتى هذه اللحظة كانت سعيدة بالرجال الشقر الفارعين الذين يتخاطفونها. ومنتشية بملمس يدِ الرّب على رأسها، شخصيًا.

مرَّت أيام التحرير ثقيلة على فاطمة. لم يكن ثمة خبر عن عامِر. حتى أسوأ الاحتمالات وأشدها غرابة بدت خارج المنطق؛ مثل أن يقتله قنّاص عراقيّ وهو يتمشى على الأرصفة مدخّنًا سيجارة. أو أنه انضمَّ إلى خلية مقاومة في اللحظات الأخيرة ولم يشأ إخبارها حتى لا تمنعه، أو أنَّه تعرض لحادث، أو أنه سقط في بالوعة، أو أنَّ

الأرض انشقت وابتلعته. ولأن خطوط الهاتف معطلة، اضطرت إلى طرق أبواب معارفهم واحدًا واحدًا، إلا أن أحدًا لم يره. ذهبت فاطمة إلى المخافر واستقبلها شباب المقاومة الذين تولوا زمامِ الشؤون الأمنية لحين عودة الدولة، أخبرتهم بأنه مفقود. وهذا ما سيكون عليهِ حتى نهاية الحكاية.

سيضاف اسم عامِر إلى قائمة طويلة من «مفقودي الحرب» وستظهر صورته على التلفزيون أحيانًا، ولن يعرف أحدٌ أبدًا حقيقة ما حدث.

بعد عودة الدولة، طالبت السُّلطات الكويتية كل من يملك سلاحًا بتسليمهِ إلى الحكومة، فتذكّر طلال المسدس المدفون في حوض النخلة، ونهض من فوره لنبشهِ وإخراجه وتسليمه إلى أقرب مخفر شرطة.

لكنَّ المسدس كان أيضًا قد اختفى.

شحُب وجه طلال وغامت عيناه. استعاد من الرمل صرّة الذهب وأعادها إلى الداخل، ألقى بها على الطاولة أمام أمّه، ثم نظر إلى أخيه.

تلاقت أعين الشقيقين. كلاهما رأى الآخر. رآه فعلًا.

سأل نواف:

- في شي؟

تملّى طلال في وجه أخيه سرحانًا، وقال:

- لا.

الفصل السادس

القَنطرة

(١)

بعد ثلاثين سنةٍ من الاحتلال، تفشت جائحةٌ في العالم كلّه، وفُرض حظر التجوّل على البلادِ للمرة الثانية، فاضطرَّ أكثر النّاس إلى مجابهة أسئلتهم القديمة التي أمضوا حياتهم فارّين منها، واكتشفوا أنها ما زالت هناك، تكشِّرُ لهم واحدًا واحدًا، قابعة في الصُّدوع والأخاديد والصّمت. بدا لكثيرين وكأنَّ الذاكرة تفلتُ من عقالها، ومرّة أخرى امتلأ الفضاءُ الموبوء بكيمياء القيامةِ الوشيكة، رغم أن أولئك الذين يمتلكون السِّياقات يعرفون أن هذا العالم الذاهب إلى نهايتهِ أبدًا لن ينتهي، ليس الآن على أيّ حال. وفي تلك الأيام، صارت منابر تتذكّر أشياء لم يخطر لها أنها قابعة في أعماقها.

قضت منابر أيام الحظر في وحدةٍ مُحكمة؛ امرأة مُطلّقة، مهجورة من طفلتها الوحيدة، وقد تخلّى عنها الرّجل الذي تحبّه، تدفن نفسها تحت الأغطية وتئنُّ من الوحدة. وفي تلك السنة تحديدًا، لم يكن من البطولة أن يجابه المرءُ أسئلته، بل كان ذلك من قبيل الاضطرار، على الأقل بالنسبة للذين أُكرِهوا على قضاء أيامِ الحظر وحيدين.

وتوصّلت مناير إلى استنتاج دقيق؛ وهو أن كلّ الرجال الذين أحبتهم، قد نبشوا في داخلها الجرح ذاته، وكأنهم عرفوا بشأن وجوده سلفًا. الأمر الذي من شأنه، منطقيًا، أن يطرح سؤال الجذور، وهكذا خطرَ لها - لأن الحاجة أم الاختراع - أن تستعيد من الرّف العلويّ للدولابِ ذلك الصّندوق المليء بالوثائق، إن جاز تسميتها بذلك، وأن تقضي أيام الحظر في تفحصّها، وهي ١) مجموعة نادية القصصية غير المنشورة، مع مخطّط رواية كان يفترض أن تكتبها عندما تبلغ الأربعين، وقُصاصات لملاحظات عامِر وتصويباته. ٢) مذكرات هُدى في الاحتلال، بعد أن اتضح أنها لم تكن عاكفة على تزوير بطاقات العسكريين طوال الوقت، بل انهمكت في كتابة يوميات العائلة، وهذا يعني أنها عرّضتهم لخطرِ عقوبة الإعدام من أجل حاجتها إلى الفضفضة. ٣) وأخيرًا؛ صورة لنادية ومناير في ميدان الطرف الأغر، الحمام على الرؤوس والأكتاف، والريشُ أيضًا؛ الصُّورة الوحيدة التي نجت من المجزرة.

كانت مناير تتوجّس من تمديد الحظر أيامًا أخرى، لأنها بعد عشرين يومًا من قراءة قصص نادية، شعرتْ بأنها، وأخيرًا، صارت تفهم أمها. تفهمها وتتفهَّمُها إلى حدّ أنّها تخيّلت نفسها، في عمُر نادية، تتسلّل في الليل خارج الشاليه للقاءِ رجلٍ تحبّه. وقرّرت أنَّ أمّها لم تملك ترفَ الخيارات وإن بدا الأمر كذلك للمتفرّج عليها من بعيد. وعليهِ قرّرت، بمجرد انتهاء حظر التجوّل، أن تجابه أباها لأول مرة في حياتها، لاسيما وأن العالم يوشكُ أن ينتهي، أو هكذا يبدو.

وهكذا، بمجرّد أن ألغي حظر التجوّل انطلقت بسيارتها إلى الشاليه. وبدأت تنظرُ إلى ما مضى من حياتِها، وإلى المرآة العلوية أحيانًا، كي تتمعّن في الشَّيب الذي تفشى في شعرِها الحليقِ بماكينة «باناسونيك» على الرقم ٤، والهالتين اللّيلكيتين تحت عينيها، والغضون الغائرة حول الفم، وكيف تحوّلت خلال ثلاثين سنة من جرادةٍ مُجففة إلى عظاءة بوركين عظيمين ونهدين لا يعوّل عليهما بشيء. لكنه الاصفرار الحزين نفسه، الشفة الجافة المشقوقة نفسها، مطروحًا منها شعرها. كانت تكرهُ اللُّغد النابت أسفل ذقنها، بقدر ما تكره غياب الاتساق في وجهها، ولطالما شعرت بأن نصف وجهها الأيمن لا علاقة له بنصفه الأيسر، كأنَّ كل واحدٍ يخصُّ امرأة مختلفة، وتساءلت كيف ستكون ردّة فعل أبيها إذا رآها؟ ثم تذكرت بأنه لا يقدر على ذلك، أنه لم يرها قط.

حتى صورتُها التي نُشرت في الصُّحف قبل أشهر، قبل اندلاع الجائحة وإغلاق المطارات، بصفتها جزءًا من الوفد الذي حضر مؤتمرًا في بغداد، والصُّور التي التقطتها في المنطقة الخضراء قرب السفارة الأمريكية المترامية، عندما كان شعرها طويلًا ومُعالجًا بالكولاجين ومصبوغًا بالأسود، وعندما كانت أظافرها مطليّة وشفتاها أيضًا، حتى تلك الصورة لم يرَها. قد يقرأ التغطية الصحفية ويسرح في صورتها دون أن يتعرّف على ابنته، وفكّرت مناير بأن المشكلة لم تكن قط عجزه عن رؤيتها، بل في عجزه عن إدراك عجزه، وقد كانت مضطرة لفعل صنوف الأشياء في حياتها، أشياء بدت أحيانًا مثل بطولات وإنجازات -ميداليات وانتصارات ومراكز

أولى وتفوّق مدرسي- أو حماقات محضة، مثل زواجِها من فواز، أو إنجابها طفلة لا تعرف كيف تجعلها تحبها، وانتهاءً بعادتها السيئة في التدخين. لقد جرَّبت مناير كل شيء تقريبًا، منذ تدخين الحشيشة وحتى حفظ الشِّعر، ومنذ العمل في السِّياسة وحتى الأمومة. لكنها ظلت دائمًا شفافة بالكامل؛ روحًا هائمة تطفو على سطح حكايةٍ لا تخصّها، رغم أنها حكايتها هيَ.

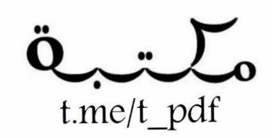
في طريقها إلى الشاليه، ستتذكّر مناير محطّات من حياتها، تبدو لها الآن مثل جزر متوهجة من الضوء على سطح أوقيانوسٍ بهيم. لقد كانت دائمًا مولعة بالأطالس، تلك التي تتخيلها تحديدًا، بسبب إحساسها المزمن بأنها أجنبية. ستتذكّر مناير بأنها كانت في السادسة عشرة فقط، عندما عرفت بأنَّها ابنة الرجل الذي قتل أمها. وقد حدث ذلك بفضل الجدّة التي قضت أيام خرفها تنتقي الأرز وتنظفه من السُّوس، وتخبرها، بفمٍ عديم الأسنان فوّاح بعطنٍ حمضيّ، ما حدث تلك الليلة.

لاحقًا، عندما ستتزوج مناير من ابن عمّها ويحظيانِ -وهو ما يحدث أحيانًا- بساعاتٍ رقراقة من التوافق الطارئ، يشعران فيها بأنهما قادران على التلفظ بأي شيء، سيذكّرها كيف حملها على كتفه وركض بها لكي لا ترى ولا تعرف. وستعرفُ لماذا كانت أحلامها عبارة عن خوضٍ أبدي في الظلمة، ولماذا كانت حتى عندما تحلم، لا تقدر على رؤية شيء. كما ستعرف لماذا كانت تفقدُ الإحساس بجسدها عندما يعاشرها زوجها، ولماذا تتشنج وينبتُ الخوف من

بطنِها ويستنبتُ أشواكًا ومخالب وأظلافًا. ستحصل لاحقًا على تشخيص برّاق لهذه الأعراض؛ كرب ما بعد الصَّدمة. اسمٌ وجدته شعريًا جدًا، أكثر حتى من ذوقها.

كان الشّارعُ ممهدًا. وقد ارتدى أغلبُ سائقي المركبات كمّاماتٍ واقية من فرطِ الخوف، مع أنَّ الأمر غير ضروري. وفكّرت وقتها بأنها لو قدّر لحياتها أن تنتهي في هذا الوباء فلن يكون الأمر بهذا السوء. ليس بالنّسبة لها، ومع ذلك لم تشعر بالحزن. بالشيء الذي يسمّونه الحزن، لأنها لا تعرفه، فإحساسٌ مثل هذا هو امتياز الذين يعرفون الحُب. أما هي، فقد كانت مثل قوقعة فارغة؛ وقد تمَّ حشوُها بالهراء طوال حياتِها.

يرنُّ هاتفها ولا ترد، لأن فواز سيحاولُ حتى اللحظة الأخيرة من حياته أن يواصل حمايتها، من حماقاتها تحديدًا. لقد أخطأت، على الأرجح، عندما أطلعته على خططها في مكالمتهما أمس، فهو يعرفُ بأنها ليست ذاهبة للاطمئنان على أبيها، ولأن الجريمة تجري في عروق العائلة، فهو لا يعرفُ ما الذي يمكن أن يحدث، إذا دفعت نواف للنظر إليها وسألته، مثلًا، ما الذي فعله بالمسدّس..



(٢)

أحسَّ فوّاز بتوتّر في جسده، كأنَّ كارثة توشك أن تحدث.

كان يعرفُ هذا الشعور جيدًا، ولم يستطع أن يطردَ من رأسه صورة ثلاث جثث لجنود من الجيش الشعبي. بدا كما لو أن جسده يعرفُ ما يقول، وببلاغة. عندما لم ترد مناير على اتصالاته، توجّه إلى غرفةِ ابنته، وليكن اسمها هدى لكنها تكنّى «هُدهد»، أيقظها من نومها وأخبرها أنهما ذاهبانِ إلى الشاليه لرؤية البحر والبحث عن القواقع واصطيادِ قبقبٍ إن حالفهما الحظ.. وبالمناسبة، سنرى أمّكِ هناك.

خلال نصفِ ساعة، كان فوّاز والطفلة ذات الأحد عشر عامًا في طريقهما إلى الشّاليه، وكان الأبُ يحاول تخيّل ما سيحدث، رغم أن الشيء الوحيد وارد الحدوث، وفق قوانين الواقع الأزلية، هو ألا يحدث شيء. تبدّت له مناير مثل ذبابةٍ تضربُ رأسها بزجاج نافذةٍ لن تُفتح أبدًا. وليس الأمر أن نوّاف يحوزُ إجابات تحتاجها ابنته لكي -ما هي الكلمة؟- تُعتق من جحيم ذاكرتها، لكنه يرفضُ الإفصاح. بل

العكس تمامًا؛ منذ فبراير ١٩٩١ وبعد التحرير مباشرة، صار الرجل يعيش في عالمٍ موازٍ، لا يتقاطع مع عالم أيٍ منهم، ولا حتى مع أبيه. أو إن شئنا الدقة؛ لا سيما مع أبيه. أمرٌ ما حدث بين الشقيقين وتحولا إلى غريبين، لا ينظر واحدهما إلى الآخر، لا يتبادلان إلا الشكليّ من الكلمات. ويستطيع فوّاز أن يحدسَ بالسَّبب، أنَّ والده -على نحوٍ ما- يعرفُ ولا يريد أن يعرف، يقمع النداءات الهاتفة داخل رأسه كلما ظهرت صورةُ عامر على الشاشات ضمنَ مفقودي الحرب. كان فوّاز متأكدًا بأن طلال لم يجسر، ولا للحظة، على أن يستنبطَ الواضح. لقد برعَ تمامًا في أن يشيح بعينيه بعيدًا، وصدّق فقط ما أراد أن يصدّقه وحسب.

مرة أخرى ذكّر ابنته بوجوبِ تركِ مسافة بينها وبين الآخرين، حتى مع أمها وجدّها. وفكّر كم ستتألم مناير لذلك، ألا ترى ابنتها لعشرين يومًا ثم تُحرم من احتضانها. ملعون «التباعد الاجتماعي»، ملعون الوباء. إن فكرة الطفلة الولوع بأبيها جارحة بما يكفي؛ ليس فقط لأنها الأم المهجورة من ابنتها، بل لأنها ما زالت طفلة السنوات السبع التي لم تحظَ بأبٍ قط.

منذ طلاقهما، تحوّلت مناير إلى بهلوانٍ -تقريبًا- لكي تستميل إليها ابنتها. ليس الأمر أنها ملأت غرفة هدهد بما تشتهيه من ألعاب وأجهزة لوحية ودمى وعرائس وحتى ذلك الشيء الذي يشبه مخاط الأنف المدعوّ «سلايم»، وبيوض عملاقة تفرّخ عصافير قبيحة، وكراكيب لا يفهم المغزى منها، بل ذهبت أبعد لتملأ بيتها بالقطط

الضَّالة التي تأتي بها من الشارع لتوفر لها المأوى؛ قطط بلا أذيال أحيانًا، عرجاء أحيانًا، قبيحة دائمًا، لكن ولا واحدة عمياء. حوّلت مناير منزلها في السَّنوات الأخيرة إلى مكانٍ هجينٍ من مدينة ملاهٍ ومأوى قططٍ دميمة، وملأت المناضد بالبراويز التي تحملُ صور الصَّغيرة في أسعد لحظاتها، وأقامت لها أعياد ميلادٍ باهظة، في مراكز ألعابٍ ضخمة، ولم تكتفِ بدعوة جميع أطفال صفِّها والمعلّمين، والفصول الأخرى أيضًا، بل وأبناء زملائها في العمل، أطفال لم تلتقِ بهم هدهد في حياتها. وليس الأمر أنها فعلت الأمر على نحوٍ صحيح أو خاطئ، بل فعلته على نحوٍ مبالغٍ فيه، لم يفسد الصغيرة بقدر ما دفعها بعيدًا، وعندما حلت أيام الحظر الجزئي استأذنت الطفلة أمها، بلطف لأنها بنتٌ مهذبة، أن تبيت مع أبيها ليومين آخرين، ثم آخرين، وآخرين حتى مرّت أسابيع..

يعرفُ فواز كم بكت مناير عندما أخبرتها ابنتها بأنها تفضل رفقة والدها في أثناء الحظر الشّامل، مكالمات الفيديو فضاحة؛ أنفها متورم وعيناها محتقنتان على الدوام. اتصل بها مرة ورآها برأسٍ حليقٍ مثل ولدٍ مخنّث. وعرف بأن امرأته (ما زال يحب أن يتخيلها كذلك) قد جنّت فعلًا.

لكنها ليست امرأته. ليس بعد ما فعل، وهي لم تغفر له قط.

وما زال يذكر كلامها، بعد أن أصبحت قادرة على الكلام.

لو عكسنا المشهد، لو كنتَ الذي رآني بين ذراعي آخر، لكنتُ الآن ميتة. أنا أعرفُ ما أقول.

وكانت أكثر شخصٍ في العالم يعرفُ ما يقول. ما أدهشه أنها لم تصرخ، أو تبكِ، وكان مستعدًا لكل ردّة فعل طبيعية من قبيل الصراخ والضرب والشتم وحتى محاولات الاغتيال. لو أنها لطمته على خده، لو أنها بصقت عليه، أو لعنته هو وأسلافه (أسلافها)، لو أنها سحقت خصيتيه. لكنها لم تفعل. لقد جلست وحسب، تائهة وشاخصة، غير قادرة على الإحساس بشيء.

لم يكن طلاقهما احتمالا، بل حتمية. وحتى أمّه، أكثر شخص تحبه منابر في الدنيا، عجزت عن التوسّط لإنقاذ زواجه. وجود الطفلة لم يكن كافيًا؛ ليس مع امرأة بهذا الإرث. كان يعرِف ذلك، بقدر ما يعرفُ بأنَّ هذا الشيء اللَّعين بينهما، لن ينتهي، منذ قرّر، عندما كان صبيًا وغرًّا وساذجًا، بأنَّ لديه مهمة على هذه الأرض؛ أن يعتني بها لأن أحدًا لن يفعل.

ترى، إلى أي حد تكرهه منابر، لأنه عاجز عن رسمِ حدودٍ واضحة بين الحب والشفقة؟

في أحد الأيام، خرجا للغداء مع الطفلة بصفتهما طليقين متحضّرين وكل ذلك الهراء، وأخبرته بأنّه لم يحبها قط. وتساءل يومها إن كانت تقول ذلك بصفتها امرأة مجرِّبة، إن كانت قد ذاقت الحبَّ مع آخر. لكن من قال بأنها على خطأ؟ لقد كانت دائمًا الطفلة الشبيهة بالحشرة العصوية، التي يضمّخ وجهها بالماء إذا جاءتها التشنجات، ويحملها بين ذراعيه إذا اضطر، ويتزحلق معها على أرضية الحوش ليلهيها عن مخططات الكبار. حب أم لا، شفقة أم لا.

كانت شيئًا يخصّه، لم يساوره شكٌ بهذا الصَّدد، حتى وهو يتنقل من امرأة إلى أخرى، واهنًا ورخوًا أمام غواية المغامرة، التجربة، ما هو قابع خارج جغرافيا البيتِ الذي يعرفه حجرًا حجرًا. كانت منابر حجرًا آخر على ما يبدو.

كان يعرفُ السَّبب الذي دفعه للزواج منها، لكنه ليس متأكدًا من أسبابها هي. وكلما فكّر في الأمر أكثر توصَّل إلى تفسير وحيد؛ أن أحدًا لن يقبل بواحدة مثلها، أمها عاهرة وأبوها قاتل. الأرجح أن الجدة (رحمها الله) لم تدّخر فرصة لتذكيرها بذلك. والبديهي أنَّ العجوز (عجوز النار.. رحمة الله عليها) لو لم يبادر بنفسه، لأجبرته على الزواج منها، ولو لتبرهن بأنّها قامت برعاية منابر على أتمّ وجه. ابتداءً بتنظيف مؤخرتها وانتهاءً بتزويجها. ومع ذلك كان يعرفُ بأن إحداهما لم تحبّ الأخرى أبدًا. لقد علقتا في بعضهما تقريبًا؛ جدة في السّبعين وطفلة في الثامنة. متورّطتين بعلاقة لا فكاك منها. ولو كان هذا هو سبب زواج منابر منه، فهي أيضًا لم تحبه، وهذا يجعلهما متعادلين.

لكن غياب الحب لا يغير شيئًا، وحتى الحبّ يبدو باهتًا ومسطّحًا إذا ما فكر بطبيعة النداءات التي تدفعه، حتى هذه اللحظة، لكي يتبعها ويتشمم محيطها مثل كلب حراسة. وإذا كان قد مارس، حتى بعد طلاقهما، دوره القديم في شراء السَّمك؛ «الزبيدي» و«البواليل» و«الشيم»، وفي جلب سلال التّمر، ومرطبانات العسل «الدُّوعني»، وتبديل اللمبات المحترقة، وإهدائها تنكات الزيتون الفلسطيني

وزيت الأرجان المغربي، وتذاكر الحفلات الموسيقية الغالية من «دار الأوبرا»، وإذا كان لا يشتري من أي كتاب يعجبه أقل من نسختين؛ واحدة له والثانية لها، فما الذي يعنيه الأمر حقًا، أن أيهما لم يحب الآخر؟

همهمت هدهد بأنها تريد شراء بعض «التوت السحريّ» لقرية السنافر، وعلى الجهاز اللوحيّ رأى فواز أكواخًا وحقولا وسنافر زرقاء. وعد بأن يشتري لها ما تريد إذا وصلا، فابتسمت وقالت «شُكرًا بابا»، وفي تلك اللحظة عرف فواز بأنه لم يكفّ عن الاندهاش قط، من الشبه المرعب بينها وبين نادية. كأنها انتقامٌ قدريٌ مؤجل، وقد عرف ذلك كما عرفته مناير ليلة ولادتها، عندما ضمّتها إلى صدرها ملفوفة بلحافٍ مكدود، وأخذت في النَّحيب. بدت مناير يومها كما لو أنها تبكي أمها، لا ولادة طفلتها بعد أربع سنواتٍ من المحاولات. أما عن نوّاف، فلم يطالبه أحد بمداعبة حفيدته، ولا حتى عندما كانت في قماطها. فهذه العائلة تعرفُ كيف تبقي توقعاتها في حدود المعقول.

رنَّ هاتفه في اتصال فيديو، طلب من ابنته أن ترد. «ماما هدى!» هتفت الصغيرة بصوتِها الذي يشبه البطبطة، وظهر وجه أمّه على الشاشة، مجعّدًا وهرِما ومرعوبًا:

- هدهد قلبي.. وين بابا؟

(٣)

أخذت السَّيارة في التأرجح بمجرد وصولها إلى اللِّسان الرمليّ الممتدّ بين بحريْن، على يمينها الخور الأعمى، داكن الزرقة عارم الموج، لا مراكب تمخرُ عبابه، وعلى يسارِها البحر الآخر؛ البحر الذي تعرفه. الخليجُ الفسيح.

ترجلت مناير من سيّارتها وأحست بحماقة فكرتها بالمجيء. دسّت يديها في جيبي بنطلونها وسارت باتجاهِ الخور، عبرت صخورًا سوداء إلى شاطئٍ رمليّ أبيض. كان بوسعها أن ترى مئات أسماك الزوري المتلألئة، الأمر الذي جعلها تتنفّس على نحوٍ أحسن، من دون مساعدة عقاقيرها المعتادة؛ «البرستيك» و«الزاناكس». وحتى بدون الحشيش والحبّ ورجل يوشوشُ في أذنها بأنه يريدها. على الرَّمل الناعم تحت قدميها عشراتٌ من قواقع ناب الفيل، لكنَّها لم ترغب بلمسِ واحدة. واكتشفت، متأخرة ثلاثين عامًا، بأنها قواقع قبيحة فعلًا. على الشاطئ المقابل، كان المنتجع البحري، وقد امتلأت الشاليهات بالمحجورين صحيًا، وفرغ الشاطئ الرملي من البشر تمامًا.

لو كان بإمكانها أن تترك الخور على يمينها وتسير بمحاذاته، لوصلت إلى مكانٍ يلتقي فيه البحرُ بالخورِ، مكان يفنّد فيه العالم فكرة نقائه، لكنَّ الشاليهات المبنية حديثًا أفسدت فرص اللقاء بين الجسدين المائيين، فعادت إلى الشاليه، تتأمل الصدأ والهجرَ ينخران جدران الصفيح والأعمدة المعدنية؛ كوخين توأمين، عجوزين تقريبًا؛ كانا الشيء الوحيد الذي بقي في مكانِه، في بلادٍ ما عادت تشبه نفسها.

ولأنها ما زالت تتساءل عن السَّبب الذي أتى بها إلى هنا، سارت بمحاذاةِ شاليه عمها طلال، وقد صار إلى جانبه براحُ رملٍ، وبعد البراح ستبدأ متوالية من قصور الإسمنت؛ مبانٍ من ثلاثة طوابق وشرفات فسيحة وأعمدة كونكريت وحدائق، محاطة بأشجار الدّفلى البيضاء والجازانيا وعرائش الياسمين الهندي. كانت منابر تفضّل جدران الجبسون بورد الهشة وسقوف الصّفيح والبلاط العتيق المعشّقِ بالحصى. وأحسّت بأنَّ جدارًا عازلًا يفصلُ البحر عن أحفاد السندباد المفترضين؛ خلف الجدار تتعالى ثرثرةُ أجيالٍ مبتورة عن ذاكرتها. أجيالٌ عمياء؛ لا تعرفُ البحر ولا تتحدّث العربية ولا تدرك من هي. مثل نورة؛ فكّرت. مثل نورة تمامًا، وتساءلت إن كان من قبيل حسن الحظّ في مكانٍ مثل هذا أن يولدَ المرءُ بلا ذاكرة. رغم أنَّ ذاكرتها لم تمنحها العزاءات بأي حال. لكنّها أحسَّت بالاغتراب وهي تتملى في بحرٍ مسطّح، بالكاد يصلحُ خلفية لصورة على «الإنستغرام»، قِشرةُ بحرٍ لا أكثر.

وتساءلت كيف يبدو البحرُ اليوم لنوّاف؟ هل يراهُ كما يبدو

الآن، مجرد جسدٍ مائيّ محايد، عالمًا قديمًا ساقطًا، أم تراهُ لا يستطيع أن يراه دون أن يسمع عدنيّات عامِر ويشمَّ طبيخ نادية؟ وفكّرت بأن الأمر لا بدَّ وأن يكون شديد الصعوبةِ عليه، هو الذي قضى حياته مثل هاربٍ أبديّ، مرتحلًا بين مانيلا وجاكرتا وبتايا، يفتّش عن بحرٍ لا يشبه بحره، عن نساءٍ لا يشبهن نساءه. رجلٌ مرٌّ ومُكرِش يشبه، لفرط ما شرب الويسكي كلب «بيغل» كهل بخدّين ساقطينِ، وحاجبين كثّين بقيا ملتصقين بقوة معجزة. بمجرد حصوله على العفو عن إتمام سنواتِ سجنه (عامين آخرين فقط، أي مسخرة يا حكومة؟)، بدأ رحلة تلاشيه من العالم، خدمة أخرى أسداها إليها. كان غيابه مريحًا؛ يشبه نوم الظالم. رغم أنها لم تتبيّن الأمر في حينه وفكّرت؛ فقط لو أنها تنجح في إثارة اهتمامه، لو أنها تفوز في مسابقة الشعر، أو تشترك في نشاط الإذاعة، أو تتزوج من ابن أخيه، لربما وجدها جديرة بالحُب.

تتذكّر مناير مراهقتها، عندما كانت تكدحُ للحصول على المركز الأول دائمًا، الأول في كل شيء؛ في العلوم والاجتماعيات واللغة العربية، كانت ضمن فريق «الزهرات» تحيّي العلم كل صباح بملابس الكشَّافة، كانت عريفة حفل الخرّيجين وظهرت مرّة على شاشة التلفزيون في مسابقة «مع الطلبة»، وكانت في فريق الموسيقى مع عودٍ رخيص اشترته بمالها، لم تفهم، لماذا حوّله إلى حطام، ولم تفهم لماذا اختفى بعدها.

«منايِر أم قلب»، تضاحكت البنات في المدرسة.. لكنها في الحقيقة بلا قلب، تجوب العالم بصدرٍ مجوّف، لو طرقت على سطحه

ستسمع في رجعِ الأصداء فصاحة الفراغ. كانت تلك هي هديّة أبيها إليها، ليس الاضطهاد الصَّريح الذي تاقت له بكلّ جوارحها، لأنه كان يجعلها بمعنى من المعاني؛ مرئية. لكنه التجاهل التام. تعرفُ مناير بأنها عاشت حياتها كلها متماهية مع ورق جدرانٍ رخيص، خفية مثل برصٍ على جدار إسمنتيّ.

في فترةٍ ما من حياتها، بين السَّادسة عشرة والعشرين أو بعدها بقليل، قرّرت أنَّ من الأفضل ألا تكون ابنة نادية، بل ابنة نواف فقط. خاصّة بعدما خرّفت الجدّة وصارت تعبّر عن مكنونها بلا تورية. تتذكّر مناير أنها كانت عائدة من المدرسة، في الصفّ الثاني الثانوي تقريبًا، عندما شهقت العجوز وبسملت لمرآها، ثم ضحكت ضحكة مجنونة، تشبه احتكاك عجلات السيارة بالشارع، وقالت: «والله على بالي نادية». لم يتوقّف الأمر هنا، بل هزَّت الجدة رأسها وأردفت وكأنما تحدّثُ نفسها «بس نادية لو تطلع من قبرها، نرِدها فيه»، ثم عادت إلى متابعة مسلسلٍ رخيصٍ آخر، مليء بالصَّفعات والخيانات الزوجية والشفاه المنفوخة.

كان من الممكن أن تذهب حكايتها بهذا الاتجاه. أن تتحوَّل إلى ابنة نوّاف المثلى؛ ابنة على شكلِ اعتذارٍ أبديّ عن خطيئة لم تقترفها. كانت مستعدة لكل ما يتطلبه الأمر، لو أنه أراده أيضًا. لكنه لم يرد شيئًا منه، لم يرد ما هو أقل من اختفائها. وتساءلت إن كان هذا، هذا الشيء اللعين الذي أحسَّت به طوال حياتها، هو ما شعرت به نادية عندما انسلّت في الليلِ إلى عامِر. ما لن يصدقه أحد، لأنه أنثويّ

وحدسي ولا يعول عليه، أن نادية كانت تتضوّر من غيابِ الحُب، لأن صورة الحب، تلك الصورة القِشرية اللّماعة المبهجة كأغلفة مجلات الموضة، كانت ماثلة أمام الجميع.

عادت إلى الشاليه ثانية، تتذكّر طفلة السبع سنوات التي تحمل جردلًا مليئًا بالزبابيط والقنافذ السوداء، عندما كان كل شيء في مكانِه. ثم تقفُ على الخطّ الذي ينتهي فيه الرمل ويبدأ فيه البلاط. شاليه منخور يأكله السوس. كان البحر قد زحف أمتارًا وابتلع مزيدًا من الأرض بسبب الأعمال الإنشائية القريبة، وكان يوشكُ أن يقضمَ من الكوخ الهرم، وستكون تلك نهاية معقولة جدًا. وفكرت منايرة أليس من الجنون أنَّ العائلة، هذه العائلة المخبولة، ما زالت قادرة على الاحتفاظ بهذا المكان رغم تاريخه؟

وفي تلك اللحظة رأتهُ؛ جالسًا يستند إلى وسائد السَّدو على بساطٍ قماشي، وأمامه النارجيلة تبقبقُ وضوعُ شيشة التفاح يتبدَّد في الهواء الملحيّ. متى كانت آخر مرة رأته فيها؟ لم يحدث ذلك منذ طلاقها؛ أي منذ أحد عشر عامًا. لم يعن الأمر شيئًا له، أن تضبط ابنته زوجها (ابن أخيه المفضل الشغوف بفهم وحدات التبريد، الناشط الحقوقي الكلب) مع امرأة ما في مكتبه. كانت قد قررت مفاجأة فواز يومها، لأنها نجحت أخيرًا في أخذ الطفلة إلى الصيدلية لتثقب أذنيها.

واقفة على مبعدة أمتارٍ، لم ينتبه نواف إلى مجيئها. كان يهزُّ رأسه مع النَّغم المتصاعد من هاتفِهِ النقّال، لحنٌ «حدّادي» بحريٌ عتيق. كانت

كرشهُ قد تورَّمت وبدا مثل برميل، والكيسين الجلديين الرخوين أسفل عينيه اصطبغا بدُكنة رماديّة، وبدا عالقًا خارج الزمن، كأنه ما زال يحضرُ الاجتماعات الطلابية ويطالب بعودة البرلمان ويطرب للعدنيّات ويغازل النساء، كأن نادية لم تحدث.

استغرقه بعض الوقت لينتبه إلى وجودها، دون أن يتعرّفها تمامًا؛ امرأة في آخر الثلاثينات، حليقة الرأس مثل صوصٍ أقرع، نحيلة الأطراف لكنها بعجيزة كبيرة وثديين مثل جوربي طفل. تفتقرُ للتناسقِ وتبدو (هذا صحيح) مجنونة جدًا. ثمّ عندما اقتربت منه أكثر، وسألته بكل مرارة الدنيا: «ما عرفتني يُبه؟»، فغر فاهُ كالمعتوه، وتسرَّب بخارُ الشيشة من فمه في خيوطٍ نحيلة.

لم تنتظر مناير أن يرحِّب بها. وهي لم تكلف نفسها مشقة التفسير، لكنها شعرت بالوهنِ يدبُّ في ساقيها، وبدأ قلبها يضايقها بتلك الخبطات الغبية التي لا معنى لها. إلا أنها، على خلاف العادة، لم تشعر بأنها مضطرة للاعتذار عن وجودها في هذا العالم. اقتربت من البساطِ وقرفصت على طرفِه، فسألها نواف عما تفعله، عما أتى بها إلى هنا، لكنها لم تجب، أخرجت علبة سجائر «داڤيدوف أبيض» من جيبها وأشعلت واحدة، نفثت الدخان من منخريها ثمّ همهمت كما لو أنهما قد وهبا دائمًا القدرة على الكلام؛ بأن العالم موشكٌ على نهايته، لذا خطر لها أن يتحدثا في بعض الأمور..

(٤)

عندما برزَت منابر أمام نوّاف، قادمة من جهة البحر، بدت مثل واحدة من ملائكة العذاب الآتية لمعاقبته، أخيرًا. كأنه عاش عمره كله في انتظار هذه اللحظة، لكنها بدت مُعذّبةً أكثر من أي شخصٍ يعرفه. اضطربت نبضات قلبه وجفَّ ريقه، أطفأ الموسيقى القادمة من هاتِفه، وبنظرات ذاهلة راقب ابنته التي قرفصت أمامهُ وأشعلت سيجارة وقالت بأنها، بسبب حظر التجوّل واضطرار المرء للاختلاء بنفسه، صارت تتذكّر بعض الأمور، وأنها أمضت الأيام الماضية في قراءة محاولات نادية في كتابة القصص. وقد تلفظت باسم أمها كما لو كان أكثر الأشياء طبيعية، لدرجة أن نوّاف نفسه لم يستنكر الأمر.

تساءل نوّاف إن كانت لوثة قد أصابت ابنته، وفكر بتلك الكلمات المبتذلة عن التعافي والرّحلة الداخلية وبقيّة الهراء على الإنترنت. فما من شيء يفسّر ظهورها بهذا الشّكل، بهذه الهيئة التي تشبه الكوابيس، إلا ذلك. وأحسَّ في تلك اللحظة بشيءٍ من خيبة

الأمل. كان يظنُّها أذكى من أن تهوي في الوهم، وقد منحتها الحياة بسخاء نموذجًا حيًّا على العطبِ الأبدي؛ أبوها شخصيًا. ولأن أيّام الحظر منحته براحًا مزجيًا من الوقت للتفرج على عشرات الأفلام والمسلسلات في «نتفلكس»، فقد أصبح على دراية بطبيعة الغثاءِ الذي يحقن به هذا الجيل في كل لحظة. جيلٌ من البكّائين الدّبقين، السَّاقطين في رثاء الذات، الذين فقدوا إلى الأبد مَلكَة التأسّي.

بحلق نواف في ابنته، وحاول أن يعثر داخله على الجرح الذي حالَ بينهما لثلاثين سنة. أرادَ أن يحسَّ بالغضب الدمويِّ ثانية، أن يزأر لتتركه وشأنه، أن يصرخ بأنها طفلة طفيلية لزجة ثقيلة الظل. حاول نوّاف. بَذَل جهدًا للعثور على المبالاة الضرورية لتوليد ردة فعل، لكنَّ ما أدهشه أن الأسباب القديمة ما عادت صالحة، وأنه -معطوبٌ نعم- لكنه لا يشعرُ بشيء. وصار حضورها يشبه الدغدغة في باطن القدم. كان من الغريبِ (واللطيف أيضًا) أن يرى كائنًا بشريًا بعد عشرين يومٍ من الصَّمتِ والموجِ والمسلسلات الرديئة ورنين الرسائل النصيّة. وتساءل إن كان يرحّب بمجيئها، إن كانت تبدّدُ وحشة ما، لولا أنه يعرفُ بأنه لم تأتِ لرؤيته إلا لأنّها (وهذا يومٌ توجّس منه طوال حياته) صار لديها ما تقولهُ. وفكّر بأن ابنته القرعاء بليدة جدًا، استغرقها الأمر ثلاثين عامًا حتى تصير قادرة على مواجهته، ولم يستطع منع نفسه من الشعورِ بالخزيِ من بطء استيعابها. غبية مثل عامِر، غبية.

لكنها قبل أن تنبس بكلمة واحدة، سُمع هديرُ محرّك. ارتفع

حاجباها في استنكارٍ واضح. وسألته كما لو أنّه سدّد لها طعنة في الظهر: «عندك ضيوف يبه؟»، واكتفى هو بأن غمغم بأصواتٍ مبهمة. نهضت من مكانها وألقت نظرة على المدخل. واستطاع نواف أن يرى أنها بُهتت، ثم ألقت بالسيجارة (بسرعة!) ناحيةَ الرّمل، فردت ساعديها ورسمت ابتسامة على وجهها وهتفت: «هُدهد! حبيبتي!».

سمع قرعُ نعلٍ تقترب، ودهش نواف لمجيء فواز وابنته؛ طفلة حلوة تشبه الحوريّات، يفترض أنها حفيدته. ثمَّ لمح الدموع تملأ عيني مناير عندما رفضت الطفلة احتضانها التزامًا بالتباعد الاجتماعي؛ شيء طبّقه نواف عليها طوال حياته، دون أن يكون محكومًا من وباء.

«هلا منّورة.. شلونك عمّي؟».

قال فوّاز، رافعا كفه الأيمن عاليًا؛ «الله بالخير». «الله بالنور.. هلا فوّاز» بشَّ وجه نوّاف، وفكّر بأنَّ هذا اليوم يصبح أفضل مع كل دقيقة.

ما زال يجد صعوبة في استيعاب تتابع الأشياء. وراح يتملى في ابن أخيه؛ رجلٌ في منتصف الأربعين، لم يحلق ذقنه طوال عشرين يومًا، لكنه عدا ذلك بدا في هيئة ممتازة؛ أكثر شبابًا من مناير التي تصغره بسبع سنوات. كان بلا كرشٍ، بلا لُغدٍ، وما زال يحتفظ بشعرٍ فوق رأسه.

وضع فواز راحته على رأسِ الطفلة وقال: «سلمي على جدّك».

وهمهمت الصغيرة بتهذيبٍ جمّ: «سلام عليكم». دون أن تضيف شيئًا من قبيل؛ يا جدّي. كانت لها غمازتان رائعتان، شعرٌ حريريٌ أسود، وكان متأكدًا بأن جسدها الصغير يمتلئ بالشامات الحُمر. ولشدّة دهشته، لم يضايقه أن تعود نادية إلى الحياة، خاصة وأنها عادت ناصعة وغير ملوثة كما كان يفترض بها أن تكون.

أفلتت الطفلة يدَ أبيها وخبّت لتلعبَ بالرَّمل، وفوجئ بنفسه يسأل إن كانت ابنتهما تجيد السباحة، في تلك اللحظة قالت مناير بأن «هدهد» -أي اسمٍ سخيف هذا؟- تخافُ البحر، ثمَّ سمّرت ناظريها على وجهه كأنها تنتظر أن ترى فيه اختلاجًا.

جلسَ فواز على يمين مناير، وحاول نواف أن يسترجع ما يعرفه من معلومات عن الاثنين. أليسا مطلّقين؟ هل عادا لبعضهما؟ ما الذي يحدث هنا؟ أشار فواز إلى رأسها الحليق وضحك: «خوش تحسونة هذي»، وجاهدت مناير كيلا تبتسم؛ لماذا أتيت؟ حتى لنواف، كانا يبدوان مثل زوجٍ مثاليّ. ظننتكِ اشتقت لهدهد. لا تكذِب. ألم تشتاقي لهدهد؟ ألم تسرق طفلتي مني؟ حرام عليك يا بنت الحلال. لا تتمسكن، إنت بالذّات. وحينها قال أنتِ تخلطين الأمور، كأنه يتمنى أن تلومه على خيانته لها قبل أكثر من عشر سنوات. كأنها ما زالت زوجته، ثم قال بأنه حوَّل لها النفقة هذا الصباح، وضحكت مناير على نحوٍ مُر. أنت ملاك، أليس كذلك؟ ثم احمرّ وجهها وأردفت؛ أي نفقة؟ «إذا كانت البنت عايشة عندك من شهرين؟»، وقالت بأنها لا تحتاج إلى صدقاته. وسألها لماذا تلومُه

على تعلّق ابنته به. وعادت تسأله؛ قُل الحقيقة، لماذا أتيت؟ فقال بأنه اشتاق للبحر.

لم يفهم نواف. لماذا يبدو الاثنان متداخلين في شبكة خيوط أثيرية. منذ لحظة حملَها وركض بها إلى الشاليه، وهو لا يكفّ عن حملها؛ واقعيًا ومجازيًا. لقد ناءَ الفتى بمهمة ترميمِ الدَّمار التي تسبّب به هو. وفكّر لأول مرة بأن ابنته محظوظة فعلًا. فقد حصلت (بفضله طبعًا) على ملاك حارس، رجل غُسل دماغه في لحظةٍ مبكرة من حياته حتى صار يرى بأن مهمته في الحياة هي أن يمسح مخاط أنفها.

استمرَّ شجار الاثنين لبعض الوقت، وقد وجدهُ نواف مسليًا وهو يعبُّ من الشيشة ويعيد تشغيل النغم «الحدّادي» على اليوتيوب، وسمع منابر تكرّرُ على فواز أنها لا تحتاج حمايته. وكان الآخر يسألها؛ من الذي يحاول حمايتك؟ «لا تصدقين نفسك أقول». ثمَّ سأل عمّه عن أخباره، وقرأ عليه آخر إحصائية للوباء، وقال بأن نورة المسكينة عالقة في الحجرِ المؤسسي مثل كثيرين قادمين من بريطانيا، وأن والديه قضيا فترة الحظر في تعلم الزراعةِ العضوية وصناعة «الساوَر دو». استمرَّ فواز في ترديد أخبار لم يسأله عنها أحد، حتى تضرّج وجه منابر بالاحمرار، وانتصبت واقفة، وذهبت تفتش عن ابنتها.

كانت الصَّغيرة على مبعدة أمتارٍ تقيمُ جبلًا من الرّمل، وقرّرت منابر أن تنضمَّ إلى الطفلة على الشاطئ، وتعلّمها أسماء القواقع؛ «نابُ الفيل، خلالة البحر، وزبوط النقعة». أصدقاء طفولتها. لولا

أن استوقفها صوتُ محرّك يقترب، ورأت طلال وهدى يترجلان من الوانيت، حاملين قدورًا تتضوّع ببخارِ الأرزّ ورائحة الرُّبيان.

سرعان ما هبَّ فواز لمعاونة والديهِ، وبدوا في غدوهم ورواحهم بكل تلك القدور والأطباق البلاستيكية والبُسط وقناني الكولا، مثل قوات فريق التدخل السَّريع للطوارئ العائلية، وقد جاءوا -كما هو واضح- لمنع كارثة..

(٥)

واقفة في المطبخ، تذكّرت مناير أغسطس ٨٩، عندما كانت نادية تحوسُ الملعقة في قدرِ الدقّوس، ثم تلتفتُ إليها -طفلة السبع سنوات- وتخبرها بأنها آخذة في التقشّر مثل بطاطا مسلوقة. كان رأسُ مناير يقصفها بتلك الصُّور والأصوات وهي تراقب هدى تشعلُ الموقد لتسخّن القدور التي أتتْ بها من الدّيرة من أجل وليمة غداءٍ غير مخطط لها.

ملتصقة بالجدار مثل سحلية، ترفض أن تساهم بمناولتها ملعقة واحدة، مزمومةَ الفم مثل طفلة نكِدة، تتساءل عن جدوى مجيئها، وتلعن فوّاز. ثمَّ عندما لحستْ هدى طرف ملعقة مغموسة بدقّوس «الصْبار»، وتمتمتْ بأنه «ناااااطع»، لم تستطع مواصلة التظاهر بأنها سعيدة بهذا التجمّع العائلي المشبوه على حافّة نهايةِ العالم، وسألت؛ لماذا أتيتِ يمّه؟

لا تتذكّر مناير متى قرّرت أن تنادي هدى؛ «يُمّه». ثلاثون عامًا فعلتْ فعلها في الجميع على ما يبدو، وهدى في عامها الحادي

والستّين، تعاني من وهنٍ في ركبتيها وتأكلُ الكثير من التمر السكّري والكوارع لتحافظ على حقّها في الحركة. كانت تتظاهر بأن وزنها لم يزد ثلاثين كيلوغرامًا، بمعدّل كيلوغرام واحد في السنة، منذ الاحتلال. قبل خمس سنواتٍ اضطرت لإزالة رحِمِها ومبيضيها بعد العثور على خلايا متحوّلة، ما يمكن وصفه بأريحية بأنه مشروع سرطان. لكنها ما زالت حريصة على صبغ الشّيب في رأسها، وتحبُّ الأقراط الذهبية حبًا جمًّا، وكل أقلام أحمر الشفاه التي تشتريها كرزية حمراء. ورغمَ آلام المفاصل وترهّل الكرش والعرق الذي يرشحُ من مسامِها كالبخارِ منذ انقطعت عنها دورتها الشهرية، إلا أنها ما زالت تحتفظ بحيوية عالية، تُشعر مناير دائمًا بأنها عجوز بالمقارنة مع المرأة التي ربّتها.

قيلت أوّل «يُمّة» على الأرجح وهي في الثانوي، واستمرّت بعد طلاقِها حتى. إذ طالما أُعجبت مناير بقدرةِ هدى على موازنة الأمور، وسطَ علاقة شاذّة ومُعْتَورِة بين اثنين كانا بشكلٍ أو بآخر، طفليها، وانتهى بهما الأمر زوجين ومطلّقين. والأرجحُ أنَّ الأمر حدث بتشجيعٍ خفيٍّ من هدى، بطريقتِها الأنثوية في غرسِ فكرةٍ في رأس أحد، والتظاهر بأنها فكرته. تتذكّر مناير كيف كانت تسرّح شعرها ونورة للعيد، ثم تبتسم متملّية في الوجهين الصغيرين وتقول «بناتي»، وإذا أشارت إليها بالكلام مع طلال تقول «لا تنسَ توصّل بنتك الحفلة قبل لا تروح الديوانية»، أو في تقريعها لفوّاز، حتى بعد الزواج: «ترى بنتي وما أرضى عليها». حدثَ الأمر بسلاسة، لدرجة أن مناير لا تتذكّر كيف نطقت الكلمة لأوّل

مرة. ولا تتذكّر أن هدى قد تفاعلت مع الأمر على نحوٍ استثنائي، أو أنها انتظرته.

ومع ذلك، كانت هدى بالغة الحذر عندما يتعلق الأمر بفوّاز، فهي لم تشِر لها قط بصفتها «أخته»، لأنها مهما ادّعت بأنها فوجئت بالأمرِ، وبأنها لم تخطط له، كانت تريدهُ من كلّ قلبها.

لماذا أتيتِ، يمّه؟

هذه المرّة خرجَ صوتها أوضح، وأحسَّت مناير بإسمنتٍ كلسيٍّ يسدُّ حلقها. حدجتها هدى بطرفِ عينها، وهي تنزع ورق الألمنيوم عن القدرِ الأخير، وابتسمت.

لم تتصلي منذ أسبوعين، ولا تردّين على مكالماتي، ثمّ يخبرني فواز بأنّك حلقتِ رأسك. قرّرتُ أن أرى الأمر بنفسي.

اتسعت ابتسامتها قليلًا وأردفت: «ستايل منّورة، تصدقين لايق عليك؟».

نخرت مناير.

أنتِ لم تقطعي كل هذا الطريق لرؤيةِ رأسي الحليق.

هذا صحيح. قالت هدى، ثم مسحت بيدها على رأسِ مناير وأضافت:

أتيتُ للمسهِ أيضًا.

وكانت تعوّل على قدرتها على إضحاكِ الطفلة. رغم أنها لم تعد طفلة. لكن مناير لم تبتسم.

لمرّة واحدة.. في هذا العائلة، قالت مناير. لمرّة واحدة يمّه، فلنقُل الأشياء الصحيحة.

وفي لحظةٍ تغيّر وجهُ هدى. وبدلًا من أن ترى فيه مناير مسحة قلق، وجدت غضبًا. كوّرت هدى ورق الألمنيوم بيدِها ثم ألقت به في القمامة. لا مشكلة لديّ في الكلام على المكشوف. فتحت الصُّنبور وغسلت يديها. التفتت إلى مناير وسألتها؛ أخبريني أنتِ، لماذا أتيتِ؟

وأحست مناير بأنها محض طفلةٍ تتعرّض للتوبيخ، طفلة في الثامنة والثلاثين من عمرها. نكّست رأسها وغمغمت:

ولماذا بظنّك؟

هزّت هدى رأسها، بحلقت وهمست:

هل جننتِ؟

ثم أعطت مناير ظهرها، وانهمكت في صفّ علب العصير وقناني الماء والكوكا كولا في الثلاجة. أخرجت من أحد أكياسها شدّة جرجير وفجل وبرطمان ثوم الجبل المخلّل. ثم التفتت إلى مناير ربع التفاتةٍ وسألتها:

- ليش ألحين منّورة، شالطّاري؟

أطرقت مناير، فهي لا تستطيعُ أن تخبر هدى بما حدث. لأنها في نهاية المطاف؛ أمها، أم تقليدية مسكونة بالعيبِ والحرامِ والخطأ والآخرين. ما الذي بوسع مناير قوله؟ أنها أحبّت رجلًا كما لم

تحب أحدًا قط، حبًّا اقتلع قلبها من مكانه وجعلها تصدّق أنَّ لها قلبًا، ثم هجرَها؟ أنها تبدو غير قابلة للحبّ ولها جوفٌ فارغٌ ترتعُ فيه العناكب؟ أنها تحتاج أن تلوم أحدًا على تعاستها، وأنَّ صدمات الطفولة سببٌ وجيه؟ أنَّ من حقّ الضحية أن تحصل على صكّ الشرعية لألمها، أن تقولَ هذا ما حدث لي، وهذا ما أنا عليه، ثمَّ ترفع وسطاها في وجهِ العالم مثل أولاد الشَّوارع؟

- يمّه..

تقول مناير.

- قريت قصص نادية.

تضيّق هدى عينيها تتساءل عن علاقة ذلك بالجنون الذي اعتراها، برأسها الحليق وقرارها الأرعن بمجابهةِ أبيها.

كانت تريدُ كتابة رواية. هل كنتِ تعرفين ذلك؟

كلّنا نعرفُ ذلك.

كانت تريد كتابة رواية عن امرأة تزوجت رجلا لن يحبها كما تحتاج، بل كما يريد. هل كنتِ تعرفين ذلك؟

تبتسمُ هدى. تغمغم:

- هذي سوالف ندّوي.

راحت تقتلع أوراق الجرجير من أغصانِها وطلبت من مناير أن تتولى تقطيع الفجل إلى شرائح. ناولتها سكّينا وقالت كما تقول

الأمهات: «خلينا نشوف منافعك». كان صوتُ الرجال -فواز وطلال ونواف- يأتي هادئًا ومكتومًا من غرفةِ الجلوس مشوبًا ببطبطةِ هدهد. سمعت مناير ابنتها تردّد بين فينة وأخرى: «التوت السحري بابا! التوت السحري!». وسمعت فواز يتلفظ بكلمات مثل «جورج فلويد» و«دونالد ترامب»، وتساءلت إن كان المشهد يبدو لعينيّ ابنتها كما بدا لها قبل ثلاثين سنة، ثلاثة رجال في ضجيج السياسة، مع تغييرات طفيفة في الزخرفة.

وضعت مناير حافة السكّين على رأسِ الفجل وهمست:

نادية كانت تعرفُ، لقد عرفت حقيقته منذ البداية.

حقيقة من؟

حقيقة أبوي..

أي حقيقة؟

يتشنج وجهُ مناير:

إنه لم يحبها قط يمّه، لم يحبّها أبدًا، إنه غير قادر على الحب، وأنا أعرف ذلك أكثر منها. وهذا.. عندي على الأقل، يغيرُ كل شيء. لقد صوَّروها كعاهرة، ومن أرخص نوع، النوع الذي يقفز من فراش الزوج إلى فراش العشيق. لكنها كانت غير محبوبة، ألا يعني ذلك شيئًا؟

تنظر هدى إلى مناير بطرف عينها تسألها؛ ألهذا أتيتِ؟

تزفرُ مناير:

لا أدري.

وللحظاتٍ لم يكن يُسمع إلا صوت ارتطام حافة السكّين بالسَّطح الخشبيّ في أثناء تقطيع رؤوس الفجل. تنتشرُ في هواء المطبخ رائحة الجرجير الطازج وتبدأ هدى في فكّ غطاء مرطبان مخلل ثوم الجبل، تغرفُ منه وتملأ به أوعية «الأچـار» الصغيرة، تتضوّع في الهواء رائحة الخلّ.

تزفر هدى، تضيفُ بخفوت:

أحبها أم لا، الأمرُ لا يغيّر شيئًا، ليس في عالمنا هذا. ما مِن أحد سيرى الأمر مبرّرًا.

تغضبُ مناير:

لكنهم يجعلون القتل مبرّرًا.

تهزُّ رأسها.

ثلاث سنوات يمّه! ثلاث سنوات، لم يقضِ منها إلا سنة واحدة. إذا كنا قادرين على تبرير القتل فلماذا لا يسعنا أن نبرّر لنادية أنها..

تقاطعها هدى.

أنا لا أفهم جدوى الكلام في هذه المواضيع. لا أدري ما الذي تحاولين تحقيقه، وإن شئتِ رأيي فقد حافظا على صورة مخادعة للسعادة؛ نادية ونواف، كادا يُخدعان بها أيضًا وقد خدعونا جميعًا. ربما لم يحبها نواف فعلًا، لكنه غير مدرك للأمر، ففي عقلهِ

الذي يشبه صندوق «باندورا»، أحبّها كثيرًا، أحبها بما يكفي لكي يتزوجها وينجب منها طفلة ويلحّ عليها بأن تأتيه بمزيد من الأبناء لكنها رفضت. بقدر ما كانت نادية حكيمة في أمورٍ مثل هذه بقدر ما تصرّفت بحماقة تلك الليلة.

وأحسّت مناير بتسارعٍ في أنفاسِ هدى. واصلت الكلام كأنها كانت تنتظرُ، طوال حياتها، أن تكبر مناير لكي تتحدثا عن الأمر هكذا، مثل امرأتين بالغتين. لا أم وطفلة.

ما أحاول قولهُ، أنه حتى لو خرجتِ إلى الصالة الآن، وسألتهِ بشكلٍ مباشر؛ هل أحببت نادية يبه؟ وعلى فرض أنه كان مستعدًا للإجابة، مع أنك تعرفين كم هذا مستحيل على شخصٍ مثله، لكن لنفترض.. لنفترض أنه قال الجواب الذي تتطلعين إلى سماعه، وهو أنه لم يحبها. مع أنه لن يفعل، لكن لنفترض يا ستّي، أنه قال لا، القضية قضية كرامة، قضية رجولة، وكلمات أخرى صدّاحة. لنفترض أنه يمكننا أن نصفّي الحقيقة العكِرة المركّبة ونخرج منها بإجابات نظيفة. أحبها، لم يحبّها. ثنائيات ساذجة. لكن لنفترض..

ما الذي تريدين قوله يمّه؟

أقول، لو أنه الآن قال لكِ، أنتِ ابنته.. ما تريدين سماعه؛ أنا لا أعرف ما هو الحب، أنا معطوب، أنا ما حبيت نادية ولا حبيتك. لو أجابك على هذا النّحو، ما الذي سيتغير؟ أنا امرأة عملية جدًا، جزء مني يرغب في سحقِ خصيتيه لما فعلهُ بكِ، وقد أشجعك على الكلامِ لو أنني رأيتُ في الأمر جدوى. لكن أنا بالفعلِ لا أفهم.

تغمضُ مناير، تشعرُ بالاختناق وترغبُ في تدخين سيجارة. تعبُّ نفسًا عميقًا وترى أصابعها القابضة على السكّين ترتجف. حلقات الفجل التي صنعتها تفتقرُ، مثل كل شيء آخر، إلى التناسق.

تزمُّ هدى شفتيها:

أخبريني بما تريدينه وسأساعدكِ.

اغرورقت عينا مناير فجأة، نشقت ومسحت أنفها بكمّها.

أريدُ أن يندم، مَرَّة.

سالت الدموع على خدّيها. واصلت تهمس؛

إنه لم يضطرّ قط لدفع ثمن قراراته، لا عندما قتلها، ولا عندما أنجبني. إنه لم يجنِ من المجتمع إلا طبطبات المؤازرة، والكثير الكثير من كلمة «رجُل»، أيًا كان ما يعنيه ذلك.

اختنق صوتُها. اقتربت هدى من مناير لتضمّها لكن الأخرى أبعدتها بلطف، وخرج صوتها مشروخًا.

- ومو هذا سؤالي يمّه..

سمّرت مناير عينين حمراوين على وجهِ هدى، عاجزة لأوّل مرة عن مداراةِ نقمتها.

- ليش إنتي بالذات سكتّي؟

- سكت عن شنو حبيبتي؟ عن موت نادية؟

- لا.

بلعت ريقها بصعوبةٍ.

- سكتّي عن موت عامِر.

(٦)

لم تكفّ هدهد عن الطَّنطنة إلا عندما أخرج فواز من محفظته بطاقة الفيزا واشترى لها سِلالًا من «التوت السحريّ» بتسع دولارات وتسع وتسعين سنتًا. وهو ما يعني، بالنسبة إليه، أن تنفق أموالك في شراء الهراء، لكن أيّ شيء مقابل أن تسكت، وتسمح له بأن يسمع صوت أفكاره. ففيمَ ذهب كلٌ من أبيه وعمّه في حوارٍ فاتر عن آخر إحصائيات الوباء (أكثر من ٣ ملايين مصاب حول العالم حتى اليوم)، عن طوابير الخبز الطويلة، وعن الليلة التي خرج فيها الأهالي إلى السطوح مصفقين (كما في ليلة التكبير)، وعن غيابِ البصلِ من الأسواق، وأجواء يألفها فواز جيدًا، كل ما فيها يبدو مثل مزحة ثقيلة؛ عودٌ أبديٌ إلى الجحيمِ ذاته، أخذ يتملى في وجهيّ طلال ونوّاف وقد احتفظ كلٌ منهما بملامحه تحت طبقة زجاج مُعتم. كان واحدهما يحرّكُ يديهِ أحيانًا، ينخرُ أو يضحكُ، لكن أيهما لم يكن قادرًا على النظر إلى أخيه. وعندما ذكرَ طلال، دون أن ينتبه، أنه حزِن لوفاة «نادية لطفي» سرى في المكان صمتٌ صقيعيّ. حتى إنَّ الصغيرة

رفعت رأسها عن جهازها اللوحيّ، ومسحت بعينين فضوليّتين وجوههم جميعًا. وفي محاولة من طلال لخلخلة الصّمت الذي جثَمَ على المكان، نظر إلى ولده وطلب أن يذهب إلى المطبخ ليرى إن كانت أمّه قد أجهزت، وحدها، على الغداء، ونسيت أمرهم.

وجد فواز المطبخ خاليًا. فارتدى نعليهِ وخرجَ إلى الشاطئ يفتّش عن هدى ومنايِر. مسحَ الشاطئ بعينيهِ فوجدهُ فارغًا، والمدُّ يأتي فارعًا وفصيحًا. استدارَ وراءه ويمَّم باتجاهِ الخور، وهناك عثر عليهما واقفتين أمام قضبان صدئة لأسكلةٍ تمتدُّ مترين في الجسد المائي، تحومُ حولها مئات أسماك الزوريّ.

كانت منايِر، مثل طفلةٍ، تنتفُ قرص خبزٍ وتلقي به للأسماكِ، عيناها حمراوانِ وأنفها منتفخ، وكان الإعياءُ باديًا على وجه هدى، وقد تحوّل لونها من الأسمرِ المتورّد إلى الكُركميّ.

- يمّه؟ شتسوون هني؟

نظرت إليه منايِر بطرفِ عينها، ثم أشاحت تخفي احتقانَ عينيها. سألتهُ بصوتٍ مبحوح:

- وين هدهد؟

- وينها بعد؟ في الشّاليه.. على الآيباد.

زفرت منايِر.

- شفتي يمّه؟ ولدك يخلي البنت تلعب أربعة وعشرين ساعة على الآيباد، طبيعي ما تبي تعيش مع أمها.

تصعّر هدى خدّها:

- الله يهداك منّورة وايد كبّرتي الموضوع..

ولسببٍ ما وجد فواز تسلية في الرّد:

- منّور إنتي تارسة بيتك قطاوة وألعاب وعندك مليون آيباد، ليش البنت ما تبي تعيش معاك؟

ولم يخطر لهُ وقتها أنه نكشَ في أعماقها جُرحًا. وليس جرحًا فحسب، بل؛ الجُرح. أبُ الجراح وأمها. كان يظنها مناكفة مألوفة بين ابنيّ عمومة، الزوجين السابقين، الصديقين القديمين. لكنَّ شيئًا ما في ذلك الوجه الممصوص، الذاهب حثيثًا نحو شيخوخته، جعله يجفل.

- أنا أقولّك ليش ما تبي تعيش معاي، لأنها تلومني على الطلاق.

نتأت العروق على جانبيّ وجهها؛ لأن الطفلة لا تعرفُ من الطرف الذي خان، ومن الطرف الذي سكت. لأنها لم ترَ ما رأيتهُ أنا، بل ما تريهِ لها أنت. لأنك الأب المثاليّ الطيب الذي يبدّل اللمبات المحترقة ويشتري لنا سلسلة «هاري بوتر». لأنَّ الطفلة يجب أن تبقى بعيدة عن هذا القرف، لأنني لا أريد لابنتي أن تكون مثلي.

- خلاص منّورة، خلاص..

قال مقتربًا منها، كأنه يوشكُ على ضمّها.

- أنا آسِف.

طأطأت تمسحُ دموعها بظاهر يدِها. وأخذت هدى تكفكفُ دموعها هي الأخرى. ثم بدأت تقهقهُ فجأة:

- منّورة سامحيه.. ترى والله تربّى.

ضحك فواز:

- يلعن خيرك منّورة عشر سنين وأنا أعتذر..

لكنّها أشاحت نحو البحر، صمتت.

أحسَّ فواز بأنه اعترض نقاشًا محتدمًا بين المرأتين، وتذكّر والده وقدور «المربيَن» وهدهد التي لا بدَّ وأنها تبحث عنه.

- متى الغدا يمّه؟

- شويْ يمّه..

طأطأتْ هدى. ولم يفهم فواز لماذا تبدو أمه كما لو أنها تلقت ضربة في البطن.

لحظتها قالت مناير: «قولي له عادي»، وتنهدت هدى.

أحسَّ فواز بأنه لا يفهم. حتى فتحت هدى فمها وشرحت طبيعة الموضوع؛ مناير تلومني على صمتي. ارتجف صوتُ أمّه قليلًا، ارتجافة تصدّع لها قلبه. ألقت مناير بفتيت الخبزِ من يدها ثم دست يدها في جيبها وأخرجت علبة سجائرها. أشعلت واحدة ونثت الدخان من أنفها. ثم نظرت إلى عيني فواز وقالت:

كلنا نعرفُ حقيقة ما حدث، ونتظاهر بأننا لا نفعل.

تهمهم هدى.

لكننا يا حبيبتي لا نعرفُ أي شيء. لا أحد يعرفُ حقيقة ما حدث.

تنفث مناير الدخان من فمها. ثمَّ تعبُّ نفسًا ثانيًا. يخرج صوتها وئيدًا، كلماتها مرتبة. شيء تمرّنت على قوله آلاف المرات.

أنا أخبرك بما حدث. في السَّاعات التي سبقت الحرب البريّة ذهب نواف إلى عامر. الله أعلم ماذا قالَ له، وما الذي دار بين الرجلين، لكن عامِر اختفى. والمسدس اختفى. وصار عامر من مفقودي الحرب، كلنا نعرفُ بأن هذا ما حدث، لكننا سكتنا، أو لأكن أكثر وضوحًا؛ لقد سكتّم يمه، لماذا سكتَّ يمّه؟

احتقن وجه فواز.

- تأدّبي منايِر!

تشير هدى لفواز لكيلا يتدخّل.

وتتنهّد.

عمّك سأل نواف إن كانت له علاقة باختفاء عامِر، وقال ذهبت إليه، كلمته، أنا رجل مغبون وعندي أسئلة؛ من متى تحبها، لماذا لم تتزوجها.. أسئلة من هذا النوع. وقال بأنهما تحدثا في بيتٍ لأحد أصحاب أبيك ذهب أهله إلى الدمام وتركوا المفاتيح معه، ثم افترقا ولا يعرفُ نواف ما حدث بعدها. وقال بأنه دفع مبلغًا ضخمًا لإنقاذ

عامر من الأسرِ، ولو أنه أراد الانتقام لتركه يتعفن في «المشاتل». وقالَ بأنَّ عامِر مجنون.. لا تستبعد أنه حمل سلاحًا وذهب للإغارة على أحد البيوت التي عسكر فيها الجيش العراقي في السَّاعات الأخيرة، كثير من عناصر المقاومة اختفوا في تلك الساعات. الكثير منهم تحولوا دروعًا بشرية، بعضهم أُسر. بعضهم ألقي به في الصحراء تحت قصف الطائرات. هناك مئات المفقودين من كويتيين وعراقيين منذ حرب الخليج، ماذا لو كان عامر واحدًا منهم؟

- والمسدس يمّه؟

عمّك سأله، والله سأله، وقال أعدته إلى أصحابه. أعطيته خلية مقاومة، ذهبتُ إليهم بعد التحرير قبل أن تطالب الحكومة بتسليم الأسلحة. وقال بأن حيازة المسدس أصلًا لم تكن فكرته، بل فكرة طلال.

ابتسمت مناير، قذفت قطف السيجارة في البحرِ فاقتربت منه دزينة أسماك تشمشمُه وتقضمُ منه.

- وانتي مصدقة هالكلام يمّه؟

- الله أعلم يمّه.

كشَّرت مناير، على نحوٍ مرٍ وداكن، أحست نفسها مطعونة بالاحتمالات، أو بالأحرى؛ مخوزقة بها.

زفرت هدى ثمّ رفعت إلى مناير عينين متضرعتين؛ ربما لم يكن نواف شيطانًا بالكامل. من السَّهل أن يكون الشخص الذي آذانا

هو الشيطان. أن نقول بأنه لم يحب نادية، وأنه قتل عامِر.. لكن ماذا لو أنه أحب نادية ولم يقتل عامِر؟ ماذا لو كنتِ على خطأ؟

ثم راحت تمسّدُ على ظهرِ مناير برفقٍ، وسألتها:

أليس هذا أفضل؟

امتلأت عينا مناير بالدموع. خرج صوتُها مبحوحًا:

لا، هذا أسوأ يمه، أسوأ من أي شيء آخر.

(٧)

ليس ثمة نهاية.

هكذا فكّرت منايِر على الغداء، أنَّ النهاية محض تلفيق.

جلست على طرف البساط، تنوءُ بجرحٍ لا يُرى، ومثلهم جميعًا كانت تثني ركبة واحدة وتجلسُ بميلٍ طفيف إزاءَ الصَّحن الذي ملأته هدى حتى تخومه. كان فوّاز يلقي، بين لحظةٍ وأخرى، بحبّة رُبيانٍ أخرى في صحنِ هدهد، يناكفها لأنها ستبلغ الثانية عشرة من عمرها قريبًا ولـمّا تجرّب «الأچـار» بعد، واقترحَ عليها بأن يسكب على طرفِ صحنها شيئًا من الماء المخلّل لثوم الجبل حتى تعرفَ الطفلة الجاهلة طبيعة هذا الشيء العظيم الذي يفوتها. ثمّ أخذ يلوّح بزجاجة الشطّة مشيرًا إلى الديك الأحمرِ على الملصق. وقال لابنته بأنها تنتمي إلى جيلٍ ممسوخ، بلا طعم ولا رائحة ولا نغم. لكنَّ الصغيرة أصرَّت على موقفِها؛ بأن الأرز المخلوط بالماشِ والإشبنتِ والرّوبيان هو شيءٌ فظيعٌ فظيع، وتساءلت لماذا لا يسعهم أن يأكلوا أشياء طبيعية، مثل بقية الناس حول الكوكب، أشياء مثل

الهامبورغر والبطاطا المقليّة مع الكاتشاب. وفي تلك اللحظة تمتمت هدى: «الله يزيد النِّعمة». ثم نظرت إلى مناير آملة أن تراها تبتسم، لكنَّها بدت مستغلقة ومُصمتة، مثل زبوطٍ حزين.

بين الفينة والأخرى كانت ترسلُ عينيها ناحيةَ أبيها الذي تخلى عن وقارِهِ وراح يكوّرُ الأرز ويلقيِ به في فمِه وهو يشكرُ هدى، مرة بعد مرة بعد مرّة، لأن سنواتٍ مرّت دون أن يتذوّق أكلًا مثل هذا، «أكل بيوت» كما أسماهُ، وفي لحظة وثبت هدى من مكانِها، متحدية آلام ركبتيها، وهرعت إلى المطبخ تردّد «الله يلعن الشيطان» لأنه أنساها مرطبان السَّمن البلدي. ولمّا بلغت الأمور هذا المبلغ، بدا على نواف أنه على وشكِ البكاء، وتصرَّف كما لو أن العائلة قد قرّرت المجيء في هذا اليوم الميمون المبارك، وزيارته هو الابن الضّال الكحوليّ المسكين، لإبهاجه بعد أيامٍ قضاها وحيدًا أمام البحر، يتذكّر مرة بعد مرة، كيف أغرق زوجته قابضًا على عنقها، ويتذكّر عنقها؛ كم هو هشٌ وكرستاليٌ وجميل.

امتلأ جسدُ مناير بوخزاتٍ غريبة، شيءٌ يشبهُ الدبابيس تحت الجلد، يتزايد كلما أوغلَ نوّاف في الثناء على الطعم والرائحة، كلما علا صخبُ ضحكاته وتطاير رذاذُ السعادة من فمِه. لا تكادُ تصدّق، أن خططها (خطط مغبشة وعديمة الملامح نعم، لكنها خطط) قد أجهضت، وأن ما تمنّته كعودةٍ انتقامية للماضي، تحوّل إلى اجتماع لمّ شملٍ سعيد.

الشيء الوحيدُ الذي بدا لها عادلًا، في الأمر برمّته، أنَّ نوّاف

كان يختلسُ النظر إلى ابنتها، وتعرفُ منايرِ بأنه يتوقُ إلى لمسِها. لكنها لم تسمحْ له بذلك.

لم تتوقع منايرِ من العائلة أن تتصرّف على نحوٍ مختلف، وكما لو أنهم ما زالوا في صيف ١٩٨٩، أوغلوا سريعًا في السياسة. تحدثوا عن الضَّربات الصاروخية التي وجهها الحرس الثوري الإيراني ضدّ قاعدتين عسكريتين أمريكيتين في بغداد. وقالَ طلال بأنه يتذكّر موقف الكويت من وجود قواعد أمريكية في الخليج قبل الغزو. رفع قبضته يستحضر من ذاكرته مانشيتات الصحف: «لا قواعد أمريكية في الخليج، اغربوا عن سمائنا وبحرنا!»، ويمتلئ رأس منايرِ بمرأى الطائرات العسكرية، أسراب طائر الرُّخ العملاقة تمخر شحوب السماء. نوارس مضمخة بالسُّخام تحط على الأسوار. سُفن حربية، غواصات، حالة طوارئ في مجتمع الأسماك. الزبابيط في خطر.

وقالَ طلال بأن المنطقة ستدفع إلى الأبد ثمنَ حماقة سنة التسعين. وأنها ليست سوى حماقة، رعونة سياسية. ثم التفتَ فوّاز إلى منايرِ سألها؛ كيف وجدتِ بغداد؟ وكاد قلبها ينخلعُ من مكانِه وهي ترى أباها يسمّر عينيه إلى وجهها، مهتمًا لأول مرة بمعرفة ما ستقوله. تحشرجَ صوتها وسعلت، ربّتت هدى على ظهرها، ثمَّ قالت بأنها لم تشاهد الكثير، لأنها بقيت في «المنطقة الخضراء»، وكانت محكومة ببرنامج الوفد وفعاليات المؤتمر، وأن السَّفارة الأمريكية هناك بحجمِ دولة، حتى هي وجدت الأمر مستفزًا، وقالت بأنَّ بغداد بدت مثل الكويت في سنة ١٩٩٢؛ متعبة. رمادية، جدرانها مضمَّخة

بصور الشهداء، وقالت بأنها لا تدري حتى اللحظة، أيهما أسوأ، الحرب الأهلية أم الديكتاتورية. الغزو الأمريكي أم صدام حسين. ثم ابتسمت وقالت بأنها تهرّبت من الوفد في اليوم الأخير، وعبرت دجلة «باللَّنج» من الضفة إلى الضفّة.

أحسَّت منابر بأنها آخذة في الانطفاء، عندما ذهبوا للحديث عن الشأن المحلي؛ عن السّياسة التي صارت رديفًا للمنفعل والموتور والمتشّفي، عن سلطةٍ كسولة وفاسدة ومعارضة هجينة تطرح نفسها كلافتةِ احتجاجٍ لا كمشروعٍ بديل. عن الخطاب السياسيّ المسطّح المسكون باليومي، الذي انقَضَّ عبر السنين على خطابهم القديم المشيَّد بالحلم والتبشير، عن أحاديث مألوفة، يائسة ومترعة بالهزائم، عن غياب الاصطفاف وانعدام الجدوى. النقاشُ نفسه منذ ثلاثين عامًا. وأحسَّت منابر بأنها تشيخ، ربما أسرع منهم جميعًا، أنها أمضت حياتها تنتظرُ أن تصير كبيرة كفاية، وكافية كفاية، لكي تواجه نوّاف وتخبرهُ برأيها الذي لم يسألها عنه أحد؛ بأنها تتمنى لو كانت ابنة عامِر، وأنها لا تلوم أمها ولا حتى قليلًا. كلمات طفولية وغاضبة، أمضت السنين تنحتُها، تدبّب أطرافها وتبرد مخالبها. جاشَ باطنُها فجأة، وأحسَّت بأنها عاجزة عن مواصلة التظاهر بأنها بخير.

نهضت وسط ذهول الجميع. «أكرمك الله يمّه». قالت ثمَّ نظرت إلى أبيها، وقد بدا لها، بخدّيه المترهلين وفمه الذي لا يكف عن المضغ، معتوهًا جدًا. وعرفتْ بأن شيئًا لم يتغير بالنسبة إليهِ أيضًا، أنَّ أيّ شيءٍ تقولهُ سوف ينفقُ لافظًا أنفاسه قبل أن يتمخّض عن معنى.

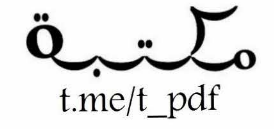
ثمّ سألها نواف:

- وين ماشية.. توّ الناس!

وتساءلت إن كان أبوها قد صار، أخيرًا، قادرًا على رؤيتها.

أشاحت بعينيها دون أن تنبس بكلمة، ثمّ فتحت الباب وخرجت تهرع إلى سيارتها. كان جسدها يرتجُّ وهي تشغّل المحرك وتطبق بيديها على المقود وتمضي عائدة إلى الدّيرة، متجاهلة متوالية اتصالاتٍ من فواز، ومن هدى أيضًا.

كانت وقتها تدوّم في الفكرة ذاتها؛ أنّه ليس ثمة نهاية، لا شيء ينتهي حقًا.. اللعنة، لا شيء ينتهي.



ورقة لاصقة على مغلّف

خالتي العزيزة،

آخر مرّة رأيتكِ كانت في فبراير سنة الـ ٩١، وكنتِ وقتها تبحثين عن أخيكِ. لا بدَّ وأنك، وقد قرأتِ، صرتِ تعرفين الآن بأنَّ اسمي ليس مناير، كما أنَّ اسمك ليس فاطمة، وما من اسمٍ هنا كما هو في الواقع، وهذا نوعٌ من قلة الحيلة كما تعرفين.

أعلمُ بأنك تريدين معرفة ما حلّ بأخيكِ، وأعتقدُ بأنني كتبتُ رواية كي أجيب عن سؤالكِ، رغم أنني لم أفعل.

ربما ليس هذا ما حدث، أقول أحيانًا.

لكن لا بدَّ وأنَّ هذا هو ما حدث. أليس كذلك؟

الأشياء التي أعرفُها، كتبتها كما هي. الأشياء التي لا أعرفُ عنها، تخيّلتُها. ففي نهاية الأمر، أنا صدقًا لا أعرف.

م. ن.

تمّت

٢٠١٩ – ٢٠٢١

شكر وتقدير

أشكرُ كل من ساعدني على كتابة ومراجعة وتحرير هذا العمل.

وأخصُّ بالذكر الأستاذ القدير عامِر فردان، الذي قدّم لي المشورة والعــون في عملية التَّحقيـق والتَّصويب والتَّحريـر والمراجعة، وكان لــي نعمَ المعلّم والموجّه كلما استعصت علــيَّ الذاكرة أو غلبني جهلي.

كما أشكر الأصدقاء الذين ســاعدوني في قراءة مســودة الرواية وأبدوا ملاحظاتهم القيمة؛ الروائي العراقي سنان أنطون، الشاعر العراقي محمد العتابي، الروائي الســعودي أشرف فقيه، الشاعر العراقــي علــي وجيه، الكتبــيّ العراقي فارس الكامــل، د. أحمد العجَمــي من مصــر، الأســتاذة هــدى الدخيل والأســتاذ ماجد سلطان، والدتي كوثر المسلّم، والناقد السعودي طارق الخواجي، والصديقة سناء دباغ من فلسطين.

شكرًا لهم جميعًا.

بثينة العيسى

٥ أغسطس ٢٠٢١

عندما أتم الأربعين من عمري، سوف أكتب رواية.

لم ينقلب العالم رأساً على عقب، ولم تبدأ في الاختفاء.

ثمة ما لا يفهمه، أمرٌ كان يحدث أمامه طيلة حياته، لم يخطر له أنه يختمر في أعماقه معنا.

..تريد أن تكتب رواية تشبه قصة الخلق؛ رجل وامرأة، حب وخطيئة، طوفان وفلك، قيامة وحساب.
تريد أن تكتب القصة التي يكتبها جميع الكتاب، لأنها قصة مقدسة، كلاسيكية، تشبه ذوقها.

..أن يكون عقلانياً، أن يمتطي عاطفته ويخضعها لقانون الممكن والمستحيل. فهو في النهاية ابن الشوارع المرنخ بالسياسة، الملم بالممنوع والمتاح، يعرف أن الوقت ليس في صالحه، وأن من الأنانية أن تجعل امرأة تنتظرك إلى الأبد.

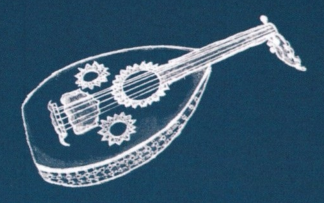
لكن الخيانة وجه آخر للمقاومة أحياناً.

لقد فقد العالم نقاءه إلى الأبد.

بثينة العيسى

السندباد الأعمى

أطلس البحر والحرب







منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com